بوتومور

علم الاجتماع والنقد الاجتماعى

ترجمة وتعليق :

دكتور محمد الجوهرى

دكتور السيد الحسينى

دكتور على ليلة

دكتور أحمد زايد

دار المعارف

سلسلة علم الاجتماع المعاصر
الكتاب الرابع والاربعون

بوتومور

علم الاجتماع والنقد الاجتماعي

ترجمة وتعليق

دكتور محمد الجوهري
استاذ علم الاجتماع
جامعة القاهرة

دكتور السيد الحسيني
استاذ علم الاجتماع المساعد
جامعة عين شمس

دكتور على ليلة
مدرس علم الاجتماع - جامعة عين شمس

دكتور أحمد زايد
مدرس علم الاجتماع - جامعة القاهرة

الطبعة الأولى
١٩٨١

دار المعارف

ترجمة عن الانجليزية لكتاب :

T. B. Bottomore, Sociology as Social Criticism, Pantheon Books, Random House, New York, 1974.

الناشر : دار المعارف ـ ١١١٩ كورنيش النيل ـ القاهرة ج٠م٠ع

المحتــــويات

الصفحة

مقدمة الترجمة العربيـة ٥
مقـــدمة المـؤلف ٧

الباب الأول
النظريات الاجتماعيـة

الفصـل الأول :
الانسان المحـافظ ١٧
الفصـل الثـانى :
خارج هـذا العـالم : النظرية السوسيولوجية لتالكوت
بارسونز ٢٩
الفصـل الثـالث :
الأزمة فى عـلم الاجتماع ٤٩
الفصـل الرابع :
التنمية بين الرأسمالية والاشتراكية ٦٣
الفصـل الخـامس :
كارل ماركس : عالم اجتماعى أم ماركسى ؟ . . . ٨٥

الباب الثـانى
الطبقات وجماعات الصفوة

الفصـل السـادس .
فى البحث عن البروليتاريا ١٠٩
الفصـل السـابع :
البنـاء الطبقى والوعى الاجتماعى ١٢٣

الصفحة

الفصل الثامن :
الطبقة والسياسة فى أوربا الغربية ١٤٥

الفصل التاسع :
الصفوة الادارية ١٧١

الفصل العاشر :
الاتساق والانقسام فى جماعات الصفوة فى الهند . . ١٨٧

الباب الثالث

الحركات الاجتماعية والعمل السياسى

الفصل الحادى عشر :
الصراع والتغير الاجتماعى ٢١٣

الفصل الثانى عشر :
الاطار السياسى للتكنولوجيا ٢٢٩

الفصل الثالث عشر :
تأملات فى الحركة الطلابية ٢٥٥

الفصل الرابع عشر :
مستقبل الراديكالية ٢٦٧

مقدمة الترجمة العربية

هــذا هو الكتاب الرابع لعالم الاجتماع الانجليزى الأشهر توماس بيرتون بوتومور الذى تقــدم له ترجمة عربية فى سلسلة عــلم الاجتماع المعاصر · فقــد سبقته فى هـــذه السلسلة كتب : الطبقات فى المجتمع الحــديث ، والصفوة والمجتمع ، وتمهيد فى عــلم الاجتماع · وقد لاحظ القارىء لتلك الكتب الثلاثة السابقة ، كما سيلاحظ من قراءة هذا الكتاب الرابع ، الســمة السائدة لكتابات بوتومور ، وهى اتخــاذه موقفا تقدميا للفــكر الاجتماعى ، والكتــابة بأسلوب نقدى فاحص للتراث ، لا يمجــد تمجيدا اعمى النظريات والأفكار الغربية التى اعتــدنا مطالعتها فى سائر الكتب السوسيولوجية التى قرأناها فى لغتهــا الأصيلة أو فى ترجماتهــا العربيــة ، والتى تتخــذ فى الأساس موقفا محافظا أو تقليديا من التراث الغــربى ·

من اجل ذلك الطابع العــام لكتابات بوتومور ترجمنا له هذا العدد الكبير من المؤلفات ، ولــكن هذا الكتاب يستحق فى راينا ان نوليه قدرا اكبر من العناية والاهتمام ، خاصة فى هذه المرحلة الحاسمة فى مراحل تطــور الفــكر الاجتمــاعى والتنظير فى علم الاجتماع فى بلادنا · فهو دراسة واعيــة عميقة وشاملة للاهتمامات الرئيسية فى عــلم الاجتماع الراديكالى ، واعنى بعـــلم الاجتمـــاع الراديكالى تلك النظريات والآراء السوسيولوجية التى تجتهد فى أن ترى فى العــالم الاجتمــاعى القــائم حولنا جوانب التوتر والصراع بين مكونات البنــاء الاجتماعى · وهى توترات وصراعات من شانها أن تهــدد الحرية الانسانية وتعوقها وتقلل من فاعليتها من اجل خير الانسان ·

ولا يقتصر عــلم الاجتمــاع الراديكالى على رؤية جوانب التوتر والصــراع فى حياتنا الاجتماعية ، ولكنــه يتجاوز ذلك الى الاهتمــام بدراسة المنطلقات الفــكرية والأسس النظرية للحركات الاجتماعيــة التى

تتصدى لتغيير هذا الواقع الظالم للانسان ، من أجـل خلق مجتمع افضل اكثر عدلا واكثر حرية ٠

ويضم هذا الكتاب مقدمة واربعة عشر فصلا تولى ترجمة الفصول الاربعة الأولى منها مع المقدمة الدكتور على ليلة ، وترجم الدكتور محمد الجوهرى الفصل الخامس ، بينمـا اضطلع الدكتور احمد زايد بترجمة الفصـول من السادس حتى العاشر ، وقام الدكتـور السـيد الحسينى بترجمة الفصول من الحادى عشر حتى الرابع عشر ٠

وانا لنرجو أن تستمر سلسلة عـلم الاجتمـاع المعاصـر فى فتح نوافذ جديدة دائمـا على الفكر المتطور فى حقل عـلم الاجتماع ، وتقدم لجمهـور المشتغلين بهـذا العلم والمهتمين به صورة نابضة بالحياة لمـا يدور فى هذا الميدان ٠

والله ولى التوفيق ؟

المترجمون

القاهرة فى أول مايو ١٩٨١ ؟

مقـــدمة

الاتجاهات المحافظة والراديكالية

فى عـلم الاجتمـاع

واضح أنه من الصعب تفسير الوجود المتداخل للأفكار الراديكالية والمحافظة فى الفكر السوسيولوجى ، وكذلك العلاقات المتبادلة بينهما والمتغيرة تاريخيا . اذ يعتبر المعنى المتنوع وغير الواضح لكلمتى (راديكالى Radical) ومحافظ Conservative أحد مصادر الصعوبة . وربما كان هناك بعض الكتاب الذين مازالوا يرغبون فى مقابلة علم الاجتماع البرجوازى Bourgeois sociology (المحافظ) بالنظرية الماركسية Marxist theory (الراديكالية) . غير أن هذه النظرة لم يعد أحد يتمسك بها بقوة . فقد تعمل الماركسية فى الوقت الحاضر على التأكيد على حالة معينة راهنة فى بعض المجتمعات ، ومن ثم تعوق النقد . وفى مكان آخر قد تبدو الماركسية ، على الأقل في أشكالها الأكثر أرثوذكسية ، قد فقدت بعضا من قوتها الراديكالية ، لأنها لم تعد تؤكد على المشكلات والصراعات الرئيسية لهذا العصر . فبسبب تجاهلها لموضوعات محددة ، نجدها قد فقدت طبيعتها التحريرية(١) . وقد حاول الكتاب الذين لديهم شكوك فى الطبيعة الراديكالية للفكر الماركسي فى نهاية القرن العشرين كثيرا أن يحددوا الاتجاهات الراديكالية والمحافظة

---

(١) هناك تصوير جيد للتطور الحديث للأفكار الراديكالية المضادة للماركسية الأحزاب الشيوعية فى فرنسا فى مؤلف ريتشارد جومبين Richard Gombin, Les Origins du gauchisme (Paris, 1971) وتحليل لأعمال بعض النقاد الأمريكيين الكبار فيما يتعلق بالفكر الماركسى فى مؤلف بيتر كليكاك Peter Clecak, Radical Paradoxos (New York, 1973, وفى حدود علمى ليس هناك تحليل مماثل للفكر الراديكالى فى ألمانيا ، وان كانت أفكار مدرسة فرانكفورت Frankfurt School قد قدمت بوضوح فى مؤلف البرت ولمر Albert Wellmer Critical theory of Society, New York, 1971.

بأساليب أخرى · على سبيل المثال عن طريق تأسيس فصل ، كذلك الذى أسسه س · رايت ميلز C. Wright Mills بين تمجيد المجتمع كما هو وبين نقده ، أو كما فعل الان تورين Alian Touraine بمقابلة « علم اجتماع صياغة السياسة الاجتماعية » ، بعلم اجتماع الصراع »· وعموما تكمن المشكلة فى هذه الصياغات فى كونها أقل تحديدا فى تحليلها للمجتمع القائم ، أو القوى الاجتماعية الراديكالية التى تعمل فى اطاره ، وأهداف الحركة الراديكالية كما فعل ماركس فى تقريره عن المجتمع الراسمالى ، ودور الطبقة العاملة ، وحلول الاشتراكية · غير أن عدم التحدد هذا قد لا يمكن تجنبه · لأنه قد يعكس الظروف الاجتماعية المضطربة فى الوقت الحاضر · وبعد كل ذلك ، فليست هناك قيمة كبيرة فى أن نمتلك اطارا نظريا محددا ينفصل تماما عن الحقيقية · وعلى اية حال ، فقد أصبح معنى نظرية ماركس الاجتماعية ، كما تطورت عبر عقود عديدة ، موضوعا للجدل والتفسيرات المتنوعة · اذ تؤسس كثير من الانتقادات الراديكالية للماركسية نقدها فى نطاق تصور محدد لمغزى الفكر الماركسى · حيث يتحدد مدى التطور الاجتماعى ، ويفسر بواسطة نمو القوى المنتجة ، وأهمية الطبقة العاملة كوسيلة للتحول الاجتماعى · وذلك فى مواجهة تأثير ما يشخصه ماركس بتقدم (العقل العام) general intellect ، وهو عبارة عن النظم الضرورية الملائمة للمجتمع الاشتراكى ــ حيث طرحت كل هذه الموضوعات للمناقشة والتفسير(٢) ·

وليس هناك تأكيد بعدم التطابق وأفكار ماركس ، برغم وجود اختلاف واضح فى التأكيد حول صياغات تتعلق بالشروط الأساسية للاشتراكية كتلك التى قدمها ولمر Wellmer : حيث أصبح نقد وتغيير البناء الفوقى له أهمية جديدة وحاسمة بالنسبة لحركات التحرير ··· وقد يكون ضروريا أن يحتوى المجتمع الاشتراكى على الديموقراطية الاشتراكية ، والعدالة الاشتراكية ، والأخلاق الاشتراكية

---

(٢) نوقشت بعض هذه المسائل بصورة أكثر اكتمالا فى مقدمتى لمؤلف كارل ماركس Karl Marx (Englewood Cliffs, N. J. 1978)

أو (الوعى الاشتراكى) بين مكوناته التى ينبغى أن تنمو فى رحم المجتمع الراسمالى(٣) ·

فاذا تعرضت راديكالية الماركسية فى بعض اشكالها الرئيســية للشك ، فان ذلك قد حدث أيضا للنزعة المحافظة فى علم الاجتماع · وفى هذه الحالة ايضـــا نجد تفسيرات متضادة لتطور التفكير الاجتماعى · حيث وصف علم الاجتماع كثيرا (كعـلم للأزمة الاجتماعية) بل أنه قـد ظهر اصـلا فى اطار الأزمة الاجتماعيـة والثقافية التى صاحبت انهيار النظـام القـديم ancien regime ونشأة الراسمالية الصناعية · بيد أنه يمكن النظر الى هـــذه الاستجابة العقلية بأسلوبين مختلفين · اذ يمكن النظر الى علم الاجتماع من ناحية على انه قد تكشف من خــلال الفكر الاجتماعى النقدى لعصر التنوير ، ومن ثم فقد طرح شكلا راديكاليا قويا يتمثل فى فكر كارل ماركس · وعلى النقيض فقد يدرك علم الاجتماع كرد فعـــل لعصر التنوير اسسه مفكرون محافظون فى بداية القرن التـــاسع عشر(٤) · وقد أعجب كونت الى حد كبير بافكارهم واستوعبها فى بناء نسقه السوسيولوجى ·

وحتى اذا وافقنا على أى من هذه التفسيرات فسيظل من غـــير الضرورى افتراض ان توجيه الفكر السوسيولوجى قد بقى ثابتا لم يتغير على مدى قرنين تقريبا · فقـــد اكـــدت الانتقادات الراديكالية فى علم الاجتماع كثيرا بأن العصر الذهبى للفكر الاجتماعى ـ وهى الفترة التى بين ١٨٨٠ ، ١٩٢٠ حيث كتب خلالهـــا ماكس فيبر ، دوركيم ، باريتو أعمالهم الأساسية ـ قد تميز بطابع رد الفعـــل المحافظ ضد الماركسية · وليس هناك شك فى أن هؤلاء المفكرين قد اهتموا أساسا ، بقرائن مختلفة ، لنقد النظرية الماركسية(٥) · ومن ثم فقد ساهموا بعناصر هامة فى بناء

---

(٣) Wellmer, Op. cit., pp. 121 - 2.

(٤) See especially the discussion in R. A. Nisbet, The Sociological tradition (New York, 1966), PP. 16 - 18.

(٥) H. Stuart Hughes, in his Consciousness and Society, New York, 1958) حيث يرى بحق أن نقـد المـاركسية يعتبر احـد العنـاصر التى شـاركت فى اعادة توجيه الفكر الاوربى خـلال هـذه المرحـلة ·

إلنظرية المحافظة عن المجتمع • غير أن الحوار الذى شاركوا فيه مع الماركسية ساعد فى الحفاظ على ذيوع الفكر الماركسى فى علم الإجتماع • وفى بعض الأحيان (كما حدث فى حقب الثلاثينات والستينات من القرن التاسع عشر) اعتمد انبعاث الفكر الراديكالى على الأفكار الماركسية الى حد كبير •

ومع ذلك فهناك نقد أكثر عمقا للتوجيه المحافظ فى علم الاجتماع ، وهو النقد الذى ينكر كلية راديكالية فكر التنوير بالشكل الذى اتخذه فى علم الاجتماع • والذى يشكك فى عناصر النظرية الماركسية التى استمدت من نفس المصدر • حيث قدمت مدرسة فرانكفورت أساسا هذا النقد • وبخاصة ماكس هوركهايمر Max Horkheimer الذى يرى أن العقلانية العلمية للتنوير تتضمن تصورا للطبيعة كموضوع للسيطرة والتحكم البشرى ، وهو التصور الذى ادى بالضرورة الى نظرة مماثلة للانسان ذاته ، وله فى علاقاته الاجتماعية المتبادلة ، كموضوع للسيطرة(٦) • وبسبب تأكيد نظرية ماركس بصفة خاصة على العمل كاسلوب بشرى لتحقيق الذات ـ وبصفة عامة بسبب موافقة ماركس الواضحة على نمو العلم والصناعة الحديثة ـ انتقده هوركهايمر باعتباره ينتمى الى فكر التنوير(٧) •

ومن وجهة النظر هذه اعتبرت المرحلة الأولى لنشأة علم الاجتماع ـ سواء كان التأكيد على الاسهامات العقلية للرومانتيكية المحافظة ، أو اسهامات مفكرى التنوير ـ كتاسيس لوجهة النظر المحافظة عن المجتمع ، وهى وجهة النظر التى تتناقض بطريقة أو بأخرى مع المذاهب التى تجعل التحرر الانسانى ممكنا • ويبدو أن مفكرى مدرسة فرانكفورت قد قالوا فى

---

(٦) Max Horkheimer, **Eclipse of Reason** (New York 1971); Theodor Adorono and Max Horkheimer, **Dialektik der Aufklärung** (Amsterdam, 1947).

(٧) عمقت الدراسات الاخيرة التى اجراها اعضاء مدرسة فرانكفورت هذا النقد ووسعته See Wellmer, Op. cit., (الوضعية الكامنة فى فلسفة ماركس للتاريخ) Chapter 2. (The Latent Positivism of Marx's Philosophyof history).

النهاية أن المجتمع البرجوازى ، كظاهرة ثقافية عامة ، يستطيع أن يقدم نظريات اجتماعية برجوازية محافظة · وحينما امتد هذا التفكير النقدى الى الفكر السوفيتى الذى نظر اليه باعتباره قد طور اساسا كل عناصر العقلانية العلمية فى النظرية الماركسية ، فان النتيجة المتشائمة التى نصل اليها تتمثل فى أن معظم أشكال التفكير الاجتماعى الواسعة الانتشار فى الحضارات الرئيسية الحديثة ، مالت كلها لدعم نسق السيطرة ، وأن قلة باقيـة من ممثلى العقـل النقـدى Critical reason هى فقط التى تناضل ضدها(٨) ·

وتلقى هذه المناقشات الضوء على جانب آخـر من تطور الفـكر السوسيولوجى وتوجيهه · فهناك من ناحية ترابط داخلى للأفكار ، حسب اسلوب تفسيرها ، يكشف عن ميل وجهة النظر السوسيولوجية المحددة لدعم أو رفض شكل قائم للحياة الاجتماعية · ومن ناحية أخرى استمد التفكير السوسيولوجى اهتمامه الرئيسى ، وعلى الأقل جزءا من الاطار العام لافتراضاته القبلية ، ومحكاته فى الحكم على ما هو صادق أو ذو دلالة ، من شكل المجتمع الذى نشأ فى اطاره · ومثلما لاحظ روبرت لند Robert Lynd سابقـا ، فان علـم الاجتمـاع لم يكن معرفة مدرسيـة مقصورة على فئة قليلة ، وانما كان جزءا منظما من الثقافة العامة يوجد لكى يساعد الانسان باستمرار على فهم ثقافته واعادة بنائها(٩) · وقـد اكـد لنـد Lynd على اعادة بناء الثقافة ، وأيد علمـا اجتماعيا أكثر راديكالية يستطيع أن يوضح طريق التحول الراديكالى للمجتمع الأمريكى فى فترة الكساد · غير أن علم الاجتماع كجزء من الثقافة لم يستطع أن يهرب بسهولة من تأثير ما هو مسيطر فى هذه الثقافة · وفى الفترات التى يسود فيها المجتمع ذاته جدل وصراع صريح ، فاننا نجد فى المحل الأول أن الفصل بين علم الاجتماع الراديكالى والمحافظ يتحدد بصورة حاسمة ،

---

(٨) انظر بصفة خاصة الفصل الاخير من مؤلف هربرت ماركيوز Herbert Marcuse, One Dimensional Man (New York, 1964).

(٩) Robert S. Lynd, Knowledge for what? (Princeton, 1939). P. IX.

وثانيا تصبح لعلم الاجتماع الراديكالى أهمية متزايدة فى مجال التفكير الاجتماعى بكامله ·

والى الحد الذى لا تشكل فيه المجتمعات الحديثة كليات متناسقة ، حيث يوجد الصراع بين التجمعات الاجتماعية بداخلها ، فان بامكان علم الاجتمـــاع الراديكالى أن يتأسس ويستمر خلقه من جديد · ويتجاهـل تصوير كل الفترة التالية لعصر التنوير كفترة برجوازية استطاع أن يزدهر فى اطارها التفكير الاجتماعى البرجوازى فقط ، أيا كانت مظاهره الكثيرة المختلفة ، مدى التناقضات فى المجتمعات الحديثة ، وهى التناقضات التى بالاستناد اليها نشأت الماركسية ذاتها · حقيقة أدى الانهيار الواضـــح لهذه القوى المتضادة ، وبخاصة كما اتضحت بين الطبقات الواضــــحة التحديد ، الى تصورات جديدة بشأن المجتمع الحديث (كمجتمع صناعى) أو مجتمع علمى ـ تكنولوجى · غير أننا نلاحظ أن فكرة التهدئة العامة ـ Pacification ـ للحيـــاة الاجتماعيـــة ، وظهـــور الاجمـــاع Consensus فى اطار ظروف الديموقراطية والوفرة ، لم تصمد أمام الفوران الراديكالى لحقبة الستينات ·

وحينئذ ، قد يكون خطأ فى رأيى أن نعطى أهمية كبيرة لهذا الجانب، وأن نقدم الفكر الاجتماعى كمجرد انعكاس لتوازن المصالح الاجتماعية بشكل محدد · ففى اطار نسق محدد للعلاقات الاجتماعية والمعايير الثقافية يظل هناك نطاق يمكن أن يتحقق فى اطاره تطور عقلى مستقل نسبيا لعلم الاجتماع · واذا كان الأمر على هذا النحو ، فاننا قد نتساءل عن طبيعة اتجاه هذا التطور أو ما يحتمل أن يكون عليه ، سواء كان يدعم شـــكل الحيـــاة القائم أو يطرحه للمناقشة · ويبـــدو لى أن هناك خاصيتين فى التفكير الاجتماعى تبرران الحديث عن توجيه راديكالى أصيل · اذ يمكن أن أوكد أولا على النظرة النقدية للعلم بدلا من فكرة الســـيطرة على الطبيعة واتساعها الى الممارسة الاجتماعية حيث السيطرة على البشر ، باعتبارها الدعوى الأساسية لعصر التنوير فى التفكير السوسيولوجى · فمن أهم الخصائص الوضعية والراديكالية فى علم الاجتماع أنه يتضمن نقدا مستمرا لكل النظريات الموجودة عن المجتمع ، بما فيها تلك التصورات

اليومية للعالم الاجتماعى، التى تشكل الحياة العملية · وفى الوقت الحاضر يهيىء الاضطراب العام المتعلق بالنتائج الاجتماعية للعلم والتكنولوجيا المتقدمة قدرا من التشجيع والتبرير لانتقاد العقلانية العلمية ، غير أنه لا أعتقد أن قضية التحرر الانسانى سوف تدعم كثيرا بالتخلى عن ذلك للصوفية الدينية التى يزداد نموها بين عناصرى الثقافة المضـــادة غير العلمية ·

وتتعلق الخاصية الثانية لعلم الاجتماع والتى أود توجيه الانتبـاه اليها بنتائجه الاجتماعية وأسلوب ادراكها داخل التفكير السوسيولوجى · فاذا قيل أن هدف علم الاجتماع هو الكشف عن المكانيزم المسير للحيـاة الاجتمـــاعية والذى يتم تبـادله فى تدريب صفوة صغيرة من « المنظمين الاجتماعيين » ، فان ذلك يستلزم انتاج ومضاعفة انتاج شكل للسيطرة · غير انه اذا كان الهدف هو انتشار نوع من الفهم فى المجتمع يتعلق بأسلوب تأسيس العلاقات الاجتماعية ، والحفاظ على بقائهـا وامكانية تغييرها ـ كنوع من التثقيف العام ـ فان نتائجه يمكن أن تبدو ذات طبيعة تحريرية ·

وسوف تناقش المقالات التاليـة بعمق أكثر ومن منظورات عديدة ، الموضوعات التى أثارتها هنا ، والتى أختبرت ورتبت وفقا لوجهة نظرى حول الاهتمامات الرئيسية لعلم الاجتماع الراديكالى ، أعنى نقد النظريات الاجتماعية بالنظر الى رؤيتها للعالم الاجتماعى الى جانب بحث التوترات والتفاوتات المتضمنة فى بنـاء الطبقـات والصفوات ، والتى تعوق نمو الحرية الانسانية ؛ بالاضافةالى فحص طبيعة ومنطلقات الحركات الاجتماعية التى تتولى تفنيد المجتمع القائم · وبهذا المعنى يتضمن علم الاجتمـــاع الراديكالى ثلاثة عنـــاصر : نظـــرية وامبيريقية ، وفى نفس الـــوقت سياسية ·

الباب الاول

النظريات الاجتماعية

الفصل الأول : الانسان المحافظ ٠

الفصل الثانى : خارج هــذا العالم : النظرية السوسيولوجية لتالــكوت بارسونز ٠

الفصل الثالث : الأزمة فى علم الاجتماع ٠

الفصل الرابع : التنمية بين الراسمالية والاشتراكية ٠

الفصل الخامس : كارل ماركس : عالم اجتماع أم ماركسى ٠

الفصل الأول

الانسان المحافظ (١)

يعتبر عام ١٩٦٨ حداً فاصلا فى تاريخ السياسة الجماهيرية الديموقراطية · اذ انتهت اخيرا سنوات الهدوء التى اتسمت بالتكيف والتكامل والتطويع Domestication ، حيث هزت الحركات ، والحركات المضادة ، توازن عدد من الديموقراطيات الغربية ، وتحدى جيل جديد افتراضات الكبار واسلوبهم ·

ويعتبر عام ١٩٦٨ ايضا حدا فاصلا للتحديد الدولى لعلم الاجتماع السياسى ، حيث لم يتحد الانفجار العنيف للقوى الجديدة نماذج ونظريات الخمسينات وبداية الستينات فقط ، ولكنه فرض أيضا أعادة تقويم وسائل جمع البيانات واستراتيجيات التحليل · ولم يكن نقدا وانما كان نقدا ذاتيا ذلك الذى صاغه سيمور لبست S. M. Lipset وشتاين روكان Stein Rokkan فى مقدمة مجموعة مقالات مؤتمر علم الاجتماع السياسى المنشورة عام ١٩٦٨(٢) ، حيث اثارا عددا من التساؤلات الهامة، كالتساؤل حول ماهية العلم الذى اطاحت به ثورة الطلبة فى غضون شهور قليلة ؟ فاذا كانت الاطاحة به قد تمت ، واذا فرضت علينا احداث ١٩٦٨ ان نراجع بشكل اساسى نظريات ونماذج وطرق بحث علم الاجتماع السياسى · فما هى الأفكار والمداخل الجديدة التى يمكن اكتشافها فى اسهامات لبست نفسه ، وهو الذى أعتبر فى حقبة الخمسينات وبداية

---

(١) اعيد طبعها مع بعض التعديلات الطفيفة من
The New York Review of Books, XV (6) (8 October 1970).

(٢) Otto Stammer (ed.) Party System, Party organization, and the Politics of the New Masser (Berlin, institute für Politische Wissenschaft on der Fneien Universitat 1908).

الستينات أحـــد الرواد الرئيسيين لتلك الاتجاهات الشهيرة التى أعلنت (نهاية الأيديولوجيا) ، (وتحقيق الديموقراطية) المستقرة فى المجتمعات الغربية الصناعية(٣) وهى الاتجاهات التى يجب رفضها الآن . وبوضوح أكثر : ما هى النظريات البديلة التى ظهرت فى العلوم الاجتماعية لكى تحتل مكانة الآراء المرفوضة التى سبق أن قدمها لبست ؟

ولا يمكن لأحد أن يخطىء الاستياء المتزايد فى وقتنا الحاضر من حالة النظرية السياسية والسوسيولوجية ، وهى الحالة التى ألمح اليهـا لبست فى واحدة من أحدث مقالاته « مقدمة للسياسة والعلوم الاجتماعية ١٩٦٨ » حيث كتب « ... ان البعض يرى فى نظرية النسق مجرد اطار تصورى من نوع آخـــر ، تكمن فائدته الرئيسية فى كونه اطارا للتنظيم العقلى ، ومن ثم لا يمكن اخضـاعه للتحقق الامبيريقى ، وهو الاختبـار الرئيسى فى العلم » . وبرغم قدرة نظرية النسق وبخاصة فى صورتها السوسيولوجية ـ الوظيفية ـ على أن تقدم لنا أساسا مجموعة من المقولات لتصنيف الظواهر الاجتماعية ، ومن ثم فهى ليست مجموعة من القضايا المفسرة ، الا أنها وبرغم ذلك تضم تفسيرا محددا بطبيعة المجتمع البشرى. بحيث يستند هذا التفسير على فكرة رئيسية تعنى انه ينبغى ادراك كل مجتمع يستند فى حالة توازن ، وأن أى اهتزاز لهذا التوازن ، اذا حدث، يجب النظر اليه كمثير لتحقيق استجابة التكيف . ومن ثم يستعاد التوازن ويحافظ على المجتمع فى شكله الأصلى أو الذى تعدل بدرجة طفيفة . وقد وجدت هذه الفكرة تعبيرها فى شكل الوظيفية (التى قدمها تالكوت بارسونز Talcott Parsons أساسا) . حيث يتحـــدد النسق الأســاسى للقيم

---

(٣) كتب لبست فى فصل الخاتمة عن الانســان السياسى ... لقد تم حـل المشـاكل الرئيسية للثورة الصناعية ... حيث وضـع هـذا الانتصـار الحاسم للثـوره الاجتماعية الديموقراطية نهاية لسياسة تطويع هؤلاء المثقفين الذين يرون ضرورة امتـلاك ايديولوجيات ويوتوبيات تدفعهم للفعل السياسى . وبالمثل نفى مقالة عن (البناء الطبقى المتغير والسياسة الاوروبية المعاصرة فى مؤلف جروبارد S. R. Graubard الذى حرره بعنوان (أوربا جـــديدة S. R. Graubard (ed.), A new Europe? (Boston, Mass, 1964) حيث لدعى انه بدلا من أن تدعم الطبقة والعلاقات السياسية الاوروبية نموذج مستقبل الولايات المتحـدة ، قـدم التنظيم الاجتماعى للولايات المتحـدة صورة المستقبل الاوربى ، حيث التضاؤل والاختفاء الحتمى للصراع الايديولوجى .

باعتباره القوة التى تفرض التوازن والتكيف والتكامل . أى أن مجموعة القيم الأساسية التى يفترض موافقة كل اعضاء المجتمع أو معظمهم عليها هى التى تحدد شكل كل نسق اجتماعى .

ومن السهل ادراك الطريقة التى تتلاءم الافكار المتعلقة (بالديموقراطية المستقرة ، ونهاية الأيديولوجيا) مع الاطار الوظيفى . اذ يمكن اعتبار (الديموقراطية المستقرة) مثالا كاملا تقريبا لمجتمع فى حالة من التوازن. بينما قد يفسر توقف الصراع الأيديولوجى ـ وبخاصة فى الشكل المحدد للصراع بين الطبقات ـ كذروة لتحقق عملية التكيف والتكامل من خلال فاعلية القيم الديموقراطية والاساسية . وبتعبير لبست : « ... اذ حقق العمال المواطنة الصناعية والسياسية(٤) » ، وتضاءل الصراع الطبقى ومن ثم يمكن تسجيل التغيرات فى الأيديولوجيا السياسية للمجتمعات الديموقراطية من وجهة النظر هذه بالنظر الى ظهور شرائح جديدة ، وتكاملها الحتمى مع المجتمع والدولة . وفى مؤلفه الأمة الأولى الجديدة The First New Nation يصوغ لبست منهجه صراحة بالنظر الى (القيم) والتوازن : اذ يؤكد انه « بالنسبة لأهداف هذا المؤلف ، فقد حاولت أن أفكر بالنظر الى نموذج التوازن ... الدينامى الذى يفترض خضوع المجتمع المعقد لضغط دائم من اجل تكييف نظمه مع نسق القيم المحورية لديه . وذلك بهدف تخفيف التوترات التى تخلقت عن التغيرات فى العلاقات الاجتماعية ... »(٥) .

بيد انه قد يكون خطأ أن ننظر الى الأفكار الخاصة التى قدمها لبست فى ذلك الوقت كمجرد استنتاج بسيط لوجهة النظر الوظيفية عن المجتمع ، حيث اعتمدت هذه الأفكار الى حد كبير ، كما فعلت الوظيفية ذاتها ، على المناخ السياسى للعصر . اذ تطابقت فترة الذروة للاتجاه

---

(٤) Lipset (1959), op. cit., p. 406.

(٥) S. M. Lipset, The First New Nation (New York 1963), PP. 8 - 9.

ينبغى أن نلاحظ ان لبست لم يميز بوضوح كامل بين المعانى المختلفة للتوازن ، ولقد انتقد برين بارى Brain Barry بدقة ، فشله فى هذا الصدد فى مؤلفه . Sociologists, Economics and Democracy (London. 1970), Chapter VIII.

الوظيفى فى علم الاجتمـــاع مع الفترة التى افترض فى اطارها سيطرة الصراع الاجتماعى على طبيعة الصراع بين الأمم · وبخاصة بين النماذج المتبـــاينة للنسق الاجتماعى ·· حيث دخلت الديموقراطيات الغربية فى الفترة بين ١٩٤٠ ـ ١٩٥٠ فى صراع مع الدول الفاشية أولا ، ثم مع الاتحاد السوفيتي والدول الشيوعية الحديثة التخلق فى أوربا الشرقية بعد ذلك · ومن ثم قورنت الديموقراطية كشكل للمجتمع بصورة حادة ، مع هذه الأشكال الأخرى للمجتمع · واصبح واضحا فى مثل هذه الظروف ضرورة اغفال مصادر الصراع داخل المجتمع وحجبها · ولقد تلاشت فى الحقيقة اهمية هـذه الصراعات واقعيـا فى بعض المجتمعـات ، ليس بسبب الاحساس بالوحدة القوميـة التى تعززت باشتراك هـذه المجتمعات فى صراعات خارجية ، ولكن بسبب دخول الديموقراطيات الغربية (وبالمثل مجتمعات أوربا الشرقية) فى فترة ممتازة من النمو الاقتصادى السريع والقوى ، التى اثرت وباساليب عديدة على العلاقات المتبـادلة بين الطبقات ، وبين الجماعات السياسية · ومن ثم ترسخت فكرة الديموقراطيات كانســـاق اجتماعية مستقرة ، حققت شكلها المحدد (وضمنيا تأسست رؤية مماثلة للمجتمعات الشيوعية) الذى له جذوره فى تربة خصبة ·

ويتمثل الخطأ الرئيسى لهذا التصور الوظيفى فى كونه لم يتأمـــل نقديا خصائص وضع تاريخى محـــدد · حيث كانت طبيعته اللاتاريخية مصدرا لهذا الفشل ، ليس فقط بمعنى أنها لا تتضمن نظرية تاريخية (كما يشاع كثيرا) ولكن ، ما هو اكثر اهمية من وجهة نظرى ، لانها أسست لدى المتمسكين بها عدم حساسية مفرطة نحو ممكنات التغير فى المجتمع البشرى ، ومن ثم شجعت الميل نحو اعتبار الحاضر العابر نظاما خالدا · ولذلك كانت الصدمة التى نتجت عن الحركات الراديكالية الجديدة ، والتى بلغت اوجها فى الأزمات السياسية عام ١٩٦٨ ، هائلة للغـــاية ، بحيث دفعت العلوم الاجتماعية نحـــو حالة من الفوضى العقلية التى مازالت باقية ·

فما هى النتائج الايجابية التى تخلقت عن الأزمة ؟ بصفة عامة يمكن القول انها خلقت نظرة اكثر نقدية ، وان وجدنا دليـــلا ضعيفا فى مؤلف

لبست Lipset الأخير عن اعادة التاسيس الراديكالى لعلم الاجتماع السياسى الذى دلل على وجوده فى ١٩٦٨ · ويعتبر ظهور الاهتمام بالجمود السياسى كموضوع جديد من اكثر التغيرات أهمية ، التى مهدت السبيل للاهتمام بالحركات السياسية · حيث كرست معظم كتابات لبست الأخيرة ، منذ ظهور حركة التعبير الحر لجامعة بيركلى Berkely Free Speechmovement فى نهاية عام ١٩٦٤ ، وبصورة اكثر تحديدا منذ ١٩٦٨ ، لحركات الشباب وبعض مظاهر المعارضة او المقاومة فى المجتمعات الصناعية الغربية · غير أن الطريقة التى تناول بها هذه الموضوعات ظلت ثابتة اساسا · ففى مقالته التى كتبها مع (فيليب الباش Philip Altbach) عن : (التعليم العالى وسياسة الطلبة فى الولايات المتحدة) والتى نشرت فى المؤلف الذى حرره عن سياسة الطلبة Student Pilitics عام ١٩٦٧ ، نجده كان مهتما الى حد كبير فى هذه الفترة بتأسيس تصنيف وصفى للعناصر العديدة فى حركة الطلبة — كالخلفيات الأسرية للراديكاليين وموقع الكلية ، وخصائص مختلف الجامعات ، ومناقشة نشأة الحركة الراديكالية بالنظر الى الملامح الداخلية للجامعة دون الاشارة الى مصادر الاتجاه الراديكالى الكائنة فى ظروف المجتمع الأمريكى ككل · وفضلا عن ذلك ، فقد كان مقتنعا تماما بأن المجتمع الأمريكى لا يمكن تغييره وهو لا يحتاج الى تغيير ·

وبشكل اساسى ، تواجه الحركات الراديكالية من أى نوع فى الولايات المتحدة ، بنسقها الاجتماعى المستقر نسبيا ، وتقاليدها العريقة فى الاستقرار السياسى ، صعوبة فى تأسيس نفسها ··· ويمكن القول بأن اليسار الطلابى الجديد الذى ظهر فى منتصف حقبة الستينات قد يتضمن بعض التغيرات فى المجتمع الأمريكى · ومن ناحية أخرى ، فانه من المحتمل ، الى حد كبير ، أن تكون احدى المحاولات الفاشلة فى الولايات المتحدة ، أن تخلق حركة راديكالية فى بيئة غير ملائمة أساسا ·

ولقد اهتز هذا الاعتقاد مؤقتا فى احدى المقالات الأخيرة عن حركة الطلبة ، حيث اجبر لبست فى مؤلفه (الطلاب فى ثورة Student in Revolt عام ١٩٦٩) الذى ظهر فى أعقاب النمو السريع للنزعة

الراديكالية فى حرم معظم الجامعات ، على التخلى عن محاولته تحليلها بالنظر الى المؤثرات الداخلية للجامعة فقط ، حيث يقول « انه اقتبس بحثا ٠٠٠يلقى شكا قويا على الافتراضات التى تحـــاول ربط العنف الأمريكى American Activism بخصـــائص النمـــاذج المتباينـــة للجامعـــات أو سياسات الادارة ، أعنى على الفروض الأساسية التى قدمها منــــذ عامين ، وهـــو الآن ينسب النزعة الراديكالية للطلبة صراحة الى المجتمع الأوسع :

« ٠٠٠ اذ ينبغى البحث عن مصادر العنف السياسى بين الطلبة فى الاجراءات السياسية ، وفى العوامل المرتبطة بالنماذج المختلفة للاجراءات السياسية ٠٠٠ وعلينا أن نتوقع زيادة حادة فى عنف الطلبة فى مجتمع تكون قيمة الاجتماعية والسياسية ، لأسباب عديدة ، موضع شك ، وفى بعض الفترات وخاصة حينما تختبر فيها الأحداث حيوية النظام والافلاس السياسى ، فان مشروعية النظم والترتيبات الاقتصادية والاجتماعية تصبح موضع شك » (صص ٠ ٤٩٧ ـ ٤٩٨) ٠

ومع أن هذا يمثل أعلى مستوى لاتجاه لبست نحـــو نقد النظـــام القائم ، فاننا نجـــده فى أحـــدث كتبه (بالاشتراك مع ايرل راب Earl Raab بعنوان سياسة الجنون The Politics of unreason » يتحـــول نحـــو الاهتمام الكامل بالديموقراطية المستقرة فى اطار دراسة الحركات اليمينية المتطرفة فى أمريكا ٠ ولقد بدأت هذه المرحلة بتحديد الديموقراطية كنزعة تعـــددية Pluralism ، وتحـــديد التطرف extremism « ٠٠٠ عـــلى انه الدافع المضاد لتعددية الجماعات والمصالح ، ومن وجهة النظر هـــذه تعتبر النزعة اليسارية المتطرفة والنزعة اليمينية المتطرفة الى حـــد كبير نفس الشىء طالما أن كليهما لديه توجيه مضاد للتعددية » ٠ واعتقد انه من المشكوك فيه الى حد كبير مدى اعتبـــار النزعة المتطرفة ، بدون أى توصيف اكثر تحديدا ، مصطلحا مفيدا فى التحليل السياسى ، غير أن هذا ليس هو الجانب الذى يهمنى الآن ، فما يهمنى وطبيعة مناقشة لبست لعلاقة التطرف بالديموقراطية ٠ اذ نجده ككل المفكرين المحافظين قلقـــا بشأن التأكيد على البنـــاء الرسمى للضوابط والتوازنات داخـــل النسق

الديموقراطى (بدون البحث الدقيق فى الاسلوب الذى تعمل به فى الحقيقة) ، هذا الى جانب منع أو تمييع الفكرة الاكثر راديكالية عن الديموقراطية الحركة سياسية للجماعات والطبقات المحكومة ضد حكامها، والتى تحاول بقدر الامكان تأسيس حكومة بواسطة الشعب · ومن وجهة النظر الأخيرة فليس هناك شىء غير ديموقراطى فى الحركات الشعبية التى تعمل على التخلص من جماعات المصلحة التى تضر مناشطها غالبية السكان ، حتى ولو تضمن ذلك التقليل النسبى (لتعددية جماعات المصلحة) التى أعجب بها لبست الى حد كبير · وبهذا المعنى اعتبرت النزعة الشعبية الأمريكية American Populism حركة ديموقراطية شاملة تطورت عن حركات راديكالية زراعية سابقة موجهة ضد القوة المتزايدة للبنوك ، والطرق الحديدية ، والمؤسسات الكبيرة · حيث نقلت حركة جرانجر Granger Movement احدى هذه الحركات النزعة الشعبية الى الى الاهتمام بالتعاونيات واسهمت اخيرا فيما اسماه لبست ذات مرة بالاشتراكية الزراعية(٦) · فقد تبنت الحركة الشعبية ، وبخاصة فى الجنوب ، قضية الزنوج والعمال الصناعيين ، واسست العلاقات مع جماعات العمل(٧) · وبصورة عامة يبدو أن الحركة الاشتراكية فى بداية القرن العشرين قد حققت اكبر نجاح لها فى تلك المناطق التى كانت فيما سبق معقلا للنزعة الشعبية الأمريكية · وبرغم تبنى لبست وراب التفسير

---

(٦) Agrarian Sociolism : The Cooperative Commonwealth Federation in Saskatchewan (Berkely, 1950; revised edn, 1968)
حدد روبرت لند Robert Lynd فى تقيمه للطبقة الأصلية مسارا خصبا للبحث يمكن ان يتضح من هذه الدراسة (والذى كان عليه ان ينتظر اسهام المفكرين الأخرين فى نهاية حقبة الستينات) حين كتب : ليست هناك ظاهرة فى حاجة ملحة للدراسة اليوم اكثر من الظروف التى قد تظهر فى ظلها حركات اجتماعية جديدة ... لاستعادة الديموقراطية ، لاذا كان ذلك فى الحقيقة ممكنا ، يمكن ان يحدث من خلال تفكير البشر مع بعضهم فقط فيما يريدونه وينظموا انفسهم للتحرك الجماعى » ·

(٧) وصفت هذه الجوانب للنزعة للشعبية بدرجة جيدة ، ووضحت من خلال وثائق الحركة فى مؤلف نورمان بولاك : Norman Pollack, The Populist mind (New York, 1967).
وانظر ايضا المناقشة الواردة فى مؤلف ميشيل روجن Micheal P. Rogin, The Intellectuals and McCarthy : The Radical Specter (Cambridge, Mass, 1967) وبخاصة الفصل السادس

المحافظ للنزعة الشعبية ، حيث منحت العناصر المعادية للصناعة والليبرالية ، فى بعض اقسام الحركة ، اهمية غير ضرورية ، ومن ثم فقد دفعوا الى تضمين النزعة الشعبية بين حركاتهم المتطرفة : وعلى هذا النحو تصبح المذهبية الشعبية شكلا مغريا Seductive لنزعة الأخلاق السياسية ، المعادية للسياسة التعددية ٠

ويمكن التنبؤ بنتائج دراسة اجريت وفق هذا الاطار ٠ فطالما انه قد تمت المساواة بين حركات الجناح اليسارى ، والجناح اليمينى ، كاعداء للديموقراطية ، فقد اختفى التمييز بين اليسار واليمين ٠ وفى هذا الصدد لم يصغ سؤال هام يتعلق بكيفية تحول بعض الحركات الشعبية من معاداة القلة الحاكمة الى ان اصبحت مؤيدة للنظام القائم ، واستعيد النسق السياسى الأمريكى كنموذج للنظام الديموقراطى ، واعتبر النفور المتزايد من الحزبين القائمين نزعة متطرفة خطره وغير ديموقراطية ، تهدد القيم السامية للتعددية والاستقرار ٠ بل ان فكرة التعددية ذاتها قد ادركت بطريقة غريبة تتضمن انه ينبغى المحافظة بعناية على اى من جماعات المصلحة التى تصادف وجودها فى المجتمع الأمريكى ـ ابتداء من التلفزيون التجارى وحتى المافيا Mafia ـ كعنصر فى النظام الديموقراطى ٠

اذن ، ماذا حدث بالنسبة للتحدى الذى ظهر فى الأيام الأولى من عام ١٩٦٨ بسبب الانفجار العنيف للقوى الجديدة ؟ ما الذى اصبحنا نحتاجه بالحاح لاعادة تقويم المناهج والمفاهيم فى علم الاجتماع السياسى ؟ تؤكد محاولة الاجابة على ذلك ان لبست قد تصرف بنفس اسلوب النسق الاجتماعى المثالى الذى تخيله الوظيفيون ، حيث استعاد توازنه بتاسيس تكامل بين تفسير الحركات الراديكالية الجديدة مع اطاره الفكرى القائم ، مع اجراء بعض التعديلات الطفيفة ، وبهذا الأسلوب تجنب لبست اى تغيير اساسى فى وجهة نظره ٠ وبالتوازن الذى اعاد تاسيسه اصبح بامكانه مزاولة النضال كمدافع غيور عن الحالة الراهنة ٠

وتتضح اهمية الأفكار الوظيفية بالنسبة للتفسير المحافظ للمجتمع من دراسة اخرى ظهرت فى ذات الوقت ، عبر فيها لبست بشكل مؤقت عن استياء

علماء الاجتماع السياسي من الامكانات التفسيرية لعلمهم · فقد استند مؤلف صمويل ب · هنتنجتون Samuel P. Huntington النظام السياسي فى المجتمعات المتغيرة (Political order in Changing Societies) الى مفهوم الاستقرار السياسي Politictl stability ووسع استخدامة لكى يؤسس تمييزا حادا بين المجتمعات الصناعية والمجتمعات النامية · وحسب قول هنتنجتون :

لا تتعلق اكثر انواع التمييز السياسي اهمية بين الأقطار بشكل حكوماتها ولكن بدرجة حكوماتها ··· اذ تنتمى كل من الدول الشيوعية التسلطية والدول الليبرالية الغربية بصفة عامة لفئة الانساق الاجتماعية الفعالة وليست الضعيفة ··· فحكوماتها تختلف بدرجة واضحة عن الحكومات الموجودة فى كثير ان لم يكن فى معظم الأقطار المحدثة فى كل من آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية » ·

لكن ما هو السبب فى كون التمييز اكثر أهمية ؟ بالتاكيد ليس ذلك بالنسبة لغالبية البشر الذين يميلون فى عصرنا الحديث على الأقل الى الدخول فى صراع من اجل الاستقلال عن الحكم الاستعمارى ، أو الذين يدخلون فى صراع ضد الدكتاتورية من اجل الديموقراطية ، أو ضد الراسمالية من أجل الاشتراكية ، حتى لو كانت الفوضى ثمن ذلك ، اكثر من نضالهم من اجل النظام السياسي بذاته · وبايجاز فهم يريدون اشياء اخرى اهم من الحكومة الفعالة او علاوة عنها · فهل هذا حينئذ هو التمييز الاكثر اهمية بالنسبة لعلماء الاجتماع ، لأنه يعينهم على فهم افضل ، من اجل تفسير العمليات السياسية بصورة اكثر اقناعا ويبدو ان ذلك غير محتمل اساسا ، حينما لا يتطابق هذا التمييز مع التمييزات التى يؤسسها البشر فى حياتهم الواقعية · وعلى اى حال ، فانه ينبغى توضيح ذلك · فبرغم ان مؤلف هنتنجتون يوفر معلومات اكثر اهمية ومرتبة بصورة منظمة (والتى أمكن توفيرها بمساعدة أى من الأطر التصورية ، ايا كانت طبيعته) فانه ينتهى الى نتيجة اقل من الحقيقة الى حد كبير ، تعنى « ··· انه يتحكم فى المستقبل الذى ينظم سياسته » · ويتعلق السؤال الحقيقى الذى يحتاج الى اجابة بهذه العبارة · ما الذى يساعد جماعة من البشر دون اخرى ــ ما هى الظروف الاقتصادية ، ما هى العلاقات

بين الطبقات ، ما هى المؤثرات الخارجية ـ على تنظيم سياسة المجتمع ؟ وتحديد طبيعة النظام الذى ترتضيه ؟

وفى الحقيقة يعتبر تأكيد هنتنجتون غير منهجى وغير امبيريقى ؛ وانما هو حكم قيمى · هدفه أن يدفعنا الى رؤية العالم بطريقة معينة ، أن نسبغ قيمة عليا للغاية على الاستقرار السياسى ، وأن ندرك المشكلات السياسية للبــلاد الناميــة ليس بالنظر الى امكانية الاختبــار بين النظم regiems البديلة ولــكن بالنظر الى أسلوب تأسيس النظــام order · وأخيرا يتحدد الحل الذى قد يفضله هنتنجتون ، حينما يشير الى امكانية « ··· وجود بعض التطور تجاه نموذج النسق الأمريكى » ، فى مجتمعات أوربا الغربية أولا ، طالما أنها خلصت نفسها من الصراع الطبقى ، وبالتالى فى الأقطار النامية (التى أصبحت أكثر تحديثا) · اذ يرى هنتنجتون مثل لبست النسق السياسى الأمريكى كنموذج لتحقيق الديموقراطية المستقرة ·

وبرغم استناد هذا الاطار للتحليل على التقويم الا أنه بغير شك له جانب امبيريقى · اذ يعتمد التقابل الحاد الذى حاول هنتنجتون تأسيسه بين النظام السياسى فى أحد نماذج المجتمعات وبين الفوضى السياسية فى آخر على الحكم المشتق من أفكار بارسونز ولبست ، والذى يعنى أن المجتمعات الصناعية تمتلك أنساقا سياسية مستقرة · ومن ثم ، فبعــد ملاحظة أن السياسة فى هذه الأقطار « ··· تتضمن الاتفاق ، والمصالح المشتركة ، والمشروعية ، والتنظيم والفاعلية والاستقرار » نجــده يصف حالة المجتمعات النامية بالطريقة التالية :

« مع بعض الاستثناءات البارزة ، تميز التطــور السياسى لهــذه المجتمعات فيما بعد الحرب العالمية الثانية بازدياد الصراع الطبقى والاثنى، بالعنف الجماهيرى والشعبى المتكرر بالانقلابات العسكرية الدائمة ، بسيطرة قادة غير مستقرى الشخصية ، غالبــا ما ينتهجون سياسيات اقتصادية واجتماعية مدمرة ، بالفساد الفادح والمنتشر بين وزراء الدولة والموظفين المدنيين ، بالانتهاك الاستبدادى لحقوق وحريات المواطنين ، بانخفــاض معايير الانجاز والكفاءة البيروقراطية ، بالاغتراب الشــائع للجماعات

السياسية الحضرية ، بافتقـاد سلطة البرلمانات والهيئـات التشريعية ، بتفتت وفى بعض الأحيـان الانهيـار الكامل للأحزاب السياسية ذات القواعد العريضة » ٠

ومع ذلك ، فقد أمكن خلال السنوات القليلة الأخيرة تسجيل عـدد من الظواهر التي شقت طريقهـا الى الظهور فى المجتمعـات الصناعيـة المستقرة ٠ (الغربية والسوفيتية) ٠ وبدا من المشكوك فيه ما اذا كان يمكن لمصطلح (الاستقرار السياسى) أن يظل ملائما بدقة لمعظم هـذه المجتمعات ٠ والتي على العكس قد تكون على حـافة تحـولات سياسية هائلة ٠ ومن ثم فقـد يكون اكثر واقعيـة أن ننظر الى السياسة العالمية من وجهـة نظر التغيرات الراديكاليـة التي تهيـا او تكرس فى كل من المجتمعات الصناعيـة والناميـة ، على أن من الضرورى أى نأخـذ فى الاعتبـار فى ذات الوقت الأساليب التى تتفاعل بهـا التغيـرات التى تقع فى قسمى العالم ، كل من الآخر ٠

ومع ذلك ، فالقـول بهـذا يثير قضية اخرى ٠ اذ تأثر التفكير الاجتماعي بقوة بواسطة اعادة احياء النزعة الراديكالية وبخاصـة فى الجامعات مثلما تأثر فى حقبة الخمسينات بواسطة المزاج المحافظ الذى كان سائدا حينئـذ ٠ وتعبر فكرة علم الاجتماع النقدى الذى نما عن روافد عديدة للنقد الاجتماعى فى العقد الماضى وبخاصة عن اعمـال س ٠ رايت ميلز C. Wright Mills عن هـذا التوجيـه الراديكالى ٠ غير أنه حتى الآن لم يضمن فى اطـار نظرية اجتماعية جديدة ، فمازال البديل الرئيسى لعلم الاجتماع المحافظ لحقبة الخمسينات كما يمثله بدقة بارسونز ولبست ، يتمثـل فى أى من اشـكال الماركسيـة التى تقف على طرف النقيض مع الاتجاه الوظيفى ، والتى ينصب اهتمامها الأسـاسى على صراع القيم والمصـالح فى المجتمع ، أو بظهـور ونمو الحركات الاجتماعية ، والقـوى الاجتماعية التى تؤسس تغيرات تاريخية بعيدة المدى ، والتى تعتبر راديكالية فى رؤيتهـا لمستقبل مجتمع المسـاواة Egalitarian ٠ بيـد أن الماركسيـة وقعت فى أزمـة أيضـا بسبب ظهـور الانفصـال بين الأفكـار النظرية والمثـل السياسية للماركسيـة

الكلاسيكية وبين الحقائق الاجتماعية للقرن العشرين · فعلى عكس ما تخيل ماركس وقعت الثورة فى مجتمعات الفلاحين · وفقدت الطبقة العاملة فى المجتمعات الراسمالية قدرا من ريادتها كقوة للتغير ، فلم تعد ثورية فى اى مكان · وطرح تضاءل اهميتها فى عملية الانتاج وموقفها الاجتماعى المتغير تساؤلا يتعلق بمدى بقائها قادرة على انجاز الدور الذى عينه ماركس لها · وفى نهاية الأمر تحولت الاشتراكية ـ مجتمع البشر المحررين المتعاونين والسعداء ، الذى تخيله ماركس ـ لكى تصبح فى كثير من الأقطار كابوسا بيروقراطيا ثقيلا ·

ولم تؤد محاولات المفكرين الماركسيين لمواجهة هذه الصعوبات الى اعادة صياغة الماركسية كنظرية اجتماعية قادرة على تفسير وقائع القرن العشرين · حيث لم يكن ذلك فى الحقيقة ممكنا · واوحت كثرة المناقشات التصورية والمنهجية ، وعدم اليقين المتزايد فيما يتعلق بالحدود الدقيقة للفكر الماركسى فى علاقته بالأفكار السوسيولوجية والفلسفية الأخرى (على سبيل المثال افكار الوجودية ، الاتجاه الفينومينولوجى ، والبنائية) بانهيار اتجاه عقلى متميز · وفى اثناء هذه العملية ، تم استيعاب افكار ماركسية عديدة ، ربما بطريقة غير منظمة ، فى اطار علم الاجتماع النقدى الجديد · ويعتبر التصور التاريخى الذى يتطلب وجوب دراسة وقائع معينة فى اطار سياقها الأوسع ، كحوادث فى نطاق عمليات بعيدة المدى للتغير الاقتصادى والاجتماعى من اكثر الأفكار اهمية فى المرحلة الحالية للعلوم الاجتماعية · فاذا لم يؤسس علماء الاجتماع النقدى دراساتهم بهذا الأسلوب ـ ولنقل مثلا اذا هم تناولوا ثورانات upheavals حقبة الستينات كأحداث فريدة ، او ظواهر ثورة لازمانية يسعدون بها ـ فانهم سوف يتبنون اساسا وجهة نظر الذين ينتقدونهم ، بنفس اسلوب ادراك المطلق غير التاريخى · سوف تختلف استجابتهم الأخلاقية ، غير انهم لن يصلوا الى فهم افضل لمسار الأحداث ، وسوف لا يكون لديهم شئ ذو قيمة يبلغونه هؤلاء الماضون فى نضالات واقعية لخلق مجتمع جديد ·

الفصل الثانى

خارج هذا العالم

النظرية السوسيولوجية لتالكوت بارسونز(١)

فى سنة ١٩٣٧ خـــلال فترة الكســـاد والبرنامج الجديد للانعاش الاقتصادى ، وانبعاث الحركات الاجتماعية لليسار والراديكالية العقلية ، والحرب الأهلية الاسبانية واقتراب الصراع مع الدول الفاشـــية ، نشر تالكوت بارسونز Talcott Parsons دراســة فى النظرية الاجتماعيــة بعنوان (بنــاء الفعــل الاجتماعى The Structure of Social Action) الذى تجنب بوضوح أى اهتمام بالأزمة السياسية والاقتصادية المعاصرة من أجل تقديم أفكار بعض المفكرين الأوربيين الأول(٢) ، لــكى يستخلص منهم اطارا مجردا وعاما للغــاية للتفــكير السوسيولوجى • وكما يشير بارسونز فى مقدمة الطبعة الشـــعبية للكتاب ، كان الموضـــوع الرئيسى للكتــاب يتمثــل فى ابراز أعمـــال الفــرد مارشال Alfred Marshall وباريتــو Pareto ، ودوركيم Durkheim وماكس فيبر Max Weber فى مواجهة الخلفية الفكرية المتمثلة فى طرازين سابقين للتفكير الاجتماعى ـ المثالية الألمانية والوضعية النفعية ـ باعتبارهما « حركة اســاسية فى بناء التفكير النظرى » ، « ومرحلة جديدة تماما فى تطور الفكر الأوربى المهتم بقضايا الانسان والمجتمع » •

ويفترض أن تتكون (الثورة الأساسية) كما يسميها بارسونز فى موضع اخــر من حقيقــة انه برغم التنوع الظاهر فى اهتمامات ومناهج

---

(١) Reprinted with minor revisions, from the New York Review of Books XII (8) (6 November 1969).

(٢) In his preface to the second edition of the structure of Social Action (New York, 1949).

ومفاهيم المفكرين الأربعة الذين حلل أعمالهم ، فانهم جميعا ســـــاهموا بعناصر (فى نظرية الفعل الاجتماعى) التى تعتبر تصورا جديدا للانسان والمجتمع ، والتى شكلت محور الفكر السوسيولوجى الحديث · (سوف اتعرض بايجاز لفكرة الفعل الاجتماعى هذه) ·

ومبدئيا ظهر كتاب تالكوت بارســـونز كتفسير لمرحلة فى التاريخ العقلى الأوربى · ومن ثم فهو ناقص بشـكل محزن ، لأنه يتجاهل ربما بشكل كامل أعمال اثين من المفكرين ــ ماركس Marx وفرويد Freud المسئولين فوق كل شىء عن الثورة فى تصورات البشر لحياتهم الفردية والاجتماعية · ومن وجهــة النظر هــذه قدم كارل لوث Karl Löwith (٣) فى دراسته عن حركة الفكر من هيجل Hegel الى نيتشه Nietzsche تاريخا واضحا الى حد كبير عن هذه الفترة ، وايضـــا ستيوات هوغ H. Stuart Hughes (٤) فى دراستــه عن الحــوار حــول الماركسيــة ، والثورة ضــد الوضعية ، ثم محاولة ماكس فيبر التوفيق بين الاتجاهات المثالية والوضعية والعبور بينها فى اطار العلم الاجتماعى ·

وحتى لو نظرنا الى كتاب بارسونز باعتباره يتناول النطاق الضيق لتشكل علم الاجتماع الأكاديمى ، فانه برغم ذلك يلغى كثيرا من الجوانب الهامة للغاية بالنسبة لهذا التطور او يحرفها ، كما اوضحت ذلك بعض التاريخات الحديثة للتفكير السوسيولوجى(٥) · اذ لا نجـــد مكانا فى دراســة بارســونز لتــاثير المفــكرين المحافظين كــدى بونال De Bonald ودى ميستر De Meistre ، او اسهامات سان سيمون Saint - Simon ودى توكفيل De Tocqueville · أما هربرت سبنسر Herbert Spencer

---

(٣) Karl Löwith, From Hegel to Nietzsche : The Revolution in 19th Century thought (New York, 1964).

(٤) H. Stuart Hughes, Consciousness and Society : the Reorientation of European Social thought, 1890 - 1930 (New York, 1958).

(٥) See, in Particular, Raymond Aron, Main Currents in Sociological thought (New York, 1965 and 1967) Vol. I and II; Robert Nisbet, The Sociological tradition (New York, 1966).

فلقد حذف كليـة برغم أن بارسونز فى اكثر أعماله حداثة استبعاد معظم نظرية سبنسر عن التطور الاجتماعى(٦) • وفى مقدمة الطبعة ذات الغلاف الورقى لكتابه (بناء الفعل الاجتماعى) سلم بارسونز ببعض من هـــذه الاستبعادات ، نجد انه حتى الآن لم يصل الى المرحلة التى يسلم فيها بأن كل تفسيره لتشكل علم الاجتماع الحديث يحتاج الى تعديل جذرى •

ومما لا شك فيه ، فقد قصد بارسونز على اية حال أن يسهم بفصل فى تاريخ الأفكار • حيث كتب فى تصديره للطبعة الثانية من (بناء الفعل الاجتماعى) (أنه قصد به أساسا أن يكون اسهاما فى العلم الاجتماعى النظرى وليس التاريخ ، أعنى تاريخ التفكير الاجتماعى • ولقـــد كان هدف بارسونز أن يؤسس ويوضح مجموعة المفاهيم المتميزة التى يستند اليها ، من وجهة نظر علم الاجتماع ، العـلم الجديد للمجتمع • ويمكن تتبع تقدم هـــذا التناول على مدى الثلاثين سنة الماضية فى سلسلة من المؤلفات الهامة التى تتضمن (النسق الاجتماعى The Social System ١٩٥١) ، (نحو نظرية عامة فى الفعـل Toward a General theory of Action بالاشتراك مع أدوارد شيلز Edward Shills وآخرين ١٩٥١) (والاقتصاد والمجتمع Economy and Society بالاشتراك مع نيل سملسر Neil J. Smelser ١٩٥٦) وفى مجلدات عديدة من المقالات اكثرها حداثه مؤلفه (النظرية السوسيولوجية والمجتمع الحديث Sociological theory and Modern Society ١٩٦٧) ، والسياسة والبنـاء الاجتماعى Politics and Social Structure ١٩٦٩)(٧) • وفى المـؤلفين اللـذين ظهرا عـام ١٩٥١ حـــدد بارسونز لأول مـرة وبطريقـة مستقلة تماما (نظريته فى الفعل) • وفى مؤلفه عن النسق الاقتصادى عام ١٩٥٦ قدم بعض التعديلات الهامة لها • وحديثا أوجز الأفكار الأساسية لهذه النظرية بالطريقة التالية :

---

(٦) Parsons, Societies : Evolutionary and Compartive Perapectives (New York, 1966), Chapter 2.

(٧) تتداخل مضامين هذين المجلدين ، بل تظهر بعض من اكثر هـذه المقـالات اهميـة • والتى سأناقشها فيما بعد ، فى كلا المجلدين •

« يتكون الفعل من العمليات والبناءات التى يشكل بها البشر أهدافهم ذات المعنى ، أو يحققونها فى المواقف الواقعية • وتتضمن كلمة (ذات المعنى Meaningful) المستوى الرمزى أو الثقافى للتمثيل والاسناد • اذ تتضمن الأهداف بالاضافة الى تحقيقها تنظيم نسق الفعل ـ الفردى أو الجمعى ـ وتعديل علاقته بموقفة وبيئته فى اتجاه محدد ••• ويعتبر تصنيف الانساق الفرعية العامة للفعل البشرى ـ الكائن العضوى The Organism الشخصية Personality ، النسق الاجتماعى Social system ، ونسق الثقافة Cultural system نموذجا توجيهيا Paradigm يمكن الاستعانة به فى مجال الفعل •••

ويحلل النموذج التوجيهى أى نسق للفعل بالنظر الى المقولات الأربع التالية : ١ ـ المقولات التى تهتم بدعم انماط السيطرة والضبط للنسق ٢ ـ التكامل الداخلى للنسق ٣ ـ اتجاه نسق الفعل لتحقيق الأهداف بالنظر الى بيئته ٤ ـ تكيفه الأكثر عمومية مع الظروف الشاملة للبيئة ـ كمثال البيئة الفيزيقية ، وبيئة اللافعل » • Societies : Evolutionary and Comparative Perspective, PP. 5, 7.

وبقدر ما أعرف ، لم يقدم بارسونز تحليلا عميقا لمفهوم (الفعل) ؛ ولم يناقش متضمنات هذا المفهوم بالنسبة لطبيعة التفسيرات التى قد تكون ممكنة ، والتى ينبغى البحث عنها فى علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى • وتوحى اشاراته ، فى الفقرة التى اقتبستها عن (الأهداف ذات المعنى) أو (تحقيقها) أو (الغرض) أو (اطار الغاية ـ والوسائل) وأهميتها بالنسبة لمفهوم الفعل ، أنه يصنف نفسه مع هؤلاء المفكرين ـ الذين يبداون بالماركسيين الهيجليين (ماركيوز Marcuse) والوجوديين الماركسيين (سارتر Sartre) ومؤرخى الفلسفة (كولنجوود Collingwood) وبعض اتباع فتجنشتين مثل (فنش Winch) الذين يرفضون فكرة علم للمجتمع ويعتبرون الدراسات الاجتماعية دراسات فلسفية أو تاريخية •

غير أن ذلك لم يكن المسار الذى اتبعه بارسونز ، اذ تبدو برهنته المتضمنة فى مؤلفه بناء الفعل الاجتماعى (والمشتقة عن ماكس فيبر) كما لو أن نظرية الفعل تحتل منطقة وسط بين تصور العلم الطبيعى أو الوضعى لعلم الاجتماع ، وبين وجهة النظر المثالية التى تؤكد على دور (الحدس intuition) فى فهم المجتمع ، ولقد استمر بارسونز فى البرهنة من هذا الموقع فى مقالة أخيرة له عن ماركس فى مؤلفه (النظرية السوسيولوجية والمجتمع الحديث) ومع ذلك لم يستكشف طبيعة منطقة الوسط هذه ، وان على من يبحث عن التثقيف المنهجى أن يتجه لمكان اخر بحثا عن تحليل لمفهوم الفعل ، على سبيل المثال فى دراسة اخيره القها لوش A. R. Louch بعنوان (التفسير والفعل الانسانى Explanation and human action) ، حيث يطرح تفسيرا يتعلق أساسا بالفعل الانسانى فى سياق محددة لمواجهة محاولات تصنيف السلوك الانسانى بالنظر الى قوانين عامة ، هذا بالاضافة الى فحص نقدى لبعض تعميمات بارسونز ٠

فتبنى بارسونز ، حينئذ ، لفكرة (الفعل) يعنى أنه قد كرس نفسه أساسا لتأسيس تصنيف محكم عن نماذج وبناءات الفعل الاجتماعى بلغة ذات طابع ابداعى أصيل ٠ اذ طبق بارسونز النموذج التوجيهى الموضح فى الفقرة التى اقتبستها سابقا على النسق الاجتماعى من أجل تحديد الأنساق الفرعية الأربعة للمجتمع ٠ فالنسق الفرعى الأول هو النسق الذى يتشكل من النظم المسئولة عن الحفاظ على النمط - Pattern Maintenance ، أو بعبارة أخرى المسئولة عن دعم القيم الثقافية العامة للمجتمع ، وهى النظم الدينية بشكل رئيسى ٠ أما الثانى فيتكون من النظم التى تهتم أساسا بتكامل المعايير والقواعد المتباينة والحفاظ عليها ، وهى بالأساس النظم الشرعية ــ المحاكم المهن القانونية ، والبوليس ٠ أما الثالث فهو النسق السياسى الذى تقع عليه مسئولية تحقيق الهدف الجمعى (المصلحة أو مصير الشعب ،) ، ويعتبر الاقتصاد هو النسق الفرعى الرابع الذى يؤدى وظيفة التكيف مع البيئة الطبيعية (أعنى الانتاج) ٠

وبالتالى يمكن تحليل كل من هذه الأنســاق الفرعية بمســاعدة النموذج التوجيهى · فمثلا يحتوى الاقتصاد كنسق فرعى على اربعــة انساق فرعية تهتم بالمحافظ على النمط او التكـامل ، وتحقيق الهــدف ، والتكيف داخل الاطار الاقتصادى · وفى الحقيقة درس بارسونز النظـام الاقتصادى بهذا الأسلوب فى مؤلفه الاقتصاد والمجتمع (الفصل الرابع) ، وتمثل مقالات بارسونز عنالتاثير والقوة السياسية، محاولات اولية لانجاز تحليل مماثل للنسق السياسى · وليس واضحا بالنسبة لى كيف يمكن انجاز عملية التقسيم هذه او ما هى النتائج ·

وتعتبر سنوات ما بعد ١٩٥٢ ، وهى التى شهدت احكام هذه الأطر التصنيفية ، اخصب فترة فى حياة بارسونز حيث بدا يتسع الاحســـاس بتاثيره فى كل من علم الاجتماع الاوربى والأمريكى ، وبالطبع كانت فترة محافظة وغير خلاقة من الناحية السياسية ، حيث سيطرت على الولايات المتحدة بصفة خاصة العلاقات والاتجاهات التى ارتبطت بالحرب الباردة ، والأيديولوجيات الساذجة المتعلقة بالنمو الاقتصـــادى والوفرة ، والتى وجدت تعبيرها الاكثر كفاءة الى حــد ما فى كتابات مثل مؤلف روستو W. W. Rostow (مراحل النمو الاقتصادى The Stages of economic Growth ومــؤلف جــالبريث J. K. Galbraith مجتمـــع الوفرة The Affluent Society .

ويتسق علم اجتماع بارسونز الى حد كبير مع هذه الحالة العقلية العامة · فهو لم يطرح قضايا اساسية حول بناء المجتمع الأمريكى ، وان قدم مجموعة من المقولات التى يمكن فى اطارها ترتيب بعض عناصر هذا البناء بدقة ووضوح · اذ يميز بارسونز مثلا ، فى مؤلفه النسق الاجتماعى نموذجا لبناء اجتماعى يسميه نمط الانجاز ـ الشمولى - Universalistic achievement Pattern · وهــــو يوضـــــح وصـــــفه لهـــــذا النموذج بمطابقة الجوانب العديدة للمجتمع الأمريكى ـ البنـــاء المهنى ، الأسرة ، التنوع الدينى ، والفردية الاقتصـــادية ـ مع المقــولات التى طورها · وعلى هذا النحو يتضمن الاطار التصورى لبارسونز نظره الى

المجتمع كبناء مستقر ودائم ، فى حين يعطى انتباها اقل للتوتر والصراع والتغير الذى قد يظهر فى اطاره •

ومع عودة ظهور القلق والتغير المتواصل للحياة السياسية والاجتماعية فى كل مكان فى حقبة الستينات ، تلاشى الاهتمام بنظرية بارسونز ، على الرغم من الجهد الذى بذله بارسونز فى كتاباته الاخيرة لكى يربطها بقوة اكثر باحداث واهتمامات الوقت الحاضر • اذ يبدو أن علماء الاجتماع الأمريكيين الشبان قد تحولوا الى مصادر اكثر راديكالية لاستنتاج افكارهم ، بينما اتضحت تماما الأشكال الجديدة للماركسية فى اوربا ، والاتجاه البنائى لشتراوس Léve - Strauss والأفكار المستنبطة حديثا من كتابات علماء الاجتماع الكلاسيكيين (من ماكس فيبر اساسا) • بالاضافة الى الانتقادات الفلسفية العديدة للعلوم الاجتماعية ، والتى قدمت الآن الاطار العقلى التى تطرح فى نطاقه وتناقش الموضوعات الأساسية للنظرية السوسيولوجية •

وحتى فى الوقت الذى كانت تناقش فيه افكار بارسونز بدرجة اكثر اتساعا بين علماء الاجتماع ، فان تاثيرها على الفكر الاجتماعى الشامل او على المناقشات المتعلقة بالسياسة العامة ، يبدو انه كان ضئيلا بشكل مثير • حقيقة أن بعض علماء الاجتماع الأمريكين الذين تميزوا بالنشاط فى المطالبة بنهاية الأيديولوجيا ، والذين أيدوا الكونجرس فى المطالبة بالحرية الثقافية ، قد بداوا فى الرجوع الى علم أجتماع بارسونز ، وفى احدى الحالات (مثل ادوارد شيلز) اصبحوا مرتبطين مباشرة باسهامات بارسونز • وبرغم ان فكرة (نهاية العصر الأيديولوجى) قد بدأت اصلا فى اوربا بهجوم ريمون أرون على الستالينية Stalinism فى مؤلفه أفيون المثقفين The Opuim of the intellectuals وكتابات البيركامى Camus • غير أنه حينما تناول الكتاب الأمريكيون الموضوع وبخاصة دانيل بل Daniel Bell وسيمور لبست S. M. Lipset فمن الواضح أن مصدرهم لم يكن نظرية بارسونز الاجتماعية ، بل على الأصح تحرر هؤلاء الكتاب من وهم معتقداتهم الماركسية او الاشتراكية الأولى ، وهو ما يعكس ، ربما بشكل مبالغ فيه ،

انحرافا عاما للتفكير الراديكالى · ولم تدخل افكار بارسونز ببساطة مثلما دخلت أفكار ووركيم وفيبر اوفبلن Veblen وديوى Dewey فى الولايات المتحدة فى مجال وضع السياسة أو المناقشة السياسية العامة· بل على العكس اتجهت لكى تعكس بطريقة سلبية ، وفى نطاق محدود للعلوم الاجتماعية ، مزاجا كان يسود فعلا المجتمع بكامله ·

ويمكن تفسير هذه العزلة العقلية فى أحد جوانبها بسبب الصعوبات التى تنشأ عن أسلوب بارسونز التنظيرى · فالحقيقة أن ما قيل كذبا عن كوندرسيه Condorcet انما يصدق عليه تماما ، من حيث أنه مدخل فى التعقيد فى أسلوب كتابته · وربما كان ذلك سببا عميقا فى أن أعمال بارسونز فشلت بصفة عامة فى تأسيس أى اثارة عقلية أو احساس بالاكتشاف ، وبالتأكيد ارتبط هذا الفشل بحقيقة أن معظم ما يقوله عن الحياة الاجتماعية ، حينما يعبر عنه بلغه عادية ، يثبت أنها ليست سوى ملاحظات مبتذلة · وقد تناول س · رايت ميلز هذه المسألة علانية وبنوع من عدم الاحترام فى مؤلفه الخيال السوسيولوجى Sociological Imagination بمساعدة بعض الترجمات لقضايا مستمدة من النظرية الكلية لبارسونز Parson's grand theory · وقد يصبح مملا أن نعيد الآن كل الفقرات التى ترجمها ميلز ولكنى سوف أقتبس فقرة واحدة بغرض التوضيح · اذ يكتب بارسونز فى مؤلفه النسق الاجتماعى (ص ٤١٠) :

« يعنى التمسك بالقيم المشتركة ، من الناحية الدافعية أن لدى الفاعلين عواطف مشتركة تدعم أنماط القيم ، ويمكن تحديدها لكى تعنى أن التوافق مع التوقعات ذات الدلاله تعتبر (حالة حسنة) نسبيا بغض النظر عن أى فائدة ادائية محددة يمكن الحصول عليها نتيجة لهذا التوافق ، كما هى الحال فى تجنب الجزاءات السلبية · وفضلا عن ذلك ، فبينما قد يلائم هذا التمسك بالقيم المشتركة حاجات الاشباع المباشر للفاعل ، فانه عادة ما يكون له جانبه الأخلاقى ، أيضا ، حيث أن هذا التوافق يحدد بدرجة ما ، مسئوليات الفاعل فى أنساق الفعل الاجتماعى الأوسع التى يشارك فيها · ومن الواضح أن الجماعة تعتبر الجوهر المحدد للمسئولية ، التى تتشكل من توجيه محدد للقيم المشتركة » ·

وبالتالى يترجم ميلز : « حينما يشترك البشر فى نفس القيم ، فانهم يميلون الى التصرف وفقا للأسلوب الذى يتوقع كل منهم أن يتصرف به الآخر · وفضلا عن ذلك فغالبا ما ينظرون الى هذا التوافق باعتباره حالة جيدة جداً ، حتى ولو بدا مضادا لمصالحهم المباشرة » · ثم يختتم قائلا : « انه بأسلوب مماثل باستطاعة الباحث أن يترجم الـ ٥٥٥ صفحة لكتاب النسق الاجتماعى فى حوالى ١٥٠ صفحة من الانجليزية الصحيحة ، وقد لا تكون النتيجة مثيرة » ·

لقد عبر لوش A. R. Louch فى مؤلفه (التفسير والفعل الانسانى Explanation and human action) عن بعض النتـــائج المـــاثلة ربما بجدية اكثر · فقد اقتبس فقرة من مقالة بارسونز (النظرية العامة فى علم الاجتماع General theory in Sociology) المنشورة الى جانب مقالات اخرى فى مؤلف ميرتون K. R. Merton (علم الاجتماع اليوم Sociology today ١٩٥٨) حيث علق :

« انه يمكن اعتبار الجيــل Generation والجنس Sex المحوريين الرئيسين للتباين فى العائلة النووية · اذ يمكن الحديث عن ادوار مختلف اعضاء العائلة بالنظر الى المحاور الداخليـــة ـ الخارجية اذ كنا ننظم العائلة عضويا على اساس الأجيـــال ، وبالنظر الى محاور الآدائى ـ الاكتمـــالى Instrumental - Consummatory اذا كنا نفكر فى التباين بالنظر الى الجنس · واعتقد أن ذلك يعنى ان للآباء سلطة على الأبناء ، حيث يميل الرجال لأن يكونوا مصدر الدخـل · ومرة أخرى · ما هـو الجديد ؟ · اذ يتحول بناء بارسونز المحكم لكى يصبح أسلوبا لتصنيف التفاعلات العديدة بين الأفراد والجماعات · ويصبح المصـــدر الوحيد للدهشة أن ما نعرفه فعلا عن النشاط الانسانى يعاد صياغته فى اطار هذا النسق الاصطلاحى والتصنيفى » ·

ويبدو لى ان تقديم ما هو عادى ومبتذل من خـــلال لغة رنانة نتج بقدر ما عن عدم احســـاس بارسونز بالموضوعات السياسية والاجتماعية الحقيقية · فعلى خلاف المفكرين الذين شرع أصــــلا فى تفسير افكارهم

ـ مارشال ، باريتو ، دوركيم ، فيبر ـ يبدو أن بارسونز ليس لديه اهتمام قوى بالحياة السياسية ولا رؤية عميقة لمشاكلها . وحتى حينما يشرع فى دراسة مسألة سياسية هامة ، كما فعل بشكل متزايد فى السنوات القليلة الأخيرة ، استجابة ، كما هو واضح ، لضغوط خارجية ، فان ميله الطبيعى تمثل ببساطة فى اعادة صياغة بعض الأحكام العامة ، السائدة والمتفق عليها ، فيما يتعلق بالموضوع ، وفقا لاطاره التصورى حيثما كان ذلك ممكنا .

وتوجد أمثلة عديدة لذلك فى مقالاته الأخيرة ، وان كانت مقالته عن الأمريكيين الزنوج Negro Americans بعنـــوان (المواطنـة الكـــاملة للأمريكيين الـــزنوج Full Citizenship for the Negro Americans) توضح هذا الاتجاه بصورة أفضـــل . وقد نشرت أول مرة فى ١٩٦٥ ، وهى تصوغ ، بمساعدة أفكار أخذت عن مفكرين ينتمون الى تيار فكرى آخـــر (بصـــفة خاصة مارشـــال T. H. Marshall وجونار ميردال Gunnar Myrdal فضـــلا عن أفكاره ـ وجهة نظر فى قضـــية الزنوج أصبحت منتشرة بين علماء الاجتماع الأمريكيين فى الأيام الأولى لحركة الحقوق المدنية ، وهى وجهة نظر ليبرالية نظرت الى الزنوج باعتبارهم آخر أقلية اثنية مؤهلة للانصهار ، والاندماج الكـامل فى المجتمع الأمريكى . ولم يسهم بارسونز بأى أسلوب برؤية ثاقبة لتاريخ الأمريكيين الســـود وظروفهم ، أو حتى يتوقع الاتجاهات الجديدة التى قد تســـلكها حركة الزنوج فى السنوات القليلة التالية . والآن يبدو تفاؤله المتعلق فيما يتعلق بحل المشكلة التى يراها من جانب واحد كخلاف أخلاقى أكثر من كونها تصادما للمصالح ، ساذجا الى حد كبير(٨) .

ويوضح نفس المدخـل مقالة أخرى حديثـــة عن الجامعات وحركة

---

(٨) يمكن النظر بنفس الطريقة الى مقالتين سابقتين ، الاولى عن (الديموقراطية والبناء الاجتمـاعى فى المـانيا النـازية) ، والثانية عن (بعض الجـوانب السوسيولوجية للحـركات الفاشية) . فلم يحلل بارسـونز ظهور النازية أو اندماج قوتهـا فى نفس الوقت الذى وقعت فيه هـذه الاحداث . وقد نشر مقالاته عام سنة ١٩٤٢ حينما أصبحت الافكار التى صاغها متــداولة تمــاما بشـــكل عام . اذ نشرت بوم المينيـرفا The Owel of Minerva جناحيها على الشفق بالنسبة لعلم اجتماع بارسونز كما فعلت بالنسبة لفلسفة هيجل .

الطلبة(٩) • وهنا أيضا يفسر بارسونز رؤية مالوفة • اذ يصف بناء الجامعات الأمريكية وتطورها دون أن يطرح مجرد تساؤل يتعلق بما اذا كانت الأزمة التي تمر بها الآن تتطلب اصلاحات اساسية في بنائها ؟ • ففي دراسته لسلطة الجامعة نجده يميز في اطارها بين أربعة عناصر اساسية ــ الأمناء Trustees ، الادارات Administrations ، الكليات Faculties والطلبة Students ، وقد شبه العلاقات المتبادلة بينها بالانفصال بين السلطات في المجال الحكومي (ولكن بدون أي محاولة لتوضيح المعنى الذي تطرحه المماثلة) • وقد استمر في التأكيد على (ضرورة أن تكون للادارات والأمناء أنواع محددة من السلطة على الكليات والطلبة) برغم أن هذه السلطة تتحدد (أو ينبغي أن تتحدد بالحرية الأكاديمية للجماعتين الأخريين) • ولكن ما هي الأسس التي اكد بناء عليها انه ينبغي ان تكون للمديرين والأمناء (وبخاصة الفئة الأخيرة) مثل هذه السلطة في الجامعة ؟ وفي الحقيقة ، ما اهمية وجود الأمناء اساسا ؟ •

لم يناقش بارسونز هذه القضايا ، فقد كانت جميعها من الوضوح حتى انها ببساطة لم تخطر بباله • وهكذا ، ففي الوقت الذي كان فيه موضوع السلطة Power (الاستبدادية وغير المسئولة) المتركزة بالتحديد في أيدي الأمناء او اعضاء مجلس الجامعة ، من اكثر الموضوعات تفجرا في حرم الجامعات الامريكية ، نجد ان بارسونز يوافق على البناء الحالي للجامعات الأمريكية غير ناقد اياه ولم يقدم اكثر من تقرير وصفي للتنظيمات التقليدية •

فاتجاه مدخل بارسونز لدراسة الموضوعات الاجتماعية والسياسية، واعتبار البناء الحالي للمجتمع الأمريكي بناء ثابتا لا يتغير ، وفي اكثر الاحتمالات قادر على النمو التدريجي وفقا لمسار محدد وضيق للغاية ، لم يظهر من فراغ ، أو بأي اسلوب بسيط من أيديولوجيا محافظة • وانما

---

(٩) The Academic System : A sociologist's view, The Public Interest, No. 13, (Fall, 1968).

يكمن مصدر هذا الميل أيضـــا فى تصـــدر بارســـونز لطبيعة النظرية السوسيولوجية ، التى كانت واضحة فى انجازه منذ البداية ، والتى عبر عنها بوضوح فى الصفحات الأولى لمؤلف النسق الاجتماعى :

« يتمثل موضوع هـــذا المجلد فى استعراض وتوضيح الاطـــار التصورى لتحليل الأنساق الاجتماعية بالنظر الى الاطار المرجعى للفعل ٠ فالمقصود به أن يكون عملا نظريا بالمعنى الاســاسى للكلمة ٠ فاهتمامه المباشر ليس التعميم الامبيريقى فى ذاته أو المنهج ، برغم انه سوف يتضمن بالطبع قدرا واضحا منهما ٠ ومن الطبيعى ضرورة اختبار الاطار التصورى المقدم هنا بالنظر الى فائدته فى البحث الامبيريقى ٠ بيد أن ذلك ليس محاولة لتقديم تقرير نظرى عن معرفتنا الامبيريقية ، مثلما قد يكون ذلك ضروريا بالنسبة لانجاز عن علم الاجتماع العام ٠ فالتركيز هنا على الاطار النظرى أما التناول المنظم لاستخداماته الامبيريقية فســوف نهتم به بشكل منفصل » ٠

وبذلك ، يستبعد بارسونز من اطار النظرية (بالمعنى المحدد لذلك) عنصرين كانا عادة يعتبران ، على العكس عناصر حيوية بالنسبة لعلم الاجتماع النظرى ٠ ويتمثل أول هذه العناصر فى محاولة صياغة التعميمات الامبيريقية وتأسيس الارتباطات المنظمة بينها ٠ حيث تمت هذه المحاولات بأساليب عديدة فى تاريخ التفكير الاجتماعى ٠ فهى تنشأ فى بعض الحالات نتيجة للمواجهة المباشرة لواقعة أو ظاهرة أجتماعية محيرة ، تدفع الى البحث عن تفسير ما ٠ وقد تكون ظاهرة من النوع الذى لم ينل حتى هذه اللحظة انتباها كثيرا (حتى تكشف عن أهميتها القدرات التخيلية لمفكر مبدع) ، وقد تكون شيئا متميزا أو جديدا تماما فى الحياة الاجتماعية ٠ وينتمى تفسير ماركس للثورة الفرنسية ونشأة الحركات الاشتراكية الى هذه الفئة الأخيرة ٠ وفى حالات أخرى يدفع عدم الاقتناع بالتعميمات أو الأطر التفسيرية لمفكرين سابقين الى نشأة نظريات جديدة ، مثلما شرع ماكس فيبر فى تعديل النظرية الماركسية عن أصل الرأسمالية ، أو حينما قدم دوركيم تفسيرا سوسيولوجيا للانتحار يتناقض مع التفسيرات المتنوعة (السيكلوجية وغيرها) التى كانت سائدة عند نهاية القرن التاسع عشر ٠

هناك خاصية مشتركة بين كل هـذه الحالات ، تتمثل فى انه بعد وضوح المشـــكلة وصياغتها ، يفترض تفسيرا لحلها · وفى انجازات بارسونز فان بؤرة الاهتمام هذه ، هى المفقودة منذ البداية · طالما أنه فى تفسيره لأعمال علماء الاجتماع الكلاسيكيين قد اغفل مســـالة صـــدق تفسيراتهم لصالح التركيز على طبيعة المفاهيم التى يستخدمونها ·

وقد اتبع أسلوبا مماثلا فى دراساته الاجتماعية الأكثر حداثة ، عن طريق تقديم تصنيف وصفى للظواهر فى اطار مجـــال محدد ، أو بتقديم تحليل للمفاهيم المستخدمة فى هذا المجال بدلا من تقديم تفسير للوقائع فى علاقتها بمشكلة واضحة التحديد · ولقد وضحت هذه المســـالة الأخيرة فعلا فى المقالات التى كتبها عن الأمريكيين الزنوج ، والجامعة الأمريكية ، غير اننا من الممكن أن نجد مثالا اخـــر لافتـــا للنظر فى مقالة له بعنوان (حول مفهوم القوة السياسية On The Concept of Political Power) فى مؤلفه (النظرية الاجتماعية والمجتمع الحديث) · حيث تعتبر هـــذه المقالة مكرسة اساسا للتعديل والتوضيح والتحليل التصورى ، ومن ثم فهى تستبعد بشدة أى محاولة لتفسير الأحداث السياسية · فبعد تأسيسه مماثلة بين (النقود) و (القـــوة) يشير بارســـونز الى الظواهر التى يسميهـــا (بتضخم القـــوة Power inflation) و (انكماش القـــوة Power deflation) · ويوحى وصـــــفه لهـــــذه الظـــواهر بضعف المماثلة ، وبخاصة حينما تبدو الظروف المرتبطة بانكماش القوة مماثلة لتلك المرتبطة بالتضخم النقدى(١٠) · غير انه من الأكثر أهمية هنا أن نلاحظ ان بارسونز لم يقدم على الاطلاق أى اشارة للأسباب الممكنة لهذه التقلبات السياسية · ومن ثم فهو يصف الماكارثية (كدورة انكماشـــية

---

(١٠) يعنى ذلك بالنسبة لبارسونز ، أن انكماش القوة يقلل السـند الاساسى للثقـة ، التى يعتمد عليها تأثير كثير من العناصر المتصلة بمسئوليات القيادة الرسمية وغير الرسمية ، والتى تدعم بدورها رصيد القوة ، المستقرة بالضرورة · (ص ٣٤٣) · من اجـل نقـد اكثـر شمولا لمفهوم بارسونز انظر مقالة كتبها انتونى جايدنز بعنوان (القوة فى كتابات بارســونز الاخيرة)

Parsons" Sociology, 2 (3) (September 1968).
Anthony Giddens : "Power in the recent writtings of Talcott

Deflationary spiral في المجـــال السـياسى) غـير أنه لم يفسر سبب هذه الدورة • ومن ثم فنحن فى النهاية لا نفهم الماكارثية أفضل من ذى قبل ، ولكننا نخلع عليها اسما جديدا فقط •

ويعتبر المنهج أو منطق فهم الموضـــوع هـو العنصر الثانى الذى استبعده بارسونز من رؤيته للنظرية • حقيقة أنه لا ينتمى بدقة لمجـــال النظرية ، ولكن لمجال ما بعد النظرية Meta - theory بالقـــدر الذى يتضمن تفكيرا فى طبيعة ومكانة النظريات والقضايا السوسيولوجية ذاتها • ومما لا شك فيه أن طبيعة علم الاجتماع وموضوع بحثه أسستا على الدوام فصلا كاملا وعقيما بين المجالين • فلكى تصبح منظرا جيـــدا ، متوقد الذهن ، فانه يجب أن تكون على وعى مستمر بالصعوبات المحـددة التى تواجه أى محاولة لتفسير الوقائع أو السلوك ، والفعل الاجتماعى • ومن الحقائق التى دعتها أعمال المفكرين السوسيولوجين الكبار ، من ماركس وحتى دوركيم ، أن أيا منهم لم يؤسس نظريتـــه بدون أن يحلل فى نفس الوقت أصولها وبناءها الصورى •

وبأسلوب ما ، أثاروا جميعهم تساؤلا رئيسيا أصبحت له ، ثانية ، أهمية كبيرة فى المناقشات الحالية يتعلق من ناحية بمكانة وحدود التعميم والتفسير السببى فى علم الاجتماع • ومن ناحيـــة أخرى يتعلق بطبيعة وقيمـــة وصــــدق الادراك الحسى والتخيلى Imaginative للحيـــاة الاجتماعية ، كذلك الذى يجده الباحث مثلا فى مؤلف توكفيل Tocqueville الديمقراطيـــة فى أمريكـــا Democracy in American أو فى مـــؤلف ماكس فيبـــر (الأخــلاق البروتستنتية وروح الرأســـمالية The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism) ، أو فى الرواية الطبيعية أو رواية النقد الاجتماعى مثل رواية زولا (الجنين Germinal أو رواية دوس باســوس Dos Passos (الولايات المتحـــدة الأمريكية U. S. A.) • والى جـانب ذلك فقـــد أثاروا أيضـــا مجمـــوعة من التساؤلات تتصل بدرجة أكثر أو أقل بصدق ما هو شامل فى مقابل صدق المقولات التاريخية (العقل التحليلى فى مقابل العقل الجدلى) للنظرية الاجتماعية ، أو التى تتعلق بالايديولوجيا والموضوعية •

وقد التزم بارسونز بشدة بقاعدته الخاصة التى تؤكد عدم تناول هذه هذه المشكلات باى قسر او باى اسلوب منظم · وهكذا ، فبرغم انه يشير كثيرا الى الوضعية ، فان ذلك كان دائما بالمعنى الذى ارتبطت فيه الوضعية بالتقمية كاطار تصورى يستند الى فكرة الفعل الفردى العقلانى ، وليس بالمعنى الذى يمكن ان تقابل به الوضعية ، كالفسفة للعلم تؤكد على ملاءمة التفسير السببى للعلوم الاجتماعية ، بفلسفة اخرى للعلم تؤكد اتصال الظواهر الاجتماعية كل بالاخرى ، ويمكن فهمها باسلوب غير سببى non-Caustl way (بواسطة عملية الفهم Verstehen او ادراك المعنى Comprehension of Meaning كما يصف ذلك دلثاى Dilthey وماكس فيبر) ·

ومرة اخرى ، فبرغم أن بارسونز كما لاحظت قد فسر مفهومة للفعل باعتباره يتضمن (اهدافا ذات معنى) بطريقة تبدو كما لو انه يصنف نفسه ضد الوضعيين والسلوكيين ويقف الى جانب هـؤلاء الذين يعتقدون أن العلوم الاجتماعية تعتمد على نموذج متميز من المعرفة والفهم ، فقد ظل يستخدم اللغة السببية فى مناسبات عديدة ، الى جانب انه لم يعتقد فى ضرورة ان يعطى تقريرا مفصلا لمنهجه او وجهة نظره · ومن الواضح أن توجيه الهدف النظرى قد يصبح اكثر وضوحا اذا هو قد أخذ على عاتقه ، فى مرحلة ما ، ان يفحص الأسس المنطقية لنظريته ·

وبتخلية عن التعميم الامبيريقى من ناحيـة ، والبحث المنهجى من ناحية اخرى فقد قصر بارسونز نفسه الى حد كبير على تحليل وتصنيف المفاهيم · وبذلك يمكن القول وفقا لبراثوايت R. B. Braithwaite واخرين ، فان بارسونز قد عمل فى اطار ميز العلوم فى مرحلة سابقة من تطورها · حيث النظرية لا تعنى اكثر من تصنيف الظواهر التى يتضمنها الموضوع ، وهى التى تحدد نطاق المشكلة ، وقواعد الاجراءات ، واطر التفسير · غير ان هذا القصور غير ضرورى وغير مرغوب فيه بالنسبة لموضوع تقدم لما بعد هذه المرحلة الأولى · على الأقل بمعنى أن علماء الاجتماع الكلاسيكين انفسهم قدموا تعميمات ونظريات مفسرة يمكن أن

نوافق عليها ، او نهملها او نرفضها استنادا لرؤيتنا للدليـــل الامبريقى واسلوب التفسير الملائم فى علم الاجتماع • غير ان علينا ان نواجهها فى كل الحالات •

وينبغى القول انه فى مناسبات قليلة نجد ان بارسونز لم يقيد نفسه كلية بالتحليل التصورى ، وفى هذا الصدد فانه من المفيد مقارنة مقالته عن ماركس بمقالته عن دوركيم وفيبر فى مؤلفه (النظرية السوسيولوجية والمجتمع الحديث) • ففى مناقشة بارسونز لدوركيم وفيبر نجده مهتما اساسا باطرهم التصورية على طول مؤلفه الاول عن الثـــورة المزعومة فى الفكر والتى انتجت فكرة الفعل الاجتماعى ، غير انه فى فحصه لفكر كارل ماركس (باى قدر لأول مرة) نجده قد حدد نطاقا لتحديد موقـــع ماركس فى الحركة العقلية التى انطلقت من تيارى الوضعية النفعية والمثالية الألمانية الى علم الاجتماع الحديث • وبدلا من ذلك نجده قد ركز على نقد التعميمات التفسيرية لماركس • ويبدو لى ان سبب اختلاف المعالجة ظهر من حقيقة انه بينما وجد بارسونز ان التفسيرات التى قدمها دوركيم وفيبر يمكن الموافقــة عليهــا ايديولوجيا ، نجــد ان تفسيرات ماركس كريهـــة distasteful تستوجب الرفض • وينبغى اضافة ان بارســونز لم يرفض هذه التفسيرات فى مقالته بصورة مستقلة ، ولكنه لخص فقط الانتقادات العديدة الموجهة لنظرية ماركس والتى اصبحت الآن مألوفة ، وهـــو لم يقدمها باسلوب يوضح امكانية اشتقاقها من نظرية بديلة لنظريته •

وبالنظر الى تفضيل بارسونز النظر الى المجتمع من وجهة نظـــر مبادئه الثقافية او عناصره المعيارية فقط ـ كالمعتقدات الأخلاقية والدينية ـ بدلا من المصالح المادية ، فى تحتيم الفعل ، نجده قد اسس عداءه لماركس • اذ يقول ان اكثر الانتقادات اهمية يتمثل فى محاولة ماركس التى لا يمكن الدفاع عنها لاستبعاد العوامل المعيارية والمثالية من العوامل ذات الأهمية الرئيسية فى تحتيم العملية الاجتماعية ، • ولقد اقر بارسونز هذا الراى ثانية فى مؤلفه (المجتمعات : منظورات تطورية ومقارنة) • اذ يؤكد انه لا يمكن الموافقة على نظرية (العامل الواحد) فى التطور الاجتماعى ، ثم يذهب الى القـــول بان هــذا الصــــدق الاحــادى elementary truth

(لا يقدم ترتيبا متدرجا للعوامل) ثم يختتم قائلا (انى أعتقد بأن العناصر المعيارية داخل النسق الاجتماعى أكثر اهمية بالنسبة للتغير الاجتماعى من المصالح المادية للوحدات المكونة ٠

وهكذا يؤكد بارسونز ، مثل ماركس ، أولوية عناصر معينة فى الحياة الاجتماعية ، غير انه على خلاف ماركس الذى شرع يوضح امبيريقيا أن تغيرات هائلة فى المجتمع الأوربى نتجت عن التغيرات فى أسلوب الانتاج ، وعن ظهور طبقات جديدة ، وعن الصراعات الطبقية ، نجده لا يعتبر ضروريا أن يقدم دليلا يدعم اعتقاده فى أن العناصر المعارية اكثر اهمية ٠ وفى مكان اخر من نفس المؤلف فى مناقشته للمسار العام للتطور الاجتماعى نجده يشير الى (ميل المجتمعات نحو التباين الى انساق فرعية اساسية اربعة (الأنساق الفرعية لنموذجه الذى ناقشته سابقا) غير انه لم يؤسس تساؤلا يتعلق باسباب هذا الميل ، تاركا اياه يوضح ، أنه اذا وجد هذا الميل ، فانه يعتمد بطريقة ما على التفوق المدعى للعناصر المعيارية فى الحياة الاجتماعية ٠

وقد سيطر الاعتقاد فى أولوية تأثير القيم والمعايير (وبخاصة القيم الدينية) على اسهامات بارسونز فى مواجهة القول بتأثير المصالح ٠ فمثلا فى تحليلة لمفهوم القوة يرفض ما يسميه منظرى نظرية اللعب Game theory بتصور المجموع الصفرى Zero-sum (وبخاصة كما استخدمه س ٠ رايت ميلز فى مؤلفه صفوة القوة Power elite) ، حيث تتضمن قوة بعض البشر ضعف الاخرين ، لأن هذا الرأى يتضمن وجود الصراع والمصالح المنقسمة فى المجتمع ٠ ومن ثم فقد اختار أن يحدد القوة Power (بقدره النسق الاجتماعى على انجاز الأمور التى تدخل فى نطاق مصلحته الجمعية) ٠ بحيث يفرض ذلك تأكيدا على عدم تجاهل المصلحة الجمعية ، وعلى تكامل النسق من خلال القيم المشتركة ، بينما هو يقلل من اهمية المصالح المتناقضة والصراع الداخلى ٠

وتعتبر هذه بالتحديد وجهة نظر من جانب واحد كتلك التى لماركس ،

وربما أكثر من جانب واحد ، طالما أن ماركس قد سلم بقوة القوى الموحدة في المجتمع والتي تنبثق عن تأثير (الأفكار الحاكمة ruling ideas) في حين أن بارسونز لا يسلم اطلاقا بفكرة (القوة فوق الآخرين Power over others) (أعني وجود الجماعات الحاكمة والجماعات الخاضعة) • وقد يبدو مفهوم بارسونز عن القوة معقولا في جانب منه في حالة المجتمعات الديموقراطية فقط (وبالتأكيد ليس في حالة النظم الدكتاتورية أو الاستعمارية) ، ومن ثم لا يمكن الاستعانة به على نطاق شامل ، اذ يوجد اعتراض أكثر جدية على أسلوب صياغة هذا التعريف في مواجهة التعريفات الأخرى • فكيف نحكم بين التعريفات اذن ؟ عن طريق تحديد كيف تعمل في تفسير الوقائع ، أو في فهم الموقف • ومع ذلك فقد أسس بارسونز صلة بين مفهومه عن القوة وبين المفاهيم الأخرى لتحليله العام عن المجتمع • وحيثما استخدم ڤيبر وجون ستيوارت مل ، على سبيل المثال ، مفهوم القوة ، كما حددوه ، لكشف وفهم العمليات السياسية الحقيقية ـ نمو البيروقراطية ، نمو الأحزاب السياسية الحديثة، تخلق صفوة القوة ـ دار بارسونز بلا توقف في دورة المفاهيم والمماثلات ، وحتى ذلك الوقت حيث كان يستخدم مفهومه عن القوة ، لنقل في دراسات تشكل الأمم الجديدة ، أو ثورات القرن العشرين ، أو حركة القوة السوداء ، فان قيمته لا يمكن تحديدها •

واعتقد أن كثيرا من علماء الاجتماع قد وجدوا أن من الصعب للغاية التعامل مع تفكير بارسونز ، حتى لو تغلبوا على عدم تحدد اللغة • اذ لا تبدو الاستكشافات التصورية المتكررة ، والتصنيفات المتقنة • التي تصوغ باصطلاحات أخرى تمييزات أساسية قامت منذ زمن بعيد بين النظم الاقتصادية والسياسية والدينية وغيرها من النظم ، يمكن أن تقود في اتجاه محدد ، أو نحو توضيح القوى الجوهرية التي تعمل في المجتمع الحديث • فما هو مفتقد بصورة أكثر وضوحا وجود محور ، ومجموعة من القضايا التي يمكن أن تتامس حولها نظرية سوسيولوجية ، كتلك التي أسسها آخرون وجهوا فكرهم نحو قضايا الطبقة ، وعدم المساواة ، والعلم ، والاتجاه الى التصنيع ، والرشد والبيروقراطية •

وتضم أفكار بارسونز العامة نظرة محافظة بوضوح · حيث يلعب الاعتقاد فى الاستقرار ، والتكامل والنظام والتأثير الحتمى للقيم الدينية دورا رئيسيا · بل حتى هذه النزعة ليست نزعة محافظة فعالة كتلك التى يمكن ان تقود الى تفسير محدد للفرص والمخاطر التى يواجهها البشر ، افرادا أو جماعات ، فى عالمهم الحديث · ولكنها نزوع محافظ غير معلن أو محدد ، منتشر ، ومنفصل يكشف عن نفسه بدرجة اكثر فى كل مدخل بارسونز نحو موضوع الاهتمـــام ، منه فى أى صـــياغات امبيريقية عن المجتمعات الواقعية(١١) · حتى المفهوم الأساسى (للفعـل الانســـانى Human action) الـــذى راه اخـــرون على انـــه يتضـــمن مشـــروعا أساسيا ، قتله بارسونز ، واصبح الفعل لديه كما يبدو فى لحظة من الزمن، بدون اى توجيه نحو المستقبل ، مدانا فى اطار تصنيف لنماذج الفعـــل الاجتماعى ·

وليس هناك موضع يبتعد فيه بارسونز عن عالم الفعل الواقعى اكثر مما هو واضح فى كتابه (النظرية السوسيولوجية والمجتمع الحديث) فمن الخواص الغريبة لهذا الكتاب انه لا يبدو متعلقا بالمجتمع الحديث على الاطلاق ، باى صـــورة محددة · اذ لم تذكر خلاله اطـــلاقا مســـائل كالعلم ، والصناعة ، والنمو الســـكانى ، والمجاعة ، والثـــورة والتحيز العرقى ، والصراع ، والحرب النووية ، أو حتى أعطيت انتباها سريعا · ولم يحدث اهتمام بالوقائع أو الموضوعات التى تهيج ، وتربك ، وتثير ، أو تخيف البشر فى مجتمعنا الحالى ، والتى تولد القهر والتمرد ، وتضاءل اسهام علم الاجتماع فى نطاق الفهم والحكمة العملية حتى وصـــل الى مستوى الاقتراحات السطحية كان نقول (··· انه يجب بذل كل جهـــد لكى ننشر بوعى القضايا ذات الالتزام القيمى ، والتى يمكن أن توفر الأساس

---

(١١) غالبا ما تكون رؤية بارسونز لبعض القضايا الاجتماعية ذات طبيعة ليبرالية ، ولكنها لا تكون راديكالية ابدا ، لذا يحدث عادة فى هذه الحالات أن يتبنى بارسونز ويطور تجديدات مفكرين آخرين للموقف ·

للاتفاق بين كل من الأمم الفقيرة والغنية(١٢) فكيف يمكن لنـا أن نكشف عن اتجاه واضح ، أو اهتمام أو مصلحة حيوية فى فكر غير ملائم بصورة تامة ؟ .

(١٢) Sociological theory and Modern Society (New York, 1967). P. 45.

الفصل الثالث

الأزمة فى علم الاجتماع (١)

ظهر « علم الاجتماع الجديد » منذ عدة سنوات • ولكونه قد نشأ من اسهامات س • رايت ميلز C. Wright Mills اساسا ، فقد ارتبط من خلاله بمعتقدات وحركات اليسار الجديد فى نهاية حقبة الخمسينات وبداية حقبة الستينات • غير انه مثلما نما اليسار بسرعة كبيرة واستبدل بحركات اجتماعية مازالت اكثر جدة ، فقد حدث ذلك بالنسبة لعلم الاجتماع الجديد ايضا ، فقبل أن يتمكن من تاسيس نفسه بشكل ملائم كاسلوب متميز في التفكير الاجتماعي ، نجده قد نحى جانبا بواسطة محاولات اكثر حداثه لمنح العلم توجيها منعشا • ومن ثم ففى أقل من عشر سنوات أصبح لدينا علم الاجتماع النقدى Critical Sociology وعلم الاجتماع الراديكالى Radical Sociology ، بحيث أن هذه التجديدات كانت اقل من حيث قوة ارتباطها بالالتزامات السياسية من الاثنوميثودولوجى ethnomethodology والنزعة البنائية ناهيك structurlasm عن حركة تحرير علم الاجتماع التى قد تكون أسلوبا للشعور أكثر منها أسلوبا للتفكير • والآن يقدم لنا ألفن جولدنر Alvin Gouldner تحولا آخر فى شكل علم الاجتماع التأملى reflexive sociology او عالم الاجتماع الذى يتأمل مولده(٢) •

ويمكن اعتبار هذا التكاثر والتتابع السريع للمذاهب بسهولة ، اشارة

---

(١) Reprinted, with minor rivisions, from New York Review of Books XVI (4) (11 March 1971).

(٢) Alvin Gouldner, The Coming Crisis of Western Sociology (New York, 1970).

لأزمة عقلية ، تصاحب ازمة فى الحياة الاجتماعية او تكشف عن نفسها فى الحركات المتنوعة للاحتجاج والمعارضة ، وفى التمردات المتفرقة • وقد شخص نورمان برنباوم Norman Birnbaum هذا الموقف فى مقالة له عن الأزمة فى علم الاجتماع الماركسى بقوله :

« تقع الأزمة النظرية او المذهبية فى النسق الفكرى حينما تتوفر أى من مجموعتى الظروف المجردة • حيث تستنفد امكانيات النمو الداخلى للنسق نفسها فى احدى الحالات وتصبح مقولات النسق عاجزه عن التحول، وتصبح المناقشة التى اسسها النسق مدرسية Scholastic بالمعنى المزدرى لهذا المصطلح • وفى الحالة الأخرى تتغير الحقائق التى ادركها النسق عن صورتها الأصلية بقدر كبير حتى تصبح مقولات النسق عاجزة عن مواجهة الظروف الجديدة • ومن الواضح أن مجموعتى الشروط هاتين وقعتا غالبا بصورة متزامنة ، وبخاصة بالنسبة للانساق التى تهتم بالحركة التاريخية للمجتمع »(٣) •

ولقد خبر علم الاجتماع كثيرا ازمات من هذا النوع • وبالنظر الى تاريخه الحديث فقط ، يتضح لنا كيف أن علم الاجتماع التقدمى Progressive Sociology الذى ساد حقبه الثلاثينات (والذى نمثل له باسهامات روبرت ليند Robert Lynd وبعض الكتاب الماركسيين) قد فقد معظم كفاءته واهميته عند نهاية الأزمة الاقتصادية واندلاع الحرب ، واعادة البناء فيما بعد الحرب ، حيث خضع الحوار السياسى ، والسياسة العامة فى معظم الأقطار الغربية لأفكار النمو الاقتصادى فى المجال الداخلى والصراع بين الديموقراطية والنزعة الشمولية totalitarianism فى المجال العالمى • وبالمثل بدأ علم الاجتماع المحافظ conservative بعد الحرب (من خلال كتاب مثل بارسونز Parsons ، لبست Lipset ، بل Bell ، شيلز Shills وأرون Aron ، حيث ظهر الى حد كبير من خلال هذه الظروف المتغيرة ،

---

(٣) In Hans Peter Dreitzel (ed.), Recent Sociology, No. 1. (New York, 1969).

يفقد قدرته على تفسير الوقائع الاجتماعية بطريقة مقنعة ، حينما ظهرت الحركات السياسية والثقافية الجديدة وتحدت أساليب الحياة المستقرة أو هجرتها فى كثير من المجتمعات الصناعية ٠

وقد أظهرت حالة الفوضى التى عشنا خلالها ، على الأقل فى الفترة من ١٩٥٦ ـ ١٩٦٨ غـرابة أنه كان ينبغى أن يكتب جولدنر Gouldner عن الأزمة المقبله فى علم الاجتماع ٠ وتفترض أحد أساليب تفسير فكرة أن الأزمة تقع فى المستقبل أن جولدنر يشير الى فترة سوف تواجه فيها المدارس القائمـــة فى علم الاجتماع بنظرية محكمة بديلة عن المجتمع ، مستندة (كمـــا يفترض) الى بنــاء جديد من العواطف ومجموعة من (الافتراضات الأساسية) الجديدة(٤) ٠ ويمكن أن يعتبر ظهور هـــذه النظرية الى حد كبير حلا للأزمة العقلية أكثر من كونه تعجيـــلا لها ٠ وحينئذ فقد توجه أفكار جديدة البحث السوسيولوجى(٥) ٠ وقد يتأسس جديدة حول القضايا الهامة ، وقد نغفل بحماس بعض المناقشـــات التى ما تزال مستمرة ـ حول التغير والاستقرار الاجتماعى أو حول الصراع والاتفاق ـ أو تودع متحف التاريخ ٠

ويعتبر وصف جولدنر للحالة الراهنة كحالة تستمر فيها مدرستان فكريتان قائمتين ـ الماركســـية والوظيفيـة ـ فى السيطرة على النظرية الاجتماعية وعلى وشك أن يتم تحديهما ، من العناصر الأساسية لتصوره عن الأزمة القادمة ٠ اذ كرس جزءا كبيرا من مؤلفه لفحص نقدى للنسق النظرى لتالكوت بارسونز على أســـاس أنه يمكن معادلة علم الاجتماع الأمريكى بالاتجاه الوظيفى أو بالتالى بنظرية بارسونز ٠ ويبدو أن الاهتمام

---

(٤) Domain assumption

(٥) يبدو أن الافتراضات الأساسية تتطابق بدقة مع ما يسميه كوجن Kuhn وآخرون (النموذج التوجيهى Paradigm أعنى مجموعة القيم والمعتقدات التى يشترك فيها أعضاء المجتمع العلمى والتى تحدد القضايا التى تعتبر قضايا علمية ، والمداخل التى يجب تبنيها فى محاولة التصدى لها ٠ ومن الواضح أن (الافتراضات الأساسية) أو (النماذج التوجيهية) بهـذا المعنى ترتبط ببناء العواطف structure of sentiments أو تحتويه ٠

الذى منحه لهذه النظرية مبالغا فيه ، أولا لأنه لم يتقدم فى الحقيقة أبعد من الانتقادات التى وجهت اليها منذ وقت مضى وحتى الآن · وثانيا لأنه من المشكوك فيه للغاية (وهو ما لم يوضحه جولدنر بأى أسلوب) أن يكون الاتجاه الوظيفى ، وبخاصة تصور بارسونز له ، قد تمتع بهـــذه المكانة المسيطرة خلال العقد السابق حتى فى علم الاجتماع الأمريكى ، بينما لم يحقق فى أوربا أى تفوق على الاطلاق ·

وقد تعرضت الماركسية للمنافسة ، كنسق سوسيولوجى منافس ، بشكل ناقص وبايجاز شديد · وصور تطورها بأسلوب مضلل الى حد ما ، ويسلم جولدنر بأن الماركسية كانت منذ البداية ، تيارا أساسيا مضادا داخـــل علم الاجتماع الغربى ، غير انه لم يفحص الخلافات النظرية التى ولدهـا وما زال يولدها هذا التناقض ، وبدلا من ذلك وصل الى نتيجة أن الماركسية والوظيفية اللذين يواجهان كل منهما الآخر ، والمتميزين جغرافيـــا على النطاق العالمى ـ فأحدهما مضمن فى علم الاجتماع السوفيتى ، بينمـا الآخر فى علم الاجتماع الأمريكى ـ فى صراع يلطف بالاستعارة والتكيف المتبادل فقط ·

وقد يكون لذلك معنى سياسى محدود ، فباعادة صياغة ماركس ، يمكن القول أن الأفكار الحاكمة فى العالم هى افكار القوى الحاكمة ، حيث تواجه القوى العظمى كل منها الأخرى أيديولوجيا مسلحة بعلوم اجتماع قوية · غير أن هذه الحقيقة ارتبطت بطريقة معقدة وغير مباشرة فقط بحالة التفكير السوسيولوجى · ولكى يؤسس جولدنر مقابلته الدقيقة بين علم الاجتماع الغربى وغير الغربى ، فان اعتباره بارسونز المعبر الدقيق عن علم الاجتماع الغربى ، فرض عليـــه أن يوحـــد الماركسية مع الماركسية السوفيتية لكى يقدمها كنظرية موحدة متماسكة ومسيطرة · ولكى يتجاهل الأزمة المستديمة فى الفكر الماركسى · ونحتاج لمواجهة هذه النظره أن نلاحظ أن الفكر الماركسى قد أزدهر خارج الاتحاد السوفيتى أساسا ، فى فرنسا ، المانيا ، ايطاليا ، يوغوسلافيا وربما الصين ، حيث اتخذ اشكالا متنوعة ومعدله الى حد كبير ومجربه · وقد اثر الحوار العقلى المتعلق

بطبيعة الماركسية كنظرية فى المجتمع ، على الماركسية كعقيدة سياسية ٠ وحتى فى الاتحاد السوفيتى ، وبوضوح كامل فى الأقطار الأخرى لأوربا الشرقية ٠ وفضلا عن ذلك ، نجد أن للأفكار الماركسية (مع انها الماركسية غير السوفيتية) تاثيرا هائلا الآن على علم الاجتماع الغربى اكثر مما كان لها منذ عقود كثيرة ٠ وكما لاحظ درايتزل فى مقـــدمة كتابه انه قد ظهر « ٠٠٠ استعداد جديد للاستفادة من وجهة النظر الماركسية ، ليس بمعنى قبول النظرية الماركسية فى المجتمع ، ولكن بمعنى الاستفادة من الأفكار العديدة ، التى ترجع جذورها الى الماركسية ، مع تفسيرها بشكل مختلف وذلك من اجل اثارة قضايا ، او لنقد المداخل الأخرى » ٠

وفضلا عن ذلك ، فهناك معنى آخر للاقتراب من الأزمة ، وهو الاقتراب الذى يطرح للبحث علم الاجتماع ذاته ، وليس شكلا معينا ٠ وكما لاحظ روبرت نسبت Robert Nisbet فى مؤلفـــه التفــكير السوسيولوجى The Sociological Tradition أن علم الاجتمـــاع قـــد تشـــكل فى أزمة انتقال الأقطار الأوربية الى المجتمع الصناعى ٠ اذ تشكلت مجموعة أفكاره وقضاياه المتميزة فى الفترة ابتداء من ١٨٢٠ وحتى نهاية القرن التاسع عشر ٠ حينما كانت المجتمعات الحضرية ، والديموقراطية والصـــناعية ، والبيروقراطية ، والعلمانية التى نعيش فيها ، فى حالة تخلق ٠ وقد يتضح كما يذهب نسبت أننا نستمر فى رؤية العالم الاجتماعى من خلال توسط هـــذه الافكار او من وجهـــة النظر هـــذه ، تبدو التغيرات فى الفكر السوسيولوجى بين ١٩٣٠ ونهاية ١٩٥٠ كتنوعات حول ذات الموضوع ٠ ويعتبر علم اجتماع الثلاثينات ، وبخاصة شكله الماركسى مشتقا ، حيث استفاد من الأفكار التقليدية ، غالبا وبشكل فج تحت تاثير الستالينية ، ومن ثم فلم ينتج فكرا أصيلا كذلك الذى ظهر فى بداية القرن ، فى أوج الحركة الثورية الأوربيـــة فى كتابات لنين Lenin ، روزا لوكسمبرج Rosa Luxemburg ، لوكـــاتش Lukacs ، جرامســـكى Gramsci والمـــاركسين النمساويين Astro - Marxists ٠ وبنفس القـــدر كان علم الاجتماع المحافظ الذى تبعه مشتقا ، حيث يعتبر النسق النظرى لتالكوت بارسونز أحد مظاهره ، حيث هو ، الى حد بعيد ، عبارة عن جمع كبير لأكثر

العناصر محافظة فى تفكير علمـــاء الاجتماع الكلاسيكين ، بشـــكل فج ومدرسى ، اذ نجده يؤكد مثلا على نماذج الفعل الاجتماعى عند ماكس فيبر ، وتمييزه للنظام الراسـمالى بدلا من التاكيد على نظريته فى التغير الاجتماعى ، واهتم ايضا بمفهوم باريتو عن التوازن الاجتماعى بينما هو قد اغفل ماركس عن قصد ·

وقد فرض التحول الشامل والسريع للبناء الاجتماعى والاقتصادى الذى وقع فى الأقطار الصناعية منذ الحرب ، وحركات المعارضة السياسية والثقافية التى ظهرت كنتيجة لها ، تساؤلا يتعلق بما اذا كنا نعيش تغيراً هائلا من أحد اشكال المجتمع البشرى الى آخر يمكن مقارنته من حيث مداه وأهميته بالانتقال الأول من المجتمع الزراعى الى الصناعى · ويبدو ان امكانية هذا التغير الأساسى كانت كامنة وراء معظم التساؤلات الذاتية الحديثة بين علماء الاجتماع · فقد أشار جولدنر اليه حينما كتب عن بناء العواطف المتغير ، وبخاصة لدى جيل الشباب ، ومتضمنات ذلك ، وقد ناقش رينارد بندكس Reinhard Bendix هـــذه الظاهرة من جانب مختلف فى مواضـــع عديدة من مجموعة مقالاته الأخيرة(٦) · ويوافق بندكس أن التوجيه العام لعلم الاجتماع قد تأثر بقوة بتيارات الفكر والشعور السائدة فى المجتمع ، وهو يقتبس موافقا ملاحظة ماكس فيبر : « فى وقت ما تتغير وجهات النظر ، حيث يتشكك البشر فى وجهات النظر التى اتبعوها بلا تفكير ، ويصبح الطريق مفقودا فى قلب العتمة ، فقد خبا ضوء القضايا الثقافية الهامة ، وحينئذ يستعد العلم ايضا لتغيير وجهة نظره وأدواته التصورية لكى ينظر من علياء الفكر الى أسفل حيث مسار الاحداث » ·

ومع ذلك ، فعلى خلاف فيبر يخشى بندكس الآن رفض العلم ذاته باعتباره يجسد العقل فى المجتمعات الحديثة · ويجد هذا الخوف مبررا له فى العدائية الملحوظة التى ظهرت لدى بعض الجماعات الاجتماعية فى الأقطار الصناعية نحو التكنولوجيا ، وايضا فى بعض الاتجاهات الحديثة

---

(٦) Reinhard Bendix, Embattled Reason: Essays on social knowledge (New York, 1970).

داخل علم الاجتماع ذاته ، الذى يرفض الآن ان يكون هدفه ان يصبح علما وضعيا أو امبيريقيا بعد ان كان يرى فى (طبيعته العلمية) فضيلة • غير ان هذا الخوف كان مبالغ فيه ايضا • اذ انتهت الرومانسية ذاتهـــا فى التفكير والنظريات ـ حيث شكلت موجة جديدة من الخيـــال والشعور ـ وبدت الحركات الثقافية المعاصرة اكثر ميلا لمنح العلم توجيها جديدا بدلا من التخلى عنه كلية • وفى الحقيقة ، يمكن فهم هذه الحركات بقدر ما ، بمساعدة المفاهيم السوسيولوجية القائمة • وقد تنبأ ماكس فيبر (بتحرر متنام للعـــالم من الوهم) فى المجتمعات الغربية كنتيجة لاطراد التنظيم البيروقراطى للحيـــاة الاجتماعية وترشيدها • ويمكن النظر الى حركات التمرد والانسحاب التى نالفها اليـــوم كمحاولات لاستعادة (رومانسية الحيــــاة poetry of life ، فى المجتمعات الصناعية الدقيقة التنظيم ، عن طـــريق احيـــاء نماذج للعلاقات الاجتماعية تغلب عليها التلقائية ، والاستغراق ، والتعاطف الشخصى •

وبرغم ذلك فما زال من الممكن لبعض التاليفات العقلية الجديدة أن تبرهن على انها سوف تكون اكثر كفاءة على تفسير هذه التغيرات • ومن ثم فسوف يعاد رسم خريطة المعرفة مرة أخرى • وقد افترض مجلد مقالات رنســـــمان W. G. Runciman (٧)شيئـــا من هــــذا القبيل حتى لو بدا منذ الوهلة الأولى مبتعدا عن اى اهتمام بالأزمة ، عقلية كانت ام اجتماعية، لكونه بالأساس نتاجا لاستطلاع عقلى محايد بدرجة كاملة • ومما لا شك فيه ، أعتقد ان رغبة رنسمان فى وضع علم الاجتماع فى مكانه ، قد تأثرت بمؤثرين خارجيين • يتمثل احدهما فى حالة الفوضى الحالية المتعلقـــة بالموضوع ، حيث لم يجد له منهجا محددا أو مضمونا متميزا • وقد ناقش رنسمان ذلك بايجاز • ويتمثل المؤثر الاخر فيما يبدو لى ، فى حقيقة ان علم الاجتماع ، برغم هذا التنوع والتناقض الداخلى ، قد اكتسب اهمية عقلية مرموقة للغاية فى السنوات الأخيرة ، ليس أقل من كونه أخـــذ المصـــادر

---

(٧) W. G. Runciman, Sociology in its place and other essays (Cambridge, 1970).

الرئيسية للنقد الاجتماعي · وفي بعض الاعتبارات يبدو أن علم الاجتماع الآن يمثل المكانة التي كان يحتلها الاقتصاد السياسي من قبل ، باعتباره العلم الاجتماعي التي تحال اليه الموضوعات الهـــامة للعصر لتحليلها وتفسيرها ·

وتستمر مناقشة رنسمان ضد الوجود المستقل لعلم الاجتماع كعلم للمجتمع كما يلي ، فعلم الاجتماع ، كالتاريخ ، والأنثروبولوجيا عاجز عن تقديم قوانين عامة ، وينشأ هذا العجز من حقيقة انه لا توجد ولا يمكن أن توجد قوانين عن الانساق الاجتماعية على هذا النحو · ويعتبر علم النفس هو العلم الحقيقي للانسان الذي يعتمد عليه علم الاجتماع · ويمكن اعتبار علم الاجتماع ، على نحو اكثر ملاءمة (كما يذهب فرويد ايضـــا) كعلم نفس تطبيقي ، برغم أن رنسمان قد اضـــاف انه علم للنفس مضـــافا اليه التاريخ الاجتماعي ومن ناحية أخرى ، فبرغم اعتماد العلـــوم الاجتماعية المتخصصة كالاقتصاد ، والسكان ، وعلم السياسة على علم النفس ايضا ، فان بامكانها تأسيس قوانين غير دقيقة (لأنها تتناول نطاقا محدودا من الظواهر) ومن ثم فهي تحتل مكانة متوسطة في تدرج العلوم الاجتماعية ، بين علم النفس وعلم الاجتماع ·

وبالنظر الى هذه المناقشة فان علينا قبل كل شيء أن ننحي جانبا السؤال العام والمتعلق بمدى امكانية أو كفاءة أي نوع من التفسير السببي للفعل البشري · حيث انه اذا لم يكن ذلك ممكنا ــ اذا تطلب الأمر نوعـــا آخـــر من المعرفة أو التفسير ــ فان عجز علم الاجتماع حينئذ عن تقديم قوانين عامة سوف لا يميزه عن أي من العلوم الانســـانية الأخرى · وبدون الدخول في هذه القضية ، فانه يمكن القول ، حسب رنسمان ، بأن على علم النفس أن يوفر أساس البناء التفسيري بكاملة ، اذا كان قد قدم أيا من القوانين العامة ، أو بعضا منها (كما يسلم رنسمان بذلك) · وفي مثل هذا الموقف ، من الصعب أن نثق بأن اللجوء الى علم النفس يمكن أن يقود الى تفسيرات دقيقة ومقنعة للسلوك الاجتمـــاعي · وحينئـــذ ، فبالاستعانة بعبـــارة الفرد مارشـــال Alfred Marshall ، حينما كان مهتما بامكانية ادماج الاقتصاد في العلم الاجتماعي الأكثر عمومية ، قد

تقـــرر « أنه بالنسبة للوقت الحـــاضر فاننا ينبغى أن ننجز ما نستطيعه بمصادرنا الحالية » ·

ويدعم رنسمان وجهة نظره بعدم امكانية وجـود قوانين عامة عن الأنساق الاجتماعية بحجتين : حيث تشير الأولى الى امكانيـــة ارجاع التفسيرات المتعلقـــة بفاعلية الأنســـاق الاجتماعية الى التفسيرات السيكلوجية ·

« فلكى نفهم أصول الأنساق الاجتماعية ، وطريقة عملها ، فان علينا ان نفهم افعال وافكار البشر · وبصورة مؤكدة ، ســوف تعتمد هــذه التفسيرات بدرجة كبيرة على خصائص الأنســاق الاجتماعية التى يعتبر عضوا فيها ··· غير اننا من ناحية اخرى ، اذا تناولنا خصائص الأنساق الاجتماعية كمتغير مستقل ، حينما نكون بصـــدد الحديث عن خصائص الأنساق الاجتماعية ··· فاننا نتحدث عما يبدو ان البشر الأفراد يفكرون فيه او يقولونه او يفعلونه » ·

وما لم يوضحه رنسمان هو كيفية محاولة هذا الاسناد أو اجرائه فى حالات محـــددة ، وبالطبع لم يكن رنسمان قادرا على تحديد صـــلة التفسيرات السوسيولوجية بالقوانين السيكلوجية ، لأن الأخيرة لم تكن متيسرة · ويمكن توضيح الصعاب التى تثيرها هـــذه الاسنادات ببعض الأمثلة · اذ ناقش زيمل Simmel فى مقال له عن (عدد أعضاء الجماعة كمحدد لشكلها السوسيولوجى) بعض خصائص الأنساق الاجتماعية التى تبدو معتمدة بشكل محدد على حجم هذه الأنساق · وفى دراسة أخرى عن الصراع الاجتماعى نجده قد صاغ بعض القضايا العـــامة المتعلقة باثار الصراع على بناء الجماعات · ومن الصعب تبين كيف يمكن تحويل قضايا من هذا النوع الى قضايا سيكلوجية ·

وتتمثل الحجة الثانية التى يطرحها رنسمان لتوضيح عـــدم تيسر الوصول الى (قوانين عن الأنســـاق الاجتماعية) فى أن عدد المتغيرات التى ينبغى اخذها فى الاعتبار كبير للغاية ، وهنا نجده يتبع مناقشـــة

جون ستيوارت مل J. S. Mill الشهيرة التى تؤكد على « ان أسلوب انتاج كل الظواهر الاجتماعية يعتبر احد الحـــالات الهـــامة لامتزاج القوانين الاجتماعية » . وبرغم التوسع الكبير فى الأخذ بهذا القول ، فاننا يمكننا القول بأن احد الأسباب الرئيسية للصعوبة الهائلة التى تواجهها العلوم الانسانية ، بما فيهـــا علم النفس فيما يتعلق بصياغة اية تعميمات ذات قيمة ، يتمثل فى أن عدد المتغيرات التى عليها أن تتناولها كبير للغاية . وفى هذا الصدد ، فليس من الواضح . وجود خلاف اســـاسى بين علم النفـس ـ كعلم للأنســاق العقليــة ـ وعلم الاجتمــاع ، كعلم للأنســاق الاجتماعية .

ويمكن توضيح عدم حسم براهين رنسمان بأساليب أخرى . ففى المحل الأول نجده متسق كلية فى معالجته للنظرية السوسيولوجية ، فبينما هو يدعى فى مقالته الرئيسية بعدم امكانية وجود نظريات سوسيولوجية ، نجده يفترض فى موضع آخر وجود مثل هذه النظريات ، وان بعضهـــا افضل من البعض الآخر . ولذلك فهو يختتم مؤلفه بمقـــال عن البنـائية Structuralism بالقول : « انه لا يجب الادعاء بأنها تشكل نموذجا توجيهيا شاملا ، متماسكا ، وجـديدا للنظرية السوسيولوجية والأنثروبولوجية » . وفى مقـال له عن (الطبقة والمكانة والقوة Class, Status and power) نجده يكتب : « أن توقع نظرية عن التدرج الاجتماعى يعتبر بالطبـــع مسألة بعيدة ، فاذا كانت هناك امكانية لذلك ، فانها لابد أن تنتج منطقيا عن صدق التمييز الثلاثى الأبعاد ، والذى يعنى أن اية نظرية عامة تعتبر فعالة بالنظر اليه » . ولم يصرح رنسمان فى اى مكان أن البحث عن هذه النظرية أو أى نموذج توجيهى يعتبر جهدا ضائعا أو غير مشروع .

وثانيا ، يبدو أن ميله (فى المقالة الرئيسية) نحو العلوم الاجتماعية المتخصصة ، وعدم استساغته لعلم الاجتماع ، كان بالنظر الى قدرتها على تأسيس القوانين ، قد نشأ فى جانب منه عن نوع من سوء الفهم . فهو حينما يكتب مثلا عن علماء السكان الذين يؤسسون التعميمات عن معدلات المواليد ، فانه يشير فى الحقيقة الى تعميمات سوسيولوجية تصل معدلات المواليد بظواهر اجتماعية اخرى (كالمركز الاجتماعى للمرأة ،) او الأهمية النسبية للعائلة كوحدة انتاجية) وتفسرها بشكل مؤقت او ناقص بالرجوع

الى خصائص النسق الاجتماعى ككل ، (أو بالتمييز ، مثلا ، بين المجتمعات الصناعية والزراعية) ٠

ويوجز رنسمان فى نهاية مقالته الرئيسية رايه فى علم الاجتماع ، على نقيض حكمه على مكانته ، باعتبارات يمكن النظر اليهـا كتبرير لوجوده كعلم متميز ٠ ومرة ثانية ففى أعقاب تاكيده انه لا يمكن أن يكون علما مستقلا نجده يقـول « ٠٠ أنه برغم فائدة الشروح التصـويرية ، والتعميمات الوصفية والاكتشافات المحددة التى انجزت عنوان هذا العلم »٠ فانه نظرا لغياب القوانين ذات الدلالة التى يمكن أن تقدمها أى من العلوم الانسانية الأخرى ، فان هذه الاكتشافات والتعميمات ، وبأسلوب اشمل نماذجه للبناء الاجتماعى ، هى بالتحديد التى جعلت علم الاجتماع علما هاما ، وهى التى ظلت ترسخ تاثيره على العلوم الاجتماعية المتخصصة على مدى مائة سنة خلت ٠

٠ فاذا بدا علم الاجتماع الآن متجها نحو ازمة فليس ذلك لأنه قد فشل فى تاسيس قوانين ذات مستوى أعلى ، ولكن لأن كثيرا من تعميماته الوصفية ، ونماذجه وتفسيراته لم تعد كافية ، أما لأنها قد استنفدت قدرتها على تحقيق اكتشافات جديدة ، أو لأن الواقع الذى تنطبق عليه قد تغير الى حد كبير حتى انها لم تعد تبدو ملائمة ٠ وقد قدم رنسمان فى مواضع عديدة من كتابه كثيرا من الأفكار الهـامة فيما يتعلق بالعلاقة بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ ٠ ومن الواضـح أنه يؤيد التقارب بينها ، كما يؤيد الرابطة القوية بينها وبين ما يسميه بالنظرية السيكلوجية الفعالة ، غير انه لم يبتعد اكثر من ذلك لكى يحدد الشكل الذى ينبغى أن تتخذه النظرية التى تتأسس وفقا لهذه الأبعاد ، هذا الى جانب أنه لم يكن مهتما بمسألة الصلة التى ينبغى أن تكون بين هذه النظرية وبين الظواهر الاجتماعية والثقافية فى الوقت الحاضر ٠

وبرغم ذلك لا يختلف اسهام رنسمان فى هذا الصدد كثيرا عن اسهام بعض المفكرين الآخرين موضع الاهتمام فى هذه الدراسـة ٠ فقد خصص الفن جولدنر جزءا صغيرا للغاية من كتابه لمناقشة التطور المحتمل لعلم

الاجتمـاع فى المستقبـل · اذ لم يكن علم الاجتمـاع التأملى Reflexive sosiology الذى وضع مخططه مشجعا · ذلك لأنه بدا من ناحية وكأنه يكرر بشكل خافت علم اجتماع المثقفين الذى ساد فترة العشرينات لكارل مانهـايم Karl Mannheim بدون أبعاده الفلسفية · فى حين أنه من ناحية اخرى يقدم بعض النصائح الأخلاقية التى ينبغى أن نقود حياة عالم الاجتماع واسهامه كسياسى راديكالى · ويتمثل الأمر الأكثر اهمية والذى اغفله عن قصد فى افتراض موضوعات جديدة للدراسـة ومجموعة من الأفكار الجديدة الموجهة · ومن ثم فقد حقق فى النهاية عكس ما دافع عنه س · رايت ميلز فى بداية البحث الراديكالى ، فبـدلا من تحـويل المشكلات الشخصية الى قضايا عامة ، حول القضايا العامة الى مشكلات شخصية ، وذلك عن طريق نصيحته لعالم الاجتماع بأن يهتم ، عن انانية ، بقضية العلاقة بين كونه عالما اجتماعيا وبين كونه شخصا ، وأن يهتم بطبيعة علاقته بعمله ، ولا اعتقد أن هذه الاهتمامات قد ساعدت على التحليل النقدى للمجتمع أو يمكن أن تساعد عليه ، وانما هى اشارة لانتكاسة عقلية اكثر من كونها علاجا ·

ومن ناحيـة اخـرى ، أهتم بندكس Bendix أساسا بالدفاع عن التقاليد ـ التقاليد الغربية المتعلقة بالعقل والعلم ـ ضد ـ ما اعتبره ـ موجات الانفعال العاطفى التى تهـدد بالاطاحة بهـا · وفى رأيه « أن المسألة تتعلق بما اذا كان ممكنا فى ظل هـذه الظروف أن يبقى الدافع للبحث ، والاعتقاد فى التقدم من خلال المعرفة ، قويا بدرجة كافيـة » · وبالاضافة الى ذلك فهو لم يحاول بجدية أن يكشف عن مسـار جديد ، لتغيير وجهة نظر العلوم الاجتماعية ذاتها حتى تهتم بالمشكلات والادراكات الجديدة ·

ونجد فى مجلد درايتزل Dreitzel فقط اشـارة ما ، الاتجاهات جديدة · والى حد كبير تختلف المقالات التى جمعها فى هذا المؤلف من حيث الموضوع والمدخل عما كان سـائدا منذ حقبة سابقة · فهى لا تهتم (بالديموقراطية المسـتقرة) ولـكن بتجارب وامكانات (المشـاركة

الديموقراطية) . وهى لا تهتم بالحراك والمكانة ولـكن بالعـلاقات بين الطبقات ، وظهور قوى أو طبقات جديدة كقوى للنضال السياسى . وهى لا تهتم أيضا بالنظم السياسية والسلوك الانتخابى وانمـا بظهور حركات الاحتجاج الاجتماعى . وتظهر المقالات ، كما اشار درايتزل ، استعدادا لأن تعتمد على الأفكار الماركسية ، وايضا على تصور لعلم الاجتماع (كعلم للأزمة الاجتماعية ، لما كان على هذا النحو اصلا .

وما زالت الموضوعات الجديدة بعيدة عن أن تتكامل لتشـكل نظرة عامة للتحول الاجتماعى المعاصر ، وبقى السؤال مطروحا عما اذا كان من الممكن تحقيق ذلك . وقد يعتبر تصـور (مجتمع ما بعد التصنيع) الذى حـــدده ـ فى أحــد أشـكاله الان تورين Alain Touraine المحاولة الأكثر وعدا الى حد ما لتقديم اطار عام (وهى المحاولة التى عرض لها درايتزل Dreitzel بايجاز ، وان كانت برؤية نقدية) . أعنى تقديم فكرة ظهور شكل للمجتمع يساعد تقدم العلم فى اطاره على امكانية الغاء الندرة من مجال الحاجات الانسانية الأساسية ، ونقل العمل الصناعى من البشر الى الآلات ، ومن ثم تحويل النسق الطبقى وتغيير التوازن بين العمل ووقت الفراغ فى الحياة الاجتماعية ، غير أنه فى نفس الوقت المجتمع التى تزيد فيه المشكلات الناجمة عن التنظيم المركزى والبيروقراطى ، أو عن سيطرة النظرة التكنولوجية البحته ، والتى تؤدى الى ظهور أنواع جديدة للصراع الاجتماعى، انذرت به فعلا ظهور حركة الطلاب. فاذا تم تطوير هذا التصور بفعالية ، فانه قد يحتل المكانه المحورية التى كانت تحتلها فكرة الراسمالية الصناعية كنسق اجتماعى فى علم اجتماع القرن التاسع عشر . وقد يتبع ذلك بحث حقيقى للتفكير الاجتماعى فى اكثر اشكاله جدارة كنوع من التفكير المنظم فيما يتعلق باتجاهات التطور الاجتماعى فى المجتمعات الحاليـة ، وايضا فيما يتعلق بالخيارات السياسية التى تطرحها .

---

(٨) The Post industrial society (New York, 1971)
وقد اثيرت بعض الموضوعات المماثلة فى الفصل السادس لمؤلف Norman Birnbaum, The Crisis of industrial society (New York 1969).

حاشية

منذ نشرت هذه المقالة فى المرة الأولى اجاب الفن جولدنر على بعض انتقادات مؤلفه (علم الاجتماع التأملى Reflexive Sociology بدون أن يدرك جوهر النقد ، اذ يؤكد أن موقفه الآن هو « ... انكلمجتمع عبارة عن حقيقة اجتماعية تتكون الى حد ما بواسطة النظرية الاجتماعية السائدة ، ومن ثم يمكن فصــــل نقد المجتمع عن نقد النظرية ٠ وهـــذا بالتحديد افتراض ماركس ايضا ، كما يتضح من حقيقة أن نقده للمجتمع الحديث ، فى كتاب رأس المال Capital لتخـذ ايضــا عنوانا فرعيا (نقـــد الاقتصــــاد الســياسى A Critique of political economy) الذى يعنى نقد النظرية الاقتصادية(٩) ٠ غير أن ذلك لم يكن على الاطلاق وما كان جولدنر يناقشة فيما سبق حينما جعل تحول عالم الاجتماع ذاته ، والعلاقة بين كونه شخصا وبين عالم للاجتماع محور لتصوره عن علم الاجتماع التأملى(١٠) ٠ وبرغم ذلك فقد ابتعد ماركس عن الانغماس فى هذا التفكير التأملى ، حيث شرع فى دراســـة التطور الموضوعى للنظام الرأسمالى فى القرن التاســـع عشر ، وبالمثـل الأيويولوجيا الموضوعية للمجتمع الرأسمالى كما تكشف عن نفسها (فى التشيؤ اليومى للسلع) وفى نظريات الاقتصاد السياسى الكلاسيكى رفيعة المستوى ٠ ويعتبر جهد كارل ماركس لتأسيس نظرية واقعية ودقيقة عن المجتمع الحديث على طرف نقيض لذاتيـــة جولدنر الرومانسية التى ترفض كـلا من جوهر ومنهج النظرية السوسيولوجية باعتبارها غير هامة ، وتتركنا مع مجرد (تصورات) شخصية(١١) ٠

---

(٩) Alvin Gouldner, For Sociology: Renwal and Critique in sociology today (London, 1973), P. 84.

(١٠) Gouldner (1970), OP. Cit, P. 415.

(١١) Lbid., P. 495.

الفصل الرابع

التنميـــــة

بين الراسمالية والاشتراكية

. تميزت دراسات التنمية فى السنوات الأخيرة باحساس من الكآبة وعدم الوضوح · اذ اتسمت نهاية عقد التنمية الأول للأمم المتحدة بفيض من التقارير(١) التى دفع اليها الى حد كبير احساس كامل بالفشل · ومع ذلك فقد عبرت هـذه التقارير عن رؤية معتدلة التفاؤل بالنسبة لتطورات التنمية فى السنوات العشر التالية برغم كونها متحفظة ونقدية اذا قورنت بالرؤية المتحمسة لحقبة الخمسينات ·

وفى الفترة التالية للحرب مباشرة ، حينما أصبحت فكرة الأقطار (المتخلفة underdeveloped) و (النامية developed) واضحة التحديد

---

(١) فى هذا الصدد توجد ثلاثة تقارير اساسية : تقرير بيترسون Peterson, Robert: Us. Foreign Assistance in the 1970: AnewApproach وهو تقرير مرفوع الى الرئيس من قبل مجموعة عمل عن التنمية العالمية واشنطون ، ١٩٧٠ · ثم تقرير جاكسون R. G. Jackson (مجلدين) وهو موجه الى ادارة UNDP بعنوان A Study of the Capacity of The United Nations Development System (Geneva, 1969) ثم تقرير بيرسون Pearson بعنوان شركاء فى التنمية Partners in developmen وهو تقرير لجنة البنك الدولى عن التنمية العالمية (نيويورك ١٩٦٩) · ويعتبر اكثر التقارير نقدية ذلك الذى اعدته من اقطار امريكا اللاتينية لجنة التنسيق الخاصة بامريكا اللاتينية The Vina deLMar (Report, Chile, 1969 ، وقد تم تحليل هذه التقارير واخرى غيرها من منظورات مختلفة تماما فى مجموعة الدراسات الأخيرة التى اجراها دينيى جولت Denis Goulet وهدسون Michael Hudson تحت عنوان (خرافة المساعدة The Myth of Aid (نيويورك ١٩٧١) ص ص ١٢ ـ ٦٤ · وفى مؤلف (التنمية فى عصرنا (development to day ، لكل من روبرت هنتر Robert E. Hunter وجون ريلى John Riely (نيويورك ١٩٧٢) ص ص ٦١ ـ ٦٩ ·

فى العلوم الاجتماعية أولا ثم فى السياسة الدولية ، أدركت قضايا التنمية فى جانب كبير منها بالنظر الى اعتبارات اقتصادية بسيطة نسبيا • وقد شجع على هذه النظرة عاملان : حيث يتمثل الأول فى تجربة النمو الاقتصادى القوى فى الأقطار الصناعية الغربية فى مقابل الكساد الاقتصادى فيما قبل الحرب ، بحيث خلق ذلك فى منتصف حقبة الخمسينات اعتقادا بانه الى حد كبير تم حل المشاكل الاقتصادية ، على الأقل من خلال التبنى الجزئى للسياسات الكينزية **Keynesian Policies** وقد عبرت بشكل مناسب مؤلفات مثل مجتمع الوفر **Affluent society** لجالبريث **J. K. Galbraith** ومؤلف روستو **Rostow** مراحل النمو الاقتصادى **The stage of Economic Growth** عن هذا الاعتقاد • وطالما ان الاقطار النامية هى المقصودة ، فان المعنى الضمنى لذلك انها تستطيع ان تتجاوز التخلف الاقتصادى بسرعة نسبية عن طريق الادخال المتعمد لرأس المال والتكنولوجيا اللذين تيسرهما المساعدات العالمية •

ويتمثل العامل الثانى فى تأكيد نجاح مشروع مارشال **Marshall Pdan** ، الذى حقق اعادة البناء السريع لاقتصاديات أوربا الغربية ، الثقة فى كفاءة المساعدة الأجنبية • بيد أن مشروع مارشال كما أشار تيبور مند **Tibor Mende** تضمن اصلاح مجتمعات حديثة ذات انتاجية عالية دمرتها الحرب بشكل مؤقت • فقد امتلكت هذه المجتمعات الوسائل والقدرة التنظيمية والمصادر البشرية التى تحتاجها لاعادة بناء رخاء ما قبل الحرب(٢) فى حين توجد معظم الأقطار النامية فى موقف مختلف تماما ، ومن ثم يصبح مشروع مارشال بمعنى ما ، نموذجا مضللا لتنمية الأقطار الزراعية اساسا بواسطة المساعدات الأجنبية ، التى ادت الى تركيز انتباه وكالات التنمية ومستشاريها على القضايا الاقتصادية فى حين أغفلت السياقات الثقافية والسياسية والاجتماعية للتنمية(٣) •

---

(٢) **Tibor Mende, From Aid to recolonization : Lesson of a Failure (New York, 1973),. P. 36.**

(٣) بالرغم من حقيقة أن مشروع مارشال له هدف سياسى واضح يتمثل فى اعادة بناء أوربا الغربية كدفاع قوى ضد الشيوعية فى اطار ظروف الحرب والباردة ، واستمرار هذا

وبطبيعة الحال ، لم يحدث تجاهل كلى للجوانب الأساسية للتنمية · فحسبما لاحظ مند Mende اكدت مجموعة من الخبراء عينهـا السكرتير العام للأمم المتحدة لتحديد أهداف ميثاق الأمم المتحـدة بالتفصيل ، فى تقريرها لعام ١٩٥٠ بشـدة على المستلزمات البنائية للتنمية ، بيـد أنه فى العقدين التاليين ازدهر التحليل الاقتصـادى والكمى للتنمية ، فى حين نال موضوع التغير البنـائى والثقـافى اهتماما اقـل ، على الأقـل فى الوكالات الحكومية والدولية(٤) ، هــذا بالاضـافة الى تاكيـد بعض الدارسين على الاطار الأشمل ، مثل جونار ميردال Gunnar Myrdal الذى وجه الانتباه الى أهميـة العلاقات السياسية والاقتصادية المتبـادلة بين الأمم الفقيرة والغنية(٥) وارثر لويس Arthur Lewis الذى ظـل مهتما بالعوامل الاجتماعية للتنمية فى واحـدة من اكثر تناولات هذا الموضوع تماسكا(٦) وبول باران Paul Baran الذى حدد ما يعتبر فى ذلك الوقت تحليلا ماركسيا آخر للنمو الاقتصادى(٧) ·

ويستند التفاؤل الحذر لبعض الدراسات الحديثة مثل كتاب روبرت ماكنمارا Robert McNamara الى ثلاثة اعتبـارات : الأول أن الأقطـــار الفقيرة تزيد من اجمالى دخلهـا القومى بمعدل ٥ر٢٪ سنويا خلال الفترة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٨ · وذلك لصالحها اذا قورن بانجازاتها السابقة أو بهدف

=

الهدف السياسى يلعب دورا هاما فى سياسة المساعدات الأمريكية غير أنه نوقش باستفاضة فى السنوات الأخيرة فقط فى اطار الدراسات التى تمت من عمليات التنمية الشاملة ·

(٤) حيث كـان عنـوان التقـرير الذى Mende, Op, Cit Pp. 32 - 34

نشرت الأمم المتحدة (مقاييس التنمية الاقتصادية ١٩٥٠) ·

(٥) Gunnar Myrdel, Economic theory and underdevelopment Regions (London, 1957).

(٦) W. Arthur Lewis, The theory of economic Growth (London, 1955).

(٧) Robert S. McNamara, One Hundered Countries, two Billion people (New York, 1973).

وهى عبارة عن تجميع لتصريحات ماكنمارا المعلنة حينما كان رئيسا للبنك الدولى ·

الأمم المتحدة لهذا العقد • والثاني أنه من الممكن زيادة المساعدات الأجنبية ، لتصبح أكثر فعالية ، ومن ثم تساعد على زيادة النمو بمعدلات أعلى • والثالث أن وسائل تجاوز المشكلات الأساسية (بما فيها النمو السكاني السريع) موجودة ويمكن استخدامها •

بيد أن كل هذه الأحكام مطروحة للمناقشة • اذ يخفي متوسط معدل النمو خلال حقبة الستينات اختلافات واضحة بين الأقطار • فمن بين ٦٠ دولة درسها كلارك Clark (٨) على أنها (أقل نموا) حققت عشرة منها معدلات عالية من الزيادة في الناتج القومي الاجمالي G. N. P • بينما نصفها حقق معدلات زيادة أقل من ٥٪ سنويا • وحينما يؤخذ النمو السكاني في الاعتبار فان عشرة أقطار فقط من قمة مجموعة هذه الدول حققت زيادة في متوسط نصيب الفرد من الناتج القومي الاجمالي Per Capita G. N. P بحوالي ٤٪ أو أكثر سنويا • بينما كان متوسط الزيادة لكل الأقطار الستين حوالي ٢ر٧٪ • وطالما أن نصيب الفرد من الناتج القومي الاجمالي قد نما بالنسبة للدول الغنية خلال نفس الفترة بمعدل ٣ر٨٪ سنويا ، فان الفجوة بين الأقطار الغنية والفقيرة تستمر في الاتساع •

وتدعي معظم وكالات التنمية (وبخاصة البنك الدولي) أو تفترض أن المساعدات الأجنبية قد دعمت معدل النمو الاقتصادي في الأقطار الفقيرة بشكل واضح ، وأن زيادة هذه المساعدات خلال حقبة السبعينات قد يؤدي الى رفع معدل النمو أكثر من ذلك • غير أن هذا الاتجاه قد تعرض باطراد لنقد حاد ، من وجهات نظر متضادة • حيث ترى الانتقادات الراديكالية في المساعدات ، الوسائل التي تبقي بها الأقطار الصناعية الكبيرة ، الأقطار الفقيرة في حالة من التبعية ، ومن ثم تعوق التغيرات التي تتطلبها بناءاتها الاجتماعية وأنساقها السياسية ، ومن ثم تؤدي الى تبطيء عملية التنمية • وفي نفس الوقت تضمن الأقطار

---

(٨) Paul G. Clark, American Aid for development (New York, 1972) PP. 22 - 23.

الصناعية لنفسها بعض الفوائد كالحصول على المادة الخام ، والأسواق، وفرص الاستثمار ذات العائد ، هـذا الى جانب تعزيز سيطرتها السياسية ومدها على جزء كبير من الكرة الأرضية · ولذلك فقد وصل ميشل هدسون Michael Hudson من تحليلة لتوصـيات تقرير بيترسـون Peterson ودور البنـك الدولى أنهـا تشكلت أساسا بالمصلحة الذاتيـة والقوميـة للولايات المتحـدة ، وخاصة بالرغبـة فى تخفيض الضغوط المتصـاعدة على ميزان مدفوعات الولايات المتحـدة : « اذ عملت عمليات البنك الدولى خلال السنة الاولى لتوليـة ادارته على تمويل عمليات المؤسسة العسكرية للولايات المتحدة التى كان قـد تركها لتوه »(٩) · وبصفة عامة فقد برهن هدسـون على أنه قـــد كان للمساعدات الأجنبيـة فى كثير من الحالات تأثير عكسى على النمو الاقتصادى · وتلاحظ دراسة أجراها كل من جرفن Griffin واينوس Enos (١٠) والتى أسـتند اليهـــا هدسـون ، أن معدل نمو الناتج القومى الاجمالى لاثنى عشـر قطرا فى أمريكا اللاتينية يتناسب عكسيا ومعدل المساعدة الأجنبية ، ومن ثم فقد أستنتج « ·· أن المساعدة قد تعوق التنمية لأنهـا تؤدى الى تضاؤل المدخرات المحلية عن طريق الاضـرار بتركيب الاستثمار ، ومن ثم ترفع نسبة ناتج رأس المال ، ولأنها تقلل من فرص ظهور طبقة محليـة لرجال الأعمال ، الى جانب أنها تعوق الاصلاحات التنظيمية »(١١) · ويستمر هدسون ليـؤكد أن من أهم النتـائج العكسية للمساعدة ، أن الظروف السياسية المرتبطة بهـا تمنع التدابير لعزل الاقتصاد النامى ، أو تعبئة المصادر المحلية(١٢) ·

وقد أكد تيبور مند Tibor Mende نفس القضية ، حيث افترض وجود ثورة متنامية فى الأقطار الفقيرة ضـد التبعية ، وضد اجبارها على الحياة داخل النطاق التجارى للدول الغنية ·

---

(٩) Goulet and Hudson, Op. cit., P. 107.

(١٠) K. B. Griffin and J. L. Enos, (Foreign Assistance : Objectives and Consequences, Economic development and Cultural Change, 18 (April 1970).

(١١) Ibid, P. 326.

(١٢) Goulet and Hudson, Op. cit., PP. 122 - 123.

« وللخروج من هـذه الدائرة المفرغة واستعادة الهـدية المفقودة ، واحترام ـ الـذات ، فانه ينبغى تغيير التوجيـه السـياسى للتنميـة الاقتصادية · فبـدلا من تطلعها للخارج فانها يجب أن تتجه الى الداخل ، وان تهتم أساسا بحـل المشـاكل المحليـة بدلا من الاهتمـام بمواجهـة المشـكلات التى تتخلق نتيجة للاتصال بالعالم الصناعى · ومن ثم ينبغى التخلص من علاقات المساعدة المؤدية الى الفسـاد · وان تنتهى ظواهر كالتكامل مع السوق العالمى ، والاعتماد على رأس المـال الأجنبى ، وكل التفكير الاقتصادى الذى يؤكد على ثبـات العلاقة بين الشمال والجنوب · وبـدلا من ذلك فعلى كل قطر ان يكتشف طريقـه الى التنمية ، اذ ينبغى ان يكون هناك تجريب لاستخدام الطرق المحلية والاعتمـاد ايضـا على المصادر المحليـة · يجب أن تمهـد التغيرات البنـائية ايضا الأسـاس للمشـاركة الشعبية فى الأعمـال البناءة ، وجهود الادخار الاكثـر ، والاستثمار الرشـيد فى الأولويات ··· اذا كانت ضـرورية ، وايضـا ينبغى الا يكون هناك تردد فى دفع ثمن هذا الانعزال »(١٣) ·

ويستمر مند ليؤكد أن هـذه البرهنة غير ملائمة وليست واقعية · « ففى حالة امريكـا اللاتينية مثـلا ، وهى المنطقة الوحيـدة المتخلفة والحرة فى ذات الوقت من السيطرة الأجنبيـة المباشـرة ، عجلت ثلاث فترات (حيث قطعت الروابط مع الأقطار الصناعية المتقـدمة) من حدوث التغيرات البنـائية ، والتصنيع السريع ايضـا · وتمثلت هـذه الفترات فى الحربين العالميتين وسنوات الكساد الاقتصادى · اذ وقعت مراحـل الترسع السريع فى التنميـة الصناعية لـكل من الأرجنتين Argentina والبرازيل Brazil والمكسيك Mexico وحتى فى شيلى Chile خـلال هـذه الفترات ، حيث اتضح ان تفكك الروابط القائمـة مع الاستثمار التجـارى كان لصالح التصنيع المستقل والنمو الاقتصـادى السريع · وقـد تأسست مواقف مماثلة للتحرر من التدخل الأجنبى ، وتوفير الحماية للصناعات الناشئة ، وتقـديم الحوافز للتجربة ، وتحمل المخاطرة ، عن

---

(١٣) Mende, Op. cit., PP. 203 - 204.

طريق العزلة الاختيارية لليابان أولا وروسيا والصين أخيرا · وبرغم أن الأهداف الاقتصادية فقط قد لا تبدو أنها الدوافع الأساسية ، فمما لا شك فيه ، أن نتائجها بالتأكيد هي المؤثرة »(١٤) ·

وهكذا تؤكد الانتقادات الراديكالية على الجوانب الاجتماعية والسياسية على نطاق عالمى ، وهو ما يتناقض مع ما يمكن تسميته بالسياسة الرسمية لوكالات التنمية وكثير من مراكز دراسات التنمية التى مازالت تركز أساسا على تحليل العوامل الاقتصادية والتكنولوجية(١٥) · وتتضح أهمية العنصر السياسى حينما نفحص بدقة أسلوب توفير المساعدات الأجنبية · اذ نجد أن معظم المساعدات فى المحل الأول ذات طبيعة عسكرية أو استراتيجية عامة · وتقدر المساعدات العسكرية بأكثر من نصف المعونة الأمريكية الخارجية ! وكما يلاحظ ميشيل هدسون فان هذه (المعونة الأمنية) لم تشجع التنمية الاقتصادية فى الأقطار المتسلمة لهـا بنفس القدر ، (ولكنها فرضت عليها أعباء اقتصادية مكلفة ومدمرة اجتماعيا(١٦) ·

وثانيا ، فحتى فى حالة المساعدات الاقتصادية فقط ، فان الاعتبارات السياسية يكون لهـا تأثير · فقد دلل تريزا هايتير Teresa Hauter بشكل مقنع على استناد سياسات المؤسسات

---

(١٤) Ibid, PP. 204 - 205.

(١٥) كما يطلق ميشيل هدسون Micheal Hudson : « كان ماكنمار صامتا بشكل يثير الفضول فيما يتعلق بكل جوانب التحول الاجتماعى ـ الاقتصادى · باستثناء تنظيم النسل (والثورة التكنولوجية) Goulet and Hudson op. cit., P. 124

وكما نتوقع فسوف تكون هذه أيضا طبيعة تقارير البنك الدولى ، انظر على سبيل المثال Economic Growth of Colombia: Problems and Prospects (Baltimore, 197), وذلك لا يعنى أن وجهات النظر الرسمية محايدة سياسيا ، وانما هى تفترض دوام الحالة الراهنة فقط ·

(١٦) Coulet and Hudson, Op. cit., P. 78.

من بين الأقطار العشرة التى سجلها كلارك على أنها تمتلك أعلى معدل فى زيادة اجمالى الناتج القومى G. N. P. من الواضح أن ستة فقط هى التى استفادت : تايوان ، اليونان ، كوريا ، اسرائيل ، بنما ، وتايلاند · اذا اعتبرنا ذلك مثالا للمساعدات الاستراتيجية الضخمة ·

الدولية للتنمية (صندوق التمويل الدولى ، والبنـــك الدولى ، ووكالات التنمية الدولية للولايات المتحدة ، وبنك التنمية الأمريكى الدولى) على مدى قبول هيكل العالم الراسمالى الموجود على المستوى القومى أو الدولى وتاييده ··· اذ يوجد تأكيد قوى من قبل مطالب وسياسات الوكالات على مبادىء المشروع الحر ، والاعتماد على ميكانيزمات الســوق ، واحترام الثروة الخاصة المحلية والأجنبية بخاصة(١٧) · ويوضح التاريخ المأساوى لشيلى بصورة واضحة أسلوب عمل هذه المؤسسات · اذ واجهت حكومة الوحـــدة الشـــعبية للرئيس الليندى Allende كثيرا من الصعاب خلال فترة حكمها ـ كالديون الخارجية الضخمة التى ورثتهـــا عن الحكومات السابقة ، وانخفاض الأسعار العالمية للنحـــاس ـ مادة التصـــدير الرئيسية ـ الى جانب انها بلا شــك وقعت فى بعض الأخطـــاء المتعلقة بالسياسة الاقتصادية · وقد تزايدت صعوباتها بشكل هائل وعن عمـــد بسبب افعال الحكومة الامريكية ، والبنك الدولى ، وبنك التنمية الأمريكى الدولى ، وعدد من البنوك الخاصة ، وقطع القروض الأجنبية · وبرغم ذلك استمرت الولايات المتحدة الأمريكية فى امدادها بالمساعدات العسكرية، بغض النظر عن اعتبار ذلك استثمارا جديرا بالاهتمام ؛ كما اتضح ذلك ، على الأقل على المدى القصير ، حينما قضت مجموعة من القادة العسكريين المغربين على الحكومة الشرعية واستولت على الحكم فى سبتمبر ١٩٧٣ · وبمرور الوقت ، فى أعقاب الانقلاب الذى وضع نهاية للنظام السياسى الديموقراطى لشيلى ، بدأت وكالات التنمية ، والبنوك الخاصة وبعض الحكومات (وبخاصة الأمريكية) تغير من سياساتها بعجلة فجة ، وان تنظر بتاييد اكثر الى الامداد بالمساعدات مرة ثانية ·

وقد وجه اليمين ، مثل اليسار ، النقد الى المساعدات الأجنبية · وقد ظهرت أحد أشكال الحجج المحافظة ضد المساعدات الأجنبية فى مجموعة

---

(١٧) Teresa Hauter, Aid as Imperialism (Harmondsworth, 1971) PP. 151 - 152.

المقـــالات الأخيـرة التى كتبهـا باور P. T. Bauer (١٨) · اذ كانت صفحات هذا المؤلف السياسى الدعائى البالغة ٥٥٠ صفحة اقل اتجاها الى قضايا الأقطار الفقيرة فى حد ذاتها ، منها ضد ما يعتبره باور محاولة علماء الاجتماع الليبراليين والراديكاليين لتشجيع تخطيط اقتصـــادى شامل تحت مظلة الامداد بالمساعدات الأجنبية وانتشـــار اعتقاد خاص يتعلق بأسلوب تأسيس تنمية أكثر فعالية من خلال ذلك ، ويستند هـذا الاعتقاد كما يعتقد ، على وجهة النظر المشتقة من وجود فجوة تتسع بين الأقطار الفقيرة والغنية · وبرغم ذلك يبرهن باور على عدم صدق فكرة الـــدائرة المفـــرغة Vicious Circle لأن الأقطار الصناعية المعاصرة افلتت من فقرها السابق بدون مساعدة ذات قيمة من الخـــارج ، ومرة أخرى استطاعت بعض الأقطار النامية تحقيق تقدم اقتصادى سريع فى العقود الأخيرة من خلال الاعتماد على جهودها الذاتية الى حد كبير ·

فاذا ثبت زيف فكرة (الدائرة المفرغة) فهى ضرورة حينئذ لوجود (اتجاه عام ، نحو اتساع الفجوة بين الأقطار الغنية والفقيرة) ، ويستمر باور لفحص هذه المسألة بتفصيل اكثر حينما يؤكد انتفاء وجود انقســام حاد بين الأقطار الفقيرة والغنية ، ولكن يوجد متصل من اجمالى الناتج القومى G. N. P. وفضلا عن ذلك ، ففى اى حالة توجد مجموعة من الصعوبات الكبيرة فى وجه اجراء المقارنات الدقيقة بين مستويات المعيشة فى مختلف الأمم · واخيرا ، فانه من المستحيل تبين اى اتجاه عام لاطراد التفاوت ، ونحتاج لدراسة قضية (الفجوة) عبر فترات زمنية محددة ·

غير أن قضايا باور وحججه لم تكن مقنعة ، فكما اعلم لا تمثل فكرة (الدائرة المفرغة) قانونا حديديا من أى نوع ، وانما تصف اتجاها فى عالمنا المعاصر(١٩) · ولا يمكن تزييف الفكرة بالاشارة الى تنمية الأقطار

---

(١٨) P. T. Bauer, Dissent on development, Cambridge, Mass. 1972).

(١٩) حسبما اشار جونار ميردال Gunnar Myrdal يمكن الكشف عن هذا الاتجاه ايضا فى بعض الأقاليم داخل الأقطار الصناعية ، وذلك هو السبب فى وجود تسهيلات كوالجهة

=

الصناعية المعاصرة منذ القرن السادس عشر فصاعدا ، وهى التنمية التى حدثت فى ظروف مختلفة تماما(٢٠) أو الاشارة الى الحالات الاستثنائية للأقطار الفقيرة التى كان فى قدرتها أن تنمو بسرعة فائقة(٢١)٠ ويتمثل كل ما تؤكده فى أن معظم الأمم الفقيرة تواجه ، فى عالم تنظمه الأقطار الصناعية من الناحية الاقتصادية وتسيطر عليه ـ الأقطار الراسمالية الغربية أساسا ـ صعوبات كبيرة فى محاولتها الهرب من الفقر الذى تعيشه منذ وقت طويل ، ومن ثم يوجد ميل قوى لتكاثر هذا الفقر ٠

وبالمثل تعتبر ملاحظات باور عن (الفجوة المتسعة) مضللة ٠ اذ يوجد فصل حاد ينبغى أن يتضح بين مجموعة صغيرة من الأقطار الغنية (التى يسودها نصيب الفرد من اجمالى الناتج القومى بنحو ٢٥٠٠ دولار أو يزيد) وعدد كبير من الأقطار الفقيرة (التى يسودها متوسط نصيب الفرد من اجمالى الناتج القومى بين ٨٠ ـ ٣٠٠ دولار) بالاضافة الى وجود بعض الأقطار من النطاق المتوسط بالنسبة لاجمالى الناتج القومى لا تستطيع تغيير الصورة العامة ، فهى لا تستطيع أن تغيرها بأكثر من

=

(تنمية مناطق معينة) فى بريطانيا ، وسبب تبنى المجتمع الأوربى لسياسات التنمية الاقليمية ورصده مبالغ لها ٠ (ومن الناحية المثالية) يمكن النظر الى المساعدات الأجنبية للتنمية فى بعض الاعتبارات كامتداد لهذه السياسات عبر العالم ككل ، اذا ادركناه كمجتمع واحد ٠

(٢٠) ينبغى أن نلاحظ ايضا استحالة حدوث هذه التنمية بدون العون الخارجى ، وقد لعبت الأرباح من السيطرة الاستعمارية (احد اشكال المساعدات الأجنبية المفروضة) دورا معينا فى هذه العملية ، ومن وجهة نظر بعض الكتاب مثال (Baran, op. cit.) دورا اساسيا ٠

(٢١) كما اشرت ، نتج ذلك فى بعض الحالات عن المساعدات العسكرية الضخمة التى ظهرت على اثرها مشكلات اخرى ، منها الاضرار بالاقتصاد وظهور تفاوتات شاسعة داخل المجتمع وفى بعض الحالات الأخرى لعبت الصدفة دورا بالغ الأهمية ، اذ نتج الارتفاع السريع فى اجمالى الناتج القومى لأقطار الشرق الأوسط المنتجة للبترول ببساطة عن امتلاكها لمصدر طبيعى يوجد طلب مرتفع ومتزايد عليه ٠ وهنا ايضا نجد نموذجا خاصا للنمو الاقتصادى يفرض مشاكل جديدة ، تتعلق بتاسيس اقتصاد اكثر توازنا يحقق الرخاء على المدى الطويل ، ويقضى على التفاوتات الكبيرة ، وينبغى ان نلاحظ ايضا انه بينما يفيد السعر المرتفع للبترول مجموعة من الأقطار النامية ، فانه الى حد كبير ، يضاعف من صعوبات مجموعة اخرى ، كالهند التى تعتمد على واردات كبيرة من البترول اللازم لتنميتها الاقتصادية ٠

تغيير شكل التقسيم الذى يقتضيه وجود شرائح متوسطة Middle strata بين مـــلاك الثروة (الأثرياء والطبقـــة العـــاملة) وحينمـــا تكون الشرائح المتوسطة كبيرة للغاية فانه يصبح من الضرورى حينئذ أن نهتم بمدى لزومية شكل مختلف للبناء بكاملة ، ومن الواضح أن الحالة ليست كذلك بالنسبة للاقتصاد الدولى ٠

وحينئذ يقدم باور عنصرا اخر فى المناقشة بالتمييز بين (الدخـــل income) (والرفاهيـــة welfare) مفترضا أن التفـــاوت الواضح فى الأول لا يعنى تفاوتا فى الثانى ، وذلك يرجع بنا الى العقيدة المألوفة من قبل الاقتصاديين المحافظين فيما يتعلق بالمنفعة أو الاشباع ٠ اذ استخدم هذا الاعتقـــاد فى وقت ما فى مواجهة ســـياسات الرفاهية الاجتماعية فى المجتمعات الرأسمالية الصناعية ذاتها ، ولكننا لم نعد نسمع عنها كثيرا حتى انبعاثها الأخير والمفاجىء فى هذا الشكل الجديد كجزء من البرهنة التى تحاول أن توضح انه ليس هناك داع للخوف كثيرا فيما يتعلق باعادة توزيع المصادر بين الأقطار الغنية والفقيرة(٢٢) ٠

وبعد صياغة باور لانتقاداته بنوع من التفصيل نجده قد أوضـــح تصوره لمـــا هو هام فى التنمية بايجاز اكثر ، فالتنمية الاقتصادية كما يؤكد تعتمد بالأساس على استعداد البشر واتجاهاتهم وأيضا على طبيعة نظمهم السياسية والاجتماعية (ص ٧٥٠) ، ويشبه ذلك فى مظهره وجهات نظر النقد الراديكالى لســـياسات التنمية الرسمية ٠ غير أن ما يعنيه باور بالاتجاهات والاستعدادات الملائمة والمواقف المناسبة شىء متميز تماما ٠ فهو مقتنع باهمية الفردية ، والمنافسة الصناعية ، ونمو السوق التجارى ٠ وقد أكد باور فى دراساته الحالية التى ضمنها كتابة عن غرب أفريقيا،أهمية تنمية التجارة ، انتقد القيود التى فرضت على النشاط التجارى للمشروع الحر ، غير أنه كان أبعد ما يكون عن التفكير فى اطلاق الاستعدادات أو

---

(٢٢) يعبر باور Pauer من هذه الفكرة فى بداية الكتاب بملاحظته أن التقدم المادى لا يحقق بالضرورة السعادة ، والكبرياء ، والحساسية ، والتناغم (ص ٣٦٠) وبالتأكيد ، ينبغى توجيه هذا التعليق الى امم الوفرة Affluent والثراء prodigal منه الى الأمم الفقيرة ٠

الطاقات الجديدة ، أو اعادة تشكيل النظم بواسطة حركة ثورية أو قومية يمكن أن تؤسس تنمية مخططة للمصادر القومية · بل على العكس نجد أن التخطيط الاقتصادى الشامل الى جانب المساعدة الأجنبية كانت أحـــد الأهداف الأساسية لهجومه : « ··· فالتخطيط الشامل لا يزيد من المصادر ولا يحدث عقـــول البشر ، ولكنه يضخم من السلطة ويركزها · فهـــذه السياسة ليست شرطا للتقدم أو وسيلة مادية له · وفى الحقيقة فانها قد تعوقه ، وبخاصة فى الأقطار الفقيرة لأنها تتناقض وتحرير الفـــرد من الخضوع للسلطة التى تشجع مؤهلات النجاح المادى » (ص ٥١٢) · ومن الواضح أن ذلك ليس حقيقيا ، فقد حقق الاتحاد السوفيتى ، وحديثا جدا الصين (التى نادرا ما يذكرها باور) نموا اقتصاديا سريعا ، على الأقل جزئيا بسبب الآثار الرئيسية والتحريرية لثوراتها(٢٣) · وفى مكان اخر من الكتاب يقلل باور من قيمة أى نوع لتدخل الدولة ، منتقدا جونار ميردال G. Myrdal حـول افتراضه (أن التقـدم الاقتصـادى يعتبر الى حد كبير موضوعا لسياسة الحكومة) ويستمر باور فى القول (انه ليس واضحا طبيعة نوع التدخل التى تستطيع به الحكومات المستقلة ذات الكفاءة التعجيل بتنمية آسيا وافريقيا فى القرن الثامن عشر أو التـاسع عشر) (ص ٤٥٦) · ومع ذلك ، توضح حالة اليابان بصورة جيدة بدرجة التدخل القادر على تحقيق هذه النتيجة ·

وتعتبر المساعدة على انتاج الاقتصـاد الرأســمالى والعــلاقات الاجتماعية الرأسمالية فى المناطق النامية من العالم هى الهدف السياسى الكامن وراء مقالات باور · ومع ذلك تؤكد بشدة بعض الانتقادات المحافظة لكل من المساعدات والتنمية ، الحاجة الى الابقاء على السيطرة الحالية للرأسمالية الغربية وبخاصة الأمريكية أو توسيعها · ومثالا لذلك يؤكـد

---

(٢٣) فى اعقاب الفترة الأولى للتصنيع تظهر مجموعة من المشاكل نتيجة للتخطيط الشديد المركزية ، غير انه يصبح من الممكن تجاوز كثير من المشاكل عن طريق اللامركزية فى إطار خطة شاملة · وقد نوقشت هذه القضايا بدرجة عميقة للغاية فى مؤلف بروس ·
W. Brus,: Economics and Politics of Socialism, (London, 1971).

حديثا صامويل هنتنجتون Sammuel Huntington وهـــو المعـروف باسهاماته فى التفكير الاستراتيجى الأمريكى فى فيتنام وأماكن اخرى ، (الحاجة الى تجزئة برامج المساعدة الحالية بالنظر الى اغراضهـــا ، وتأسيس برامج جديدة تعكس المصالح المتصاعدة للولايات المتحـــدة فى الاحتفاظ بالعالم)(٢٤) ٠ ويذهب انتقاد اخر لسياسات المساعدة الأمريكية الى أن اهمال اقطار العالم الثالث (يشير الى ذلك المســـتوى المنخفض والمتضائل لمساعدات الولايات المتحدة) يضر بالمصالح الاقتصادية الأمريكية وأن الحاجة ماسة الى سياسة جديدة اكثر فعالية وذات طابع تعاونى ، تستطيع تأمين الحصول على الأسواق ، وفرص الاستثمار الأفضل عبر البحار ، وذلك لكى تساعد على حل صعوبات ميزان المدفوعات بالاضافة الى وضع الولايات المتحدة الأمريكية فى موقف اقوى بالنسبة للمنافســة الاقتصادية مع أوربا الغربية واليابان(٢٥) ٠

ويعتبر النمو السكانى السريع كأحد الجوانب المحددة للتنمية والتى يرفضها باور بشكل نهائى برغم اعتبارها من قبل كثير من الكتـــاب ذات اهمية بالغة ٠ وطبيعى أن يعتبر هذا النمو فى احد جوانبه مؤشرا للتنمية ، فهو ينتج عن انخفاض الوفيات الذى يتحقق نتيجة للتغذية الاكثر كفـاية والخدمات الصحية المحسنة ، غير أن الزيادة السكانية من ناحية أخرى تخفض اساسا نصيب الفرد من اجمالى الناتج القومى(٢٦) ٠ ومن ثم فهى تؤثر على المعدل العام للنمو لأنها تحول المصادر من الاستثمار فى الزراعة والصناعة الى توفير المدارس والاسكان ، الخ ٠ ونتيجة لذلك يصبح تنظيم النمو السكانى فى حد ذاته هدفا قد تخصص له المساعدات الأجنبية ٠ وهذا هو المدخل الذى يتبناه روبرت ماكنمارا ، فمن وجهـة نظره (تعتبر الزيادة السكانية المفرطة هى العقبة الوحيدة الكؤود أمـام التقدم الاجتماعى والاقتصادى لشعوب العالم المتخلف (Op. cit., P. 31)

---

(٢٤) Samuel P. Huntington, (Foriegn Aid : For what and For whom?) in Hunter and Pielly, Op. cit., P. 59.

(٢٥) C. Fred Bergsten, (The Threat from the third world, Foreign Affairs, 11. (Summer, 1973) PP. 102 - 124.

(٢٦) See Clark, Op. cit., PP. 22 - 23.

وبرغم انه اضاف أن حل هذه المشكلة لن يكون الا باستبدال اشكال أخرى للمساعدة ، كالمساعدة فى الزراعة ، والتصنيع ، والتقدم التكنولوجى • وحينئذ ، فعلى الأمم المتقدمة أن تعطى كل دعم ممكن للأقطار التى اسست فعلا برامج لتنظيم الأسرة ، عليها أن تعمق البحث فى الجوانب الاجتماعية والبيلوجية لتنظيم السكان ؛ وعليها ايضا أن تطور احساسا بالحاح المشكلة السكانية (ص ص ٤٤ ـ ٤٥) •

وقد أعطى كتاب اخرون اهمية مماثلة للنمو السكانى • فقد كرس جونار ميردال قسما كبيرا من دراسته المستفيضة عن جنوب آسيا لهذا الموضوع ، ولاحظ انه أصبح مسلما به الآن (ضرورة اتصال منظورات التنمية الاقتصادية الناجحة بالاتجاهات السكانية(٢٧) • وبالمثل ميز مند Mende التشعب المعقد بالانفجار السكانى كأحد مشكلتين هامتين ذات صلة بعدم التوازن بين القوى الصناعية والأقطار النامية (Op. cit., PP. 265 - 71) فعند نهاية هذا القرن سوف يتضاعف سكان العالم (الى ٧ بليون) على مدى فترة قصيرة تبلغ نحو ٣٥ سنة ، وفى ٣٥ سنة اخرى فقد يصلوا الى ١٥ بليون : ووراء هذه الأرقام تكمن مشاكل مرعبة ، كالامداد بالطعام والمصادر الأخرى ، والاضرار بالبيئة ، ثم الصراع الحاد للسيطرة المتفاوتة على المصادر •

وقد انتقد بعض الكتاب الراديكاليين هذا الاهتمام بتنظيم النمو السكانى باعتباره نوعا من المالتسية المجددة بالمعنى المحدد للمصطلح ، والذى يعنى أن فقر الأقطار الفقيرة يعتبر نتيجة لعاداتها غير المسئولة فى التكاثر ، وعلى سبيل المثال ، يصوغ ميشيل هدسون هذا النوع من الاعتراض(٣٨)، ولكنه يعدلهبقوله:«انه حينما ندركالتنظيم الديموجرافى فقط كبديل للاصلاح التنظيمى فان التاكيد عليه يتخذ الطابع الأيديولوجى» • وفى الحقيقة حاول نذر يسير من الكتاب المهتمين بالتنمية تفسير فقر

---

(٢٧) Gunnar, Myrdal. Asian Dramma (3 vols.) New York. 1968 Vol. 11. PP. 1389 - 1390.

(٢٨) Goulet and Hudson, Op. cit., PP. 125 - 129.

الأقطار النامية تاريخيا بالنظر الى النمو السكاني ، حيث كانوا مهتمين بموضوعين مختلفين تماما : الأول ، اذا سلمنا بفقر الأقطار النامية اليوم (برغم انها قد تكون منتجة) فما هى نتائج الانفجار الديموجرافى بالنسبة للجهود التى تحاول تجاوز هذا الفقر من خلال النمو الاقتصادى السريع ؟ والثانى ، ما هى متضمنات ذلك بالنسبة للعالم ككل ـ فيما يتعلق بالاستفادة من المصادر ، وحماية البيئة الطبيعية ، ونوعية الحياة الاجتماعية ـ كنتيجة لهذا النمو السكانى غير المتنبأ به ؟

فالانفجار السكاني الذى قد يبدو مشكلة منعزلة وقائمة بذاتها ، والحل الذى يمكن البحث عنه بصورة أفضل من خلال الوسائل الفنية ، يؤدى فى الحقيقة الى اثاره موضوعات سياسية هامة متضمنه فى أى تصور شامل للتنمية • فحيثما تعتبر الزيادة السكانية السريعة عائقا مباشرا للنمو الاقتصادى ، كما هى الحال فى كثير من الأقطار الفقيرة ، فانها مع ذلك ما تزال مجرد عنصر واحد فى التخطيط العام للتنمية ، وينبغى عدم التقليل من شأن الصعوبات التى تواجه أى نوع من السياسة السكانية(٢٩) • غير أن النمو السكانى ليس ببساطة مشكلة تتعلق بالأقطار الفقيرة • فمن الأسباب الهامة للاهتمام بالانفجار الديموجرافى هو نتائجه بالنسبة للبيئة والاستفادة من المصادر الطبيعية • ومن هذا الجانب تعتبر الأقطار الفقيرة بلا شك المصدر الوحيد للمشكلة • ويتزايد السكان (وان كانوا ببطء اكثر) فى الأقطار الصناعية الغنية أيضا •

---

(٢٩) اذا استبعدت الوسائل القهرية المتطرفة ، كالتعقيم الاجبارى لكونها من المحتمل ان تصيب المجتمع بضرر اكبر من الحالة التى تحاول علاجها ، اذ يمكن تحقيق انخفاض فى معدلات المواليد عن طريق الحث والحوافز العقلانية فقط • والى حد ما ، يفترض ذلك مجتمعا عقلانيا يستجيب اعضاؤه بطريقة متنورة للمؤشرات الاجتماعية ، وهذه الحالة ما زالت بعيدة جدا• بالاضافة الى ذلك توجد علاقة مزدوجة بين السكان والتنمية ، فقد تؤثر التنمية على النمو السكانى عن طريق تغيير طموحات البشر وطريقتهم فى الحياة ، مثلما تتأثر بها أيضا • وعلى ذلك يمكن التدليل على ان افضل سياسة سكانية هى تلك التى تترابط مع التنمية (النمو الاقتصادى المتحضر ، الحراك الاجتماعى المتزايد) التى ستتولى بنفسها تخفيض معدل المواليد ، غير ان ذلك يبالغ فى فاعلية مثل هذه المؤثرات ويقلل من شأن الحاح المشكلة السكانية فى الوقت الحاضر • وأخيرا يوجد موضوع له طابعه السياسى الواضح يتمثل فى حقيقة أن حجم السكان يعتبر عنصرا فى القوة القومية ، ومن ثم تتأثر الرغبة فى تنظيم النمو السكانى او عدم تنظيمه بموقف المتنافسين على المستوى الدولى •

غير أن الحقيقة الأهم أن هذه الأقطار تستهلك قدرا غير ملائم من المصادر العالمية (تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية وحدها مسئولة عن ثلث استهلاك العالم) • فالضغط على المصـــادر ليس فقط مصدره النمو السكاني وارتفاع اجمالي الناتج القومي في الأقطار الفقيرة ، ولكن يكمن مصدره في النمو المستمر والسريع للأقطار الصناعية ، وينبغي أن يهتم أى تحليل جاد للتنمية على نطاق عالمي بالوسائل التى تحد من استخدامها المفرط في التبذير للمصادر ، وبالتالي يقلل من معدل نموها ، على الأقل في بعض الجوانب(٣٠) •

وتشير هـذه الملاحظات عن المسألة السكانية ، من أحد الجوانب ، الى الحاجة الى اطار واسع واكثر تنظيما للبحث • اذ تقع تنمية كل من الأقطار (النامية) والأقطار الصناعية في اطار نظام عالمي من العلاقات السياسية والاقتصادية أو في ظل ظروف تاريخية محددة وقد اعتمد مجال البحث المسمى (دراسات التنمية) ـ الذى يعتبر في نفس الوقت مجـالا للفعل السياسي ـ على انهيار الامبراطوريات الاستعمارية وعلى الظروف المحددة لفترة ما قبل الحرب ، مثل تلك التى أشرت اليها بايجاز في بداية هذا الفصل • حيث أن على أى تحليل لسياسات وقضايا التنمية ، بما فيها المساعدات الأجنبية ، أن يهتم في المحل الأول بهذا السياق • ففى عالم يسيطر عليه الاقتصاد الراسمالى اساسا ، فان عملية التنمية قد تضاعف حقيقة التخلف في بعض الأقطار(٣١) أو تؤدى في حالات أخرى الى مضار اقتصادية كنتيجة للسعى وراء المصالح الاستراتيجية ، والمصالح العسكرية،

---

(٣٠) يبدو ان هذه الاعتبارات ما تزال مهملة من قبل وكالات التنمية • فبرغم اشارة مقاله نشرتها الأمم المتحدة ابريل ١٩٧٣ بعنوان (اطار موجز لدراسة الأمم المتحدة من تاثير المشاكل والموضوعات البيئية المحددة على استراتيجية التنمية الدولية) الى مشاكل الاقتصاد العالمى ، فانها قصرت اهتمامها الى حد كبير على المشكلات التى تظهر من التنمية الاقتصادية للأقطار الفقيرة •

(٣١) مثلما برهن فرانك A. G. Frank في مؤلفـه (الراسمالية والتخلف في امريكا اللاتينية rev. edn New York, 1969 وانظر ايضا بعض مقالات المؤلف الذى حرره كل من (eds.) Dependence and underdevelopment : Latin America' James D. Cackcraft, André Gunder Frank and Dele L. Johson Political economy (New York, 1972).

ونشاط الشركات المتعددة الجنسية · ومن وجهة نظر الأقطار الرأسمالية الكبيرة ينبغى ادراك العلاقات مع الأمم الفقيرة أساسا بالنظر الى الحفاظ على بقاء سيطرتها السياسية والاقتصادية ، او بالنظر الى ضمان ان يتحقق تصنيع بقية العالم حسب النموذج الراسمالى ·

ويبدو ان سياسات الاقطار الصناعية الشيوعية تقدم بديلا للتنمية وفقا لهذه الرؤية ، وان كانت تثير مشكلات اخرى ، وفى المحل الأول فانه من الصعب فى هذه الحالة أن تحدد طبيعة السياسات او اسلوب تنفيذها (٣٢) ومع ذلك ، فمن الواضح أن الأقطار الشيوعية قد شاركت على الأقــل بجانب ضئيل للغاية فى وكالات التنمية الدولية وفى المساعدات المشتركة ، ولذلك فقد كان تاثيرها العام على مسار الأحداث محدودا · ولقد اصبح واضحا ايضا ان العلاقات مع الأمم النامية قد تاثرت بشــدة فى حالة الأقطار الشيوعية ، كما هى الحال فى حالة الأقطار الراسمالية الغربية ، بسبب الصراع السياسى بين الاتحــاد السوفيتى والولايات المتحــدة الأمريكية ، ومن ثم فقد لعبت الأهداف الاستراتيجية والمساعدات العسكرية دورا هاما ·

واخيرا فانه ينبغى الاهتمام بمدى قدره سياسات التنمية للأقطــار الشيوعية على تشكيل بديل حقيقى فى اى حالة ، بمعنى البديل الاشتراكى للتوسع الراسمالى ؛ وينبغى ان يعتمد الحكم فى هذا الموضوع على اسلوب المرء فى تقدير الامكانية الاشتراكية للمجتمعات التى تسودها الملكية العامة لوسائل الانتاج الأساسية والدرجة التى يرتبط فيها التخطيط الاشتراكى بنظام سياسى فاشستى وغالبا قهرى ·

وتثير هذه المسألة المتعلقة بالمسارات البديلة للتنمية العالمية موضوعا هاما فى اى تصور للتنمية ؛ اعنى ، ما هو هدف التنمية ، أو بصــورة اشمل ، ما هى طبيعة العالم الذى تقصد سياسات التنمية خلقه ؟ ويؤكد

---

(٣٢) See the breif discussion in Mende, Op. cit., Appendix 1.

معظم الكتاب الليبراليين المهتمين بالموضوع أو يسلمون جدلا ، بأن التنمية تعني شيئا اكثر من مجرد النمو growth باى شكل كان بالنسبة لاجمالى الناتج القومى · فهي تتضمن تحسينا حقيقيا فى المستوى العام للحياة ، عن طريق التغذية الكافية والاسكان ، والرعاية الصحية ، والتعليم ، الخ بالنسبة لجميع السكان ؛ وتقليل التفاوتات الهائلة فى توزيع الثروة والدخل ؛ والتوسع فى خلق الفرص ، وبخاصة بالنسبة لمعظم اقسام السكان المحرومة · ومن وجهة النظر هذه ليس من الصعب أن نواصل الاهتمام بصياغة سياسة اشتراكية متميزة للتنمية ، يتحدد هدفها النهائى فى تاسيس مساواة فى الظروف الأساسية على نطاق عالمى ـ لنقضى على التفرقة بين الغنى والفقير داخل المجتمعات وبينها ·

ويتضمن هذا النوع من السياسة توسيع الهدف الاشتراكى الخاص بخلق مجتمع لا طبقى بالنسبة للنسق الاجتماعى للعالم ككل · ومن الواضح وجود صعوبات هائلة في هذا الصدد ، فحتى داخل امم معينة ، واجهت الحركات الاشتراكية الديموقراطية عقبات هائلة فى محاولتها اعادة توزيع الدخل والثروة · او توفير نطاق أكبر من الخدمات العامة ، وتخطيط التنمية الاجتماعية والاقتصادية · وعلى النطاق العالمى تضاعفت المشاكل بسبب المقاومة الشرسة ـ الملهمة بالولاءات ذات الجذور الثقافية والقومية ـ لأى اعادة توزيع ذات قيمة للثروة بين الأمم (التى قد تتضمن نوعا من التحكم فى معدل النمو الصناعى للأقطار الغنية) بسبب صعوبة تاسيس مؤسسات دولية فعالة لتنفيذ هذه السياسات ؛ وبسبب التهديد بشكل من السيطرة السياسية والبيروقراطية ذات التطرف الفاشستى الكامن فى مشروع تخطيط الاقتصاد العالمى وتنظيمه · بل انه من الصعب تحقيق بداية ذلك اذا لم تتأسس انظمة اشتراكية ديموقراطية قوية فى عدد من الاقطار الصناعية المتقدمة ؛ واذا كانت الحال على هذا النحو ؛ فان عملية التنمية الاشتراكية قد تبقى فى رايى بطيئة ـ ربما بطءا مخيفا فى مواجهة الخطر المرعب للحروب المهلكة التى تشن من أجل السيطرة على المصادر التى تتزايد ندرتها ·

بيد أنه من الخيالى تماما أن نفترض ان تحولا ثوريا مفاجئا يستطيع

انقاذنا . فمن المحتمل أن تكون الاصلاحات المتراكمة ، والمتجهة أساسا نحو تغيير رئيسي في النسق ، ناجحة ، ومن الأفضل أن نبدأ هذه الاصلاحات بتغيرات في التجارة العالمية لصالح الأقطار الفقيرة · بزيادة المساعدات الأجنبية في شكل معونات وليست قروض : بتوفير المنح والقروض الجديدة للمساعدة في تخفيض العبء المريك للديون التي تعاني منها الأقطار الفقيرة كنتيجة للمساعدات السابقة ؛ وبالزيادة الواضحة في توفير المساعدات التي تتخذ شكل المعرفة العلمية والتكنولوجية(٣٣) ·

وفضلا عن ذلك ، لا يجب أن يغفل أي تحليل للسياق العالمي للتنمية الجانب الآخر للمشكلة · فبرغم وجود الأقطار الفقيرة في عالم تسيطر عليه الأقطار الصناعية (الراسمالية ، والشيوعية) فانها بلا شك لديها القدرة لتحديد مسار تنميتها في اطار حدود معينة ، وان تؤثر ايضا بدرجة اكثر او اقل في التوزيع العالمي للثروة · ويعتبر تبني سياسة الاكتفاء الذاتي autarky احد الخيارات المطروحة امامها ، وذلك بتحديد الواردات والاستثمارات عن طريق التعريفة الجمركية والضوابط الأخرى ، وايضا بتقليل اعتمادها على المساعدات الأجنبية بقدر الامكان ، وبخاصة انماط المساعدات الأكثر ارهاقا · وبالتاكيد هناك سوابق تاريخية لنجاح مثل هذه السياسة ـ وتعتبر الصين مثالا طيبا لذلك ـ طالما أن هناك قوى في المجتمع تلتزم بشدة ، بالتنمية الاقتصادية ، وباعادة تشكيل النظم الاجتماعية · غير أن سياسة الاكتفاء الذاتي سوف لا تكون هي السياسة الأكثر فعالية في كل الحالات ، وينبغي عدم تبنيها كسياسة دائمة · وقد قدم البرت هايرشمان Albert Hirchman فكرة هامة تذهب الى : « انه

---

(٣٣) من المحتمل ان تعتبر المساعدة بالمعرفة واحدة من اكثر انواع المساعدات المادة ، وان كنا نحتاج ان تمنح بطريقة ملائمة · فمثلا لا يبدو بالنسبة لي ذا معنى طيب أن يتركز عدد كبير لدراسة التنمية في الأقطار الغنية ، بينما تمتلك المراكز المهتمة بهذه الدراسات اتصالات متقطعة فقط (وفي بعض الأحيان مختصرة) بالقضايا والمواقف الاجتماعية التي تحللها وربما كان من الأفضل ان توقف بعض المصادر لمساعدة ومد نطاق عمل هذه المعاهد التي تاسست في الأقطار النامية ، او لخلق معاهد جديدة ·

من أجل تحقيق حد أعلى للنمو ، فان البلاد النامية تحتاج لتبديل ملائم بين الاتصال والانعزال ، والانفتاح على تجارة ورأس مال الاقطار المتقدمة ، تتلوها فترة من الانسحاب والنزعة القومية »(٣٤) ·

ويعد تشكيل التحالفات الاقليمية أو أية اتحادات اخرى ، وسيلة ثانية تدعم بواسطتها الأقطار الفقيرة مركزها ، من أجل السيطرة على استثمار رأس المال الأجنبي واستغلال مصادرها ، وتحسين التجارة مع الأقطار الصناعية ، أو التأثير بفاعلية أكثر في سياسات وكالات التنمية الدولية · وتعتبر الاوبك OPEC منظمة الأقطار المصدرة للبترول من الاتحادات الناجحة لهذا النوع · ومن الواضح أن الأوبك تتمتع بمركز ممتاز من خلال سيطرتها على مصدر له ندرة خاصة ، ويعتبر ميثاق الأندين Andean Pact (من أعضائه بوليفيا Bolivia ، شيلي Chile ، كولمبيا Columbia . الاكوادور Ecuador ، بيرو Peru فينزويلا Venezuela محاولة اخرى حديثة لتأسيس دفاع ضد القوة الاقتصادية للأقطار الصناعية وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي نفس الوقت تعتبر وسيلة للتعاون الاقليمي للتنمية ، غير أن فاعليتها سوف تتضاءل بالتأكيد في أعقاب الاطاحة بحكومة الوحدة الشعبية في شيلي · ومازالت هناك المحاولات مستمرة لتجميع أقطار العالم الثالث ككل ، وذلك بهدف صياغة بعض الخطوط العامة لسياسات التنمية كما تبدو من وجهة نظر الأقطار الفقيرة ذاتها ، وبخاصة في حملتها بتبادلات التجارة الدولية ·

وتشبه كل هذه الجهود من جانب الأقطار الفقيرة في بعض الاعتبارات جهود الحركة العمالية داخل المجتمعات الصناعية ، وهما معا يعتبران عنصرا رئيسيا في النضال من أجل اعادة توزيع المصادر العالمية · غير أنه توجد اختلافات هامة أيضا · فمن غير الواقعي تماما أن ندرك عملية التنمية ببساطة ، بالنظر الى الصراع بين الأمم البرجوازية) و (البروليتارية) ، وذلك لسبب رئيسي يتمثل في وجود

---

(٣٤) Albert O. Hirschman, A Bias for hope : Essays on development and Latin America (New Haven, 1971), PP. 25 - 26.

بعض الملامح المتناقضة فى سياسات كثير من الأقطار النامية ، التى ترفع شعارات المساواة الكاملة بين الأمم ، بينما تسمح أو حتى تشجع التفاوتات الشاسعة داخل مجتمعاتها · وفضلا عن ذلك ، توجد اختلافات كبيرة بين أقطار وأقاليم العالم الثالث ـ اختلافات فى التاريخ ، والثقافة والبناء الاجتماعى ـ وأيضا هذا التنوع الكبير فى المشاكل التى تواجهها حتى ليبدو لى من غير المحتمل ، امكانية صياغة نظرية عامة بدرجة عالية من المعقولية ، تستطيع تحديد أفضل أسلوب للتنمية · اذ توجد مسارات عديدة للتنمية مثلما هناك مسارات عديدة للاشتراكية ·

وتعتبر قوة الدافع نحو المساواة هى الخاصية الأكثر شمولا كما يبدو بالنسبة لى ، والتى تنتشر الآن من المجتمعات الصناعية التى شكلت مصدرها فى القرن التاسع عشر لكى تغزو كل العالم · ولقد ظهر الشك أو اليقين الذى أشرت اليها فى مقدمة هذا الفصل ، ليس من مجرد التسليم بصعوبات التنمية وتعقيداتها ، ولكن من خلال التحقق بأن العملية بكاملها قد أسىء فهمها · فخلال حقبة الخمسينات خف الحوار حول الرأسمالية والاشتراكية ، وبرزت نظرية سوسيولوجية جديدة ، تهتم بالانتقال من المجتمع قبل الصناعى الى المجتمع الصناعى ، حيث أدعى أنه يجب أن يكون هدف كفاحنا السياسى والعقلى هو أن ندرك هذا الانتقال المحدد بدرجة أعمق وندعمه بفاعلية أكثر(٣٦) · ولقد أصبح واضحا الآن أن هذه النظرية قد عبرت عن المزاج المحافظ لذلك العصر ـ ومن ثم بددتها الحركات الراديكالية لحقبة الستينات ـ والثقة فى الانتشار العالمى الواسع للوفرة من خلال النمو الاقتصادى

---

(٣٥) وعلى ذلك ففى جلسات مؤتمر الأمم المتحدة عن التجارة والتنمية ضغطت الأقطار النامية من اجل تفضيل منتجاتها فى الأقطار الصناعية ، ولكن بدون نجاح كبير فى ذلك ·

(٣٦) اكد مؤلف ايرنست جلنر Ernest Gellner (الفكر والتغير Thaught and Change (London, 1964) بقوة وجهة النظر هذه · ووجه ريمون ارون Raymond Aron الذى فعل الكثير لتطوير فكرة (المجتمع الصناعى industrial society (الانتباه لأحد ملامح هذه الرؤية الجديدة حينما لاحظ أن علماء الاجتماع قد اتجهوا الى الخلف فى تأسيس تصوراتهم عن التغير الاجتماعى ، من ماركس Marx إلى سان سيمون Saint - Simon

القوى . ولقـد نتجت الشكوك الحالية فيمـا يتعلق بعملية التنمية نتيجة لاخفاق النظرية ، والى حـد كبير لغياب أى بديل عملى أو عقلى محدد . اذ يكمن خلف الاهتمـام بالتنمية والعلاقات بين الأمم الفقيرة والغنيـة ، كما حاولت أن أوضح ، الموضوع الأساسى المتعلق بالمسـاواة الانسانية ، فطالما ان هـذا الموضوع قـد نوقش من كل جوانبـه ، وتمت صياغة الاختيارات السياسية بشـانه ، فان السياسات العملية والفعـالة للتنمية العالمية سوف تكون ممكنة .

الفصل الخامس

كارل ماركس : عالم اجتماع أم ماركسي ؟ (١)

لا يهدف السؤال المطروح فى عنوان هذا الفصل الى استيعاب كل الجوانب التى يمكن من خلالها النظر الى اعمال ماركس ؛ كما انه لا يعنى المصادرة على مسألة امكانية أن يكون مفكر ما ـ وماركس بصفة خاصة ـ عالم اجتماع وماركسى فى ذات الوقت • وانما هناك بعض الفوائد التى تتحقق من مجرد طرح السؤال بهذه الطريقة • اذ نجد أولا : أن اعتبار فكر ماركس احد الانساق الفكرية المبكرة فى علم الاجتماع ، أى النظر اليه كمحاولة لصياغة مفاهيم جديدة لوصف بناء مجتمعات باكملها ولتفسير التغيرات الاجتماعية الكبرى ، سوف يبرز اهم افكاره تمييزا بل واكثرها اثارة على الاطلاق • ولقد أصبح ذلك اكثر وضوحا مع نمو الدراسات السوسيولوجية خلال العقود القليلة الماضية وما صاحب ذلك من اعادة تقييم لتاريخ الفكر الاجتماعى الحديث • ومن الواضح أن احياء الاهتمام بالماركسية كمخطط نظرى (وهو اهتمام يقابله افول الماركسية كعقيدة سياسية شاملة) قد ظهر من خلال الاعمال التى كتبها فى الاونة الأخيرة متخصصون فى علم الاجتماع ؛ وحتى فى وقت مبكر يرجع الى نهاية القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين ،

---

(١) اعيد نشره مع تعديلات طفيفة من مجلة «العلم والمجتمع Science and Society (شتاء ١٩٦٦) • واعتمد هذا المقال على بحث القى فى ٣٠ اغسطس ١٩٦٥ فى حلقة دراسية عن « اعادة تقييم كارل ماركس » A Re-evaluation of K. Marx عقدت اثناء الاجتماع السنوى الستين ، لجمعية علم الاجتماع الأمريكية ، American Sociological Association المنعقد فى شيكاغو • ولقد نشر هنرى مينز Henry Mins نقدا لبعض الآراء التى قدمتها هنا فى مقال بعنوان « الماركسيون واللاماركسيون » Marxists and non - Marxists نشرت فى نفس العدد من مجلة « العلم والمجتمع » •
والمجتمع » •

كانت المناقشات المثمرة للفكر الماركسى تنبع ـ على ما يبدو لى ـ من اهتمامات سوسيولوجية وفلسفية تمثلت فى كتابات ماكس فيبر Max Weber وكروس Croce وسوريل Sorel وباريتو Pareto على سبيل المثال ـ ولم تنبع من الكتابات النقدية ذات الطبيعة الاقتصادية أو السياسية الخالصة(٢) ٠

ويكمن احد الأسباب الرئيسية وراء احياء الاهتمام بالماركسية فى أن نظرية ماركس تتعارض فى كل عناصرها الهامة مع النظرية الوظيفية التى اثرت بشدة فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا فى العشرين أو الثلاثين عاما الماضية ، والتى ظهر قصورها بشكل متزايد ٠ فعلى حين تركز الوظيفية على التناغم الاجتماعى تركز الماركسية على الصراع الاجتماعى ؛ وبينما تهتم الوظيفية بالثبات وباستمرارية الابنية الاجتماعية ، تقدم الماركسية نظرة تاريخية وتؤكد الاهتمام بالبناء المتغير للمجتمع ٠ وبينما تركز الوظيفية على تنظيم الحياة الاجتماعية من خلال القيم العامة والمعايير ، تركز الماركسية على اختلاف المصالح والقيم داخل كل مجتمع وعلى دور القسر Force فى الحفاظ على النظام الاجتماعى العام ، لفترة قد تطول أو تقصر ٠ ولقد اصبحت المقابلة بين نموذجى التوازن والصراع ـ والتى أكدها دارندورف Dahrendorf بشدة عام ١٩٥٨(٣) ـ من الامور الشائعة فى علم الاجتماع الآن ٠ فغالبا ما توضع نظريات ماركس فى مقابل نظريات دوركايم ، وباريتو ، وماليتوفسكى ، وهم يمثلون المهندسين الرئيسيين للنظرية الوظيفية ٠

ولا يعنى هذا أن الماركسية هى النظرية الوحيدة التى تعطى وزنا للصراع الاجتماعى ، وللطبيعة التاريخية المتغيرة للمجتمعات البشرية ٠

---

(٢) قمت بشرح بعض هذه الاسهامات بتفصيل اكبر فى مقال عن علم الاجتماع الماركسى نشر فى دائرة المعارف العالمية للعلوم الاجتماعية International Encyclopedia of Social Sciences (نيويورك ١٩٦٨) ، وفى كتاب موجز بعنوان Marxist Sociology (London, 1974)

(٣) R. Dahrendorf, "Out of Utopia : Toward a Reorientation of Sociological Analysis". American Journal of Sociology, Vol. LXIV. No. 2. 1958.

كما انه لا يعنى أن علمـاء الاجتمـاع يقتنعون بأن مجرد بيـان وتوضيح نموذجى التوازن والصراع ـ كنماذج يمكن استخدامها فى سياقات مختلفة ـ هو الخطـوة النهـائية والكلمة الأخيـرة التى يمكن أن يقولهـا العـلم الاجتمـاعى · فقـد ساهم باحثون اخرون بعد ماركس ـ من أهمهم على الاطلاق زيمـل Simmel وماكس فيبر Max Weber بعناصر جديدة فى نظرية الصـــراع الاجتمـاع والتغير الاجتمـاعى ، وادخلوا تعديلات واضافات على بعض القضـايا النظرية التى طورها ماركس ، وانتقـدوا هـذه القضـايا من وجوه عديدة · ورغم ذلك ، فمن المحقق أن أعمالهم لا يمكن فهمها حق فهمها الا كأعمال تابعة او تالية لأعمال ماركس ·

ويثير امكانيـة وجود نماذج نظرية بديلة مشـكلات صعبة يألفها علمـاء الاجتمـاع منـذ ظهـور علمهم كفرع مستقل من فروع العـلوم الاجتماعية · فعلماء الاجتمـاع المعاصرون يطرحون بشكل جديد سؤلا قديمـا يتعلق بالتوفيق بين « النظام » و « التقدم » وهو أحد الموضوعات الاساسية فى علم الاجتماع عنـد كونت · وتنبع هذه الصلة الفكرية (بين الأمس واليـوم) ، تنبع ـ فى جانب منهـــا ـ من التشـابه فى الظروف الاجتماعيـة · فنحن نعيش ـ كما كان كونت ـ فى أعقاب ثورات كبرى ، وفى خضم طوفان ثورى وتحولات اجتماعية قائمة على العنف · وكنتيجة لذلك ، فانه يبدو أن أهم المهـام المنوطة بعـلم الاجتماع فى الوقت الحاضر هى فهم ما يحدث عنـدما تنشأ دول جديدة ، وفهم النمو السريع للعـلم والتكنولوجيا ، وانتشار اسلوب الحيـاة الصناعية فى كل أرجاء العالم ، والتغيرات الجـذرية التى حدثت فى البنـاء الطبقى ، والانساق الاسرية والسياسية · ورغم ذلك فاننـا نهتم الآن ـ على خـلاف كونت ـ بالبحث عن نظرية مقبـولة اكثر من اهتمامنا بصياغة فلسفة اجتماعية جديدة · ونحن على وعى اكثر بالحاجة الى تقـديم تفسير للتغير الاجتمـاعى ، بينما كان كونت ـ فى خضم نظريات التقـدم العديدة فى عصره ـ اكثر اهتماما باكتشاف مبادىء النظام والاستقرار ·

لقد كان الاهتمام الرئيسى فى نظرية ماركس منصبا على الصراعات داخـل المجتمع والتغيرات البنائيـة التى تتولد عن هـذه الصراعات ،

ويقلف هذا الاهتمام مخطط عام لنمو البشرية نموا تقدميا (نحو الأحسن)· وتتضمن النظرية فى ذات الوقت بعض التفسيرات الجزئية للتضامن الاجتماعى واستمرارية الابنية الاجتماعية · فقد عالج ماركس باستفاضة ـ على سبيل المثال ـ الظروف التى تولد التضامن الطبقى وتحافظ عليه · وفسر على مستوى المجتمع ككل استمرار بناء اجتماعى بعينه من خلال العلاقات بين الطبقات ، والوضع الذى تشغله الطبقة الحاكمة ، وتأثير الافكار المسيطرة فى استمرارية نظام الحكم · وفضلا عن ذلك فقد تنبأ ماركس بظهور نمط من المجتمع يختفى فيه الصراع الطبقى كلية ويتحقق فيه ضرب من التناغم والتضامن التام بعبارة اخرى فاننا يمكن أن نلمس فى نظرية ماركس تجاور نموذجى التوازن والصراع فى تفسير المجتمع ؛ ويمكن أن يتم ذلك على مستويين : الأول : أن الصراع يسود العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع ككل ، بينما ينتشر التضامن والاتفاق فى كثير من الجماعات الفرعية (خاصة الطبقات الاجتماعية) فى المجتمع · والثانى : أن المجتمعات بصفة عامة يمكن ترتيبها فى تسلسل تاريخى بحيث يسود الصراع فى مرحلة تاريخية معينة ـ وهى المرحلة الوحيدة التى عرفناها حتى الآن ـ والتضامن والتعاون السلمى والاتفاق فى مرحلة أخرى ـ وهذه تقع فى المستقبل ·

ومع ذلك فان هذه النظرية لا تقدم توفيقا كافيا بين كلا النموذجين ، هذا طبعا بصرف النظر عن الأخطاء التى يمكن أن تشتمل عليها فيما يتعلق بالوصف الفعلى للصراع المجتمعى والتضامن الطبقى وتفسيرهما · فهى لا تسمح ـ على سبيل المثال ـ بوجود الفكرة التى مفادها أن الصراع ذاته قد يولد التضامن الاجتماعى او يحافظ عليه (وهو احتمال استكشفه زيمل بطريقة اكثر منهجية) · وفضلا عن ذلك فان النظرية تستبعد الصراع كلية من المجتمع الافتراضى اللاطبقى فى المستقبل ؛ ويبدو انها تؤكد ايضا حالة اصلية اولية للمجتمع البشرى كانت تخلو من الصراع وذلك قبل انتشار تقسيم العمل وتراكم الثروة الخاصة · وتعتمد هذه النظرية على تصور تاريخى يتعارض مع فكرة العلم الاجتماعى

وهى فكرة يبدو انهـا تركت اثرا على اعمـال ماركس الناضجة • ونحن قد نضفى اهميـة قليلة احيانا أو كبيرة احيانا اخرى على الجانب المتأثر بالهيجلية فى نظرية ماركس ، أو على الجانب الذى يتخـذ الخط الوضعى فيهـا ، غير انه من المستحيل أن نوفق بينهما(*) فقـد ذهب اسحق برلن Isaiah Berlim على سبيل المثال الى القول بأن :

« لامراء فى أن الاطـار المرجعى لنظرية ماركس كان هيجليـا • لأنه يسلم بأن تاريخ البشرية هـو عملية واحدة غير متـكررة ، تسير وفق قوانين يمكن اكتشافها • وتختلف هذه القوانين عن قوانين الكيمياء والفيزياء التى تعتبـر قوانين لا تاريخية تحـاول الكشف عن ارتباطات واطرادات ثابتـة تتعلق بظواهر مترابطـة فى كل زمان أو مـكان تتكرر فيه هـذه الظواهر نفسها • أما هـذه القوانين فانها تشبه قوانين علمى الجيولوجيا والنبـات ، وهما علمان يحددان مبادئهما فى ضـوء حدوث أى من عمليات التغير المستمر »(٤) •

ويمكن القول من الناحية الأخـرى أن كثيرا من القضايا التى قدمها ماركس لهـا على الأقل صـفة القوانين العامة • وهكـذا فان العبـارة

(*) يظهر خلاف حاد بين المـاركسيين الأوربيين حول مجالات الاهتمام فى أعمال ماركس • ويظهر هـنا فريقان رئيسيان : الأول يمثله اولئك الذين يركزون على أعمال ماركس المبكرة التى تأثر فيها بهيجل ، وهم يهتمون بفكرة الاغتراب والحرية فى الفكر المـاركسى اكثر من اهتمامهم بتحليل علاقات واشكال الانتاج • واشهر هؤلاء على الاطلاق هو هربرت ماركيوز • اما الفريق الثانى فتمثـله مدرسـة التوسير Althusser فى فرنسـا حيث تستبعد أعمال ماركس المبكرة والتى تأثر فيها بهيجل لأنها لا تتضمن المـاركسية كنظرية علمية بالشـكل الذى كان يرغب فيه ماركس ، ويهتم أنصار هذه المدرسة فى مقـابل ذلك بتطوير الكتابات المتأخرة (والناضجة) لمـاركس ، خاصة رأس المـال وذلك بهدف تقوية المـاركسية من الداخل وتزويدها بالمفهومات الضرورية والنظرية العلمية التى تمكنها من تفسير التحولات الاجتماعية المعاصرة • وهذا هو ما فعله التوسير وباليبار Balibar فى كتابهما الشهير « قراءة فى رأس المـال ». انظر حول هذه الموضوعات :

— L. Althusser and E. Balibar, Reading Capital, London, New left Books, 1970; L. Althusser, For Marx, The Penguin Press, 1969.

• وانظر الترجمة العربية التى أعدها فؤاد زكريا لكتاب هربرت ماركيوز ، العقل والثورة . هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠ •

المترجـم

(٤) I: Berlin, Karl Marx, 3rd., Edn., (London, 1963), P. 124.

الشـــهيرة القائلة بأن « تاريخ كل المجتمعـات التى عرفنـاها حتى الآن ما هو الا تاريخ الصراعات الطبقية » ، هـذه العبارة يمكن النظر اليها ، لا باعتبارها مبدأ تاريخيا ، ولكن باعتبارها قانونا عاما للصراع من المجتمع البشرى · وبنفس الطريقـة فانه يمكن النظر الى قول ماركس بأن البناء الاقتصــادى للمجتمع هو الذى يحـدد شكل النظم الاجتماعية والافكار السائدة ، على انه تعبير عن قانون عام أو عن قاعدة منهجية · وحتى عنـدما يزعم ماركس انه يصيغ قانونا للتغير ـ كقــانون تغيـر المجتمع الراسمالى مثلاً ـ فان هذا القانون لا يعـدو ان يكون قانونا خاصا ينطبق فقـط على نمـط بعينـه من انمــاط المجتمعـات (المجتمع الراسـمالى او الصناعى) ، غير أنه مشتق من حيث المبدأ من قانون أعم يشير الى التغير فى كل المجتمعــــات · وبذلك فانه لا يجب النظـر الى قوانين التغيـر الاجتماعى على أنهـا قوانين تاريخية او مبــادىء عامة ؛ ان مثل هــذه القوانين يمكن أن تكون عامة ، وقابلة للتطبيق ـ فى نفس الوقت ـ على كل الحالات انى ظهرت وحيثما ظهرت ·

ويترابط هـذان التصوران معا فى نظرية ماركس ـ اعنى التفسير التاريخى لحوادث فريدة ، وصياغة قوانين عامة تفسر حوادث متكررة · والواقع أن الماركسيين قـد انقسموا فيمـا بينهم حول تبنى احـد هذين التصورين دون الآخر : هناك ـ من ناحية ـ المدرسة الوضعية أو العلمية والتى يمثلهـا انجلز Engels وماكس أدلر Max Adler(*) وهناك ـ من ناحية ـ أخرى المدرسة الهيجلية التى يمثلها لوكاتش Lukacs وكروتشه Korsch وماركيوز ولفيف من معــارضى الوضعيــة المعاصــــرين فى فرنسا · وفى اعتقــادى أن أعمــال ماركس ـ بدءا من الاعمال المبـكرة وحتى الاعمال التى كتبها فى نهاية حياته ـ تبتعد كثيرا عن فلسفة التاريخ

(*) ومن انصار هذه المدرسة من العلماء المعاصرين لويس التوسير وباليبار وغيرهما على ما ذكرنا فى التعليق فى هذا الفصل ، ويتركز اهتمام هذه المدرسة على الأعمال المتأخرة الناضجة لماركس كرأس المال بينما يتركز اهتمام المدرسة الهيجلية على اعماله المبكرة التى تاثر فيها بهيجل ·

المترجم ·

وتقترب من صــورة النظرية العلميــة عن المجتمع ، وذلك بالمعنى الدقيق لمفهوم النظرية العلمية كمجموعة مترابطة من القوانين العــامة والقضايا الامبيريقية التى تهتم بالتفاصيل • ولكننا على يقين ـ بطبيعة الحــال ـ من أن تطــور الماركسية لم يسر وفقــا لهـــذا الطريق • فمن المحقق أن الاسهامات الرئيسية للبحث الماركسى قد اقتصرت على المجال التاريخى، بل ان هــذه الاسهامات قــد انحصرت فى نطــاق ضيق من المشــكلات ، وجــاء اسهامها فى مجــال البحوث الامبيريقية التى تقع فى نطاق عــلم الاجتماع نادرا •

ولقد اعاد مقال حــديث كتبه هوبسباوم(٥) Hobsbawm ، اعــاد تأكيد النقط المتعلقة بتأثير الماركسية على التاريخ الاجتماعى والاقتصادى ذهب هوبسباوم فى تقديمــه للترجمــة الانجليزية لتحليل ماركس الموسع والوحيد لمجتمعات ما قبل الراسمالية(٦) ، ذهب الى القول بأن مــاركس قـــد حــاول صياغة نظرية للتقــدم التاريخى ولم يحـــاول صياغــة مخطط للتطور الاجتماعى ؛ وانه يجب النظر الى تفرقة ماركس بين انماط مختلفــة من المجتمع وفقا لهذا المنظــور • وتعرض هوبسباوم لأعمــال المؤرخيين الماركسيين واستخلص من هـــذا العرض أن الاسهامات التى ظهرت فى السنوات الأخيرة فى هذا المجال ليست كافيـــة ولا مكتملة من حيث انهــا اهملت انماطا معينــة من المجتمعات ـ وبصــفة خاصة نمط المجتمع الآسيوى(*) Asiatic Society ـ كما أنهــا وسمت بشدة من مفهوم

---

(٥) E. J. Hobsbawm, " Introduction " to Karl Marx, Pre-Capitalist Economic Formations (New York, 1965).

(٦) جاء هــذا التحليل لمجتمعات ما قبل الراسمالية فى المخطـوط المؤرخ من ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ ، وهو يمثل مسودة اولية لراس المــال نشرت فى موسكو لأول مرة فيما بين عــامى ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ تحت العنوان التالى
— Grundrisse Der Kritik der Politischem ōKonomie (Rohetwurf).

(*) نمط الانتاج الآسيوى هو النمط الذى اعتقد ماركس انه يسيطر على شكل الانتاج فى المجتمعات الشرقية (اى الواقعة خارج نطاق اوربا خاصة مجتمعات آسيا والمجتمعات العربية) • ويقوم نمط الانتاج الآسيوى على سيطرة دولة استبدادية مركزية تتحمل اعباء الأشغــال العامة ـ خاصة تنظيم الرى ـ وتتحكم فى وحدات ريفية متشابهة منعزلة تمارس الزراعة وتدفع الخراج للدولة المركزية • ولا تعرف هذه القرى شكل الملكية الخاصة ، وهى مجتمعات راكدة
=

« المجتمع الاقطاعي » لكي تسد الثغرات المختلفة · ويبدو أن المؤرخين الماركسيين يهتمون اهتماما بالغا بنفس المسائل التي اهتم بها ماركس - من ذلك مثلاً ظهور البرجوازية داخل المجتمع الاقطاعي ، والتحول من الاقطاع الى الراسمالية والمراحل الأولى للمجتمع الراسمالي ؛ ويعني ذلك انه بصرف النظر عن اهمال المؤرخين الماركسيين لانماط أخرى من البناء الاجتماعي ، فان اسهامهم في دراسة التاريخ الاجتماعي الحديث يعد اقل اصالة مما هو متوقع · فليس الماركسيون هم الذين درسوا عن قرب التغيرات التي طرأت على الطبقات وجماعات الصفوة في المجتمع الحديث ، أو تطور الايديولوجيات والأحزاب السياسية أو انهم هم الذين حاولوا تحليل الحركات الثورية·حقيقة أن دراسة هذه المجالات التي تعد اقرب الى علم الاجتماع قد تأثرت بافكار ماركس ان لم تكن قد ترتبت عليها اصلا ، غير أن اهم الدراسات حول هذه الموضوعات قد ظهرت على أيدي باحثين غير ماركسيين - بدءا من زمبارت Sombart وماكس فيبر Max Weber وميشيلز Michels وحتى حايجر Geiger وكارل مانهايم Karl Mannheim ، وبدءا من فبلن Veblen وحتى سي · رايت ميلز Wright Mills .

فلم يظهر على مدى تطور البحث السسيولوجي باحث ماركسي يضاهي في انجاز ماكس فيبر خاصة في استخدامه للقضايا العامة التي قدمها ماركس نفسه عن العلاقة بين الايديولوجيات والبناء الاجتماعي

=

ومنعزلة ليس لها تاريخ · وينقسم الماركسيون حول فكرة نمط الانتاج الآسيوي شيعا واحزابا ، فبعضهم يراه اداة تحليلية صالحة لمجتمعات ما قبل الراسمالية في الشرق ، وبعضهم الآخر يتخلى عنه كلية من حيث انه يمثل فكرة هامشية في الماركسية ·

انظر حول مفهوم نمط الانتاج الآسيوي :

- جان شينو وآخرون ، حول نمط الانتاج الآسيوي ، ترجمة جورج طرابيشي دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٢ ·

- محمد محي الدين واحمد ماجد ، « مفهوم نمط الانتاج الآسيوي : خطوط عامة » المجلة الاجتماعية القومية ، العدد الثاني - الثالث ، المجلد الخامس عشر ، ١٩٧٨ ·

المترجم

كنقطة بداية لبحث واسـع وخصب عن دور مجموعة معينـة من الأفكار والمعتقدات الدينية فى التغير الاجتماعى وارتباطها بالطبقات الاجتماعية المختلفـة(*) فالماركسيون الذين حاولوا أن يصـوروا الماركسية على أنها نسق نظرى ينتمى الى علم الاجتمـاع ــ من أمثال ماكس ادلر ــ قد اقتصروا على المناقشات المنهجيـة(٧) ، بينما حاول انصـار المدرسة الهيجلية اما أن يخوضوا غمار المجال التخيلى غير الدقيق للنقد الأدبى (لوكاتش)(**) او أن يتحولوا الى تقـديم انطباعات منهجية مثلهم فى ذلك مثل اصحاب الاتجاه الوضعى (سارتر) ٠

ولا تعكس المقابلة بين انجازات المدارس الماركسيـة المتزمتة وتلك الخاصة بالباحثين الذين استجابوا فقـط لأفكار ماركس باجـراء بحوث جديدة بانفسهم ، لا تعكس هـذه المقابلة نزعا للثقـة من ماركس نفسه ٠ لقـد كان ماركس مهتمـا ــ وبشـكل حماسى ــ بالبحـوث الاجتماعيـة الواقعية ــ بـدءا من اهتمامه ببحـوث كيتايــه Quetdetوبيرية Buret والتقارير التى كان يكتبهـا مفتشو المصـانع الانجليزية وحتى مشروعه

(*) المقصود هنا هو دراسة ماكس فيبر الشهيرة عن « الأخـلاق البروتستانتية وروح الراسمالية » والتى اهتم فيها بدراسـة تاثير الأفـكار الدينية على الاتجاهات نحو النشاط الاقتصادى بهدف فهم الظاهر الأساسية للنظام الاجتماعى ـ الاقتصادى للعالم الغربى الحديث ٠ ومن الجدير بالذكر ان الكثير من الباحثين يعتبرون ان راى ماكس فيبر يناقض ويفند وجهـة النظر المـاركسية فى تفسير البناء الاجتماعى للمجتمع الراسمالى الحديث ، وان كان البعض يعتقد ان راى كل من ماركس وماكس فيبر يمثل اسهاما متوازيا فى فهم هذا البناء ٠ انظر :

السيد الحسينى ، اتجـاهات علم الاجتماع فى فهم مشـكلات الدول النامية ، فى كتاب السيـد الحسينى ٠ دراسات فى التنمية الاجتماعية ، الطبعـة الثانيـة ، دار المعـارف ، صص ٤٢ ـ ٥١ ٠ المترجم

(**) حول اراء لوكاتش : انظر الفصل السابع من هذا الكتاب ٠ وانظر حول منهجـه فى النقد الأدبى مقارنا بمناهج اخرى : مجموعة مقالات حول الاتجاه الاجتماعى فى النقد الأدبى باقلام صبرى حافظ وجى بورللى وجابر عصفور ولوسيان جولدمان فى مجلة فصول ، المجـلد الأول ، العدد الثانى يناير ١٩٨١ ٠ صص ٦٥ ـ ١٠١ ٠ المترجم

(٧) من الاستثناءات الشهيرة فى هذا المجال بعض اعمال المـاركسيين النمساويين بما فى ذلك دراسة كارل رينر Karl Rener للقانون بعنوان « نظم القانون الخاص ووظائفها الاجتماعية »

— The Institutions of Private Law and Their Social Functions; (London, 1949).

الخاص عن « استقصاء حالة العمال »(*) enquete ouvrier بل أن ماركس قد قدم فى « رأس المال » دراسة امبيريقية واسعة النطاق لا تطاولها أى دراسة أخرى فى تراث العلوم الاجتماعية ٠ وتعتبر أعمال ماركس ، تلك الأعمال التى تجمع بين صياغة النماذج النظرية عن المجتمع ، وبين تطوير مناهج للبحث مع الاستخدام الخلاق لهذه النماذج والمناهج فى تحليل نمط معين من أنماط النسق الاجتماعى والتحولات التى تطرأ عليه ، تعتبر هذه الأعمال جميعا من الاسهامات العظيمة فى تشكيل علم الاجتماع الحديث ، بل اننا عندما نتأمل ـ خارج نطاق المدارس الماركسية المتزمتة ـ كيف أدى اسهام ماركس الى تفتيح موضوعات جديدة للبحوث السوسيولوجية ، والى طرح افكار جديدة تتعلق بالنظرية والمنهج ، والى اعادة التقييم المستمر للمشكلات التى اثارتها (كما هو الحال فى المناقشة التى بين أيدينا الآن) فاننا سوف ندرك بحق أن الاسهام الذى قدمه ماركس يعتبر الانجاز الوحيد العظيم‌ـأو الخطوة الفكرية الحاسمة‌ـ الذى حدد موضوع علمنا فى صورة معترف بها ٠ وإذا كان ماركس قد تناقض مع نفسه أحيانا ، وأخطأ فى أحيان أخرى ، وتحول بغموض من استخدام المصطلحات الهيجلية الى استخدام لغة العلوم الطبيعية والعكس ، وترك بعض مفهوماته فى صورة غير مسوغة من الناحية المنطقية ، واستخدم فى بعض الأحيان التعريفات الذاتية essentialist definitions بالرغم من أنه كان أساسا من انصار النزعة الاسمية(**)

(*) قام ماركس بتصميم هذا الاستقصاء فى شكل استبيان مكون من ١٠١ سؤال يغطى ظروف المهنة والعمل وساعات العمل والفراغ والتشغيل والأجور وتكاليف المعيشة الخاصة بالطبقة العاملة وكذلك نضالها من اجل تغيير هذه الظروف ٠ وكان ماركس يهدف من خلال هذا الاستبيان أن يصف الشرور التى يعانى منها العمال من اجل وضع الحلول للأمراض الاجتماعية يعانون منها ٠ ولم تنشر نتائج هذا الاستقصاء ـ الذى كانت تهتم بالاشراف على تطبيقه ونشر نتائجه « المجلة الاشتراكية » التى توقفت عن الصدور فى عام ١٨٨١ ٠ ولقد نشر بوتومور هذا الاستقصاء فى كتاب ضمنه قراءات من كارل ماركس ظهرت لاحقته ترجمة عربية تضمنت هذا الاستقصاء ٠ انظر :

بوتومور وم٠ ريل ، فى سوسيولوجية ماركس وفلسفته الاجتماعية ، ترجمة حافظ يعقوب ، سلسلة الأفكار ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ ٠ ص ٨٧ وما بعدها ،

المترجم

(**) التعريفات الذاتية هى التعريفات التى ، يكون المحمول فيها مأخوذا فى جوهر الموضوع

=

nominalist ، وبالغ فى التركيز على الصـراع فى نموذجه النظـرى ، اذا كان ماركس قد فعل هـذه الأشـياء ، فانه بالامكان أن نلتمس له العذر كمفكر رائـد كانت لافكاره من القـوة ما جعلهـا قادرة على خلق فرع جديد من فروع المعرفة ، سوف يصبح قادرا ـ خلال مسيرة تطوره ـ على تقديم وسائل تصحيح وتطوير هـذه الصياغات المبكرة (التى قدمها ماركس) ٠

اما الشىء الذى لا يمكن أن نلتمس العـذر فيـه لماركس فهـو أن ماركس قـد ضحى بالعـلم الوضعى لصالح الميتافيزيقا ، بمعنى أنه سعى فقـط للحصول على الأدلة التى تدعم صورة للعالم والتاريخ خلقها بخيال شعرى وفلسفى بحيث لا يمكن مناقشتها (تغييرها) بعد ذلك ؛ ويعنى ذلك باختصـار أن ماركس كان ماركسـيا بحق ، بمعنى أنه كان مدافعا عن عقيـدة سياسية ٠ حقيقـة أن ماركس قد ذهب الى القـول بأنه غير ماركسى(*) ، ولا يمكن أن يتطرق الينـا الشك فى أنه كان ينتقـد أثنـاء حياته التفسيرات التى يقدمها تلاميـذه لافكاره بشكل مستقل ٠ وتثار هنا مجموعة من التساؤلات : هل اعتبر ماركس هـذه التفسيرات غير كافية ، أم أنه كان يعارض تصـوير أفكاره على أنهـا عقيدة سياسية فحسب ؟ وهل نظر ماركس الى نظريته على أنهـا اكتشاف جديد ، وأنها بحاجة الى

=

مثل النطق المأخوذ فى جوهر الانسان » ٠ ويعنى ذلك ان التعريف الذاتى هو التعريف الذى يهتم بجوهر الموضوع او ذات الشىء essence ٠ وهو يختلف عن التعريف الاسمى الذى لا يتصل بـذات الموضـوع وجـوهره وانما يتصل بمعانى الألفاظ ، امـا المـذهب الاسمى nominalism فانه « يفيد بأن المعنى الكلى قائم فى عقل العارف ولا مقابل له فى الخارج ٠ وهو يقوم مقام كثرة الأفراد باعتباره اشارة اليها » ، فالمفاهيم والمصطلحات ما هى الأسماء تشير الى اشياء خاصة ، تكون الواقع فى حقيقة الأمر ٠ اما الأفكار العامة والمفاهيم المجردة ٠٠ فليس لها وجود متميز او كيان مستقل » ٠

انظر : مراد وهبه وزملاؤه ، المعجم الفلسفى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧١ ٠
ومحمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القـاهرة ١٩٧٩ (مادة المذهب الأسمى)
المترجم

(*) بمعنى انه لا يعتنق المـاركسية كايديولوجية وكعقيدة سياسية وانما يحاول فقط ان يقـدم نظرية علمية فى وصف وتفسير البناء الاجتماعى وتغيره ٠
المترجم

عمل فكرى شاق قبل أن تصبح قادرة على تحقيق أغراضها ؟ ويجب علينا - على أى حال - أن نفرق بين ماركسية ماركس وماركسية الماركسيين (الذين قدموا تفسيرات لنظرية ماركس) • فماركس لم ينظر الى نسقه النظرى على انه نسق مستقر أو بديهى ، أو أنه اطار مبسط للتعبير عن هدف سياسى واجتماعى • لقد كان هذا النسق النظرى من ابداع ماركس نفسه ، ولقد تطور خلال فترة طويلة من العمل الشاق ، وكان ماركس يراجعه باستمرار فهو عمل غير مكتمل لامراء فى ذلك • ويكشف سجل العمل الفكرى لماركس ، والذى كتبه ماكسيميلين روبل(٨ Maximilien Rubel بطريقة تثير الاعجاب ، يكشف عن المنحى الذى توصل من خلاله ماركس الى افكاره الرئيسية - عن تشريح المجتمع المدنى ، والنسق الطبقى ، والايديولوجيات ، والتغيير الثورى - جنبا الى جنب مع الخطط التى أعدها فى شبابه ليبحث هذه الجوانب المختلفة للمجتمع الحديث بحثا تفصيليا ، والتى لم يستطيع ابدا أن ينفذها باكملها • ولقد أعلن ماركس فى مناسبات عدة أن أعماله عن النسق الاقتصادى قد اكتملت وأنه سيشرع فى دراسة مشكلات الطبقة ، والانظمة السياسية ، والايديولوجيات ، غير أنه استمر فى كتابة مسودات جديدة لتحليله الاقتصادى ، فنشر شرحا أوليا لافكاره عام ١٨٥٩ ، ونشر الجزء الأول من « رأس المال » عام ١٩٦٧ ، ولم يستطع - خلال الاثنتى عشرة سنة الأخيرة من حياته - أن ينهى حتى الأجزاء المتبقية من تحليله الاقتصادى ، ناهيك عن انشغاله بدراسات جديدة تعالج جوانب اخرى من المجتمع ، كان ينظر اليها باستمرار على أنها ذات أهمية محورية فى تطوير نسقه النظرى • وهناك تفسيرات عديدة للعقم النسبى لسنوات ماركس الأخيرة ، منها ضيقه بعدم اهتمام الباحثين بأعماله ، وخيبة أمله فى حركة العمال بعد انهيار الدولية(*) ، وفشله فى حل مشكلات

---

(٨) Maximilien Rubel, Karl Marx : Essai de biographie Intellectuelle (Paris, Revised edn., 1971).

(*) المقصود هنا الاشتراكية الدولية الأولى او رابطة العمال الدولية الأولى The First International Workingmen Association التى اسسها ماركس فى لندن عام ١٨٦٤ فى محاولة التنسيق بين جهود العمال لتحقيق الاشتراكية فى

=

اساسية فى التحليل الاقتصادى للراسمالية ، والمرض وعدم الاستقرار الاسرى ـ وبذلك فاننا لا يمكن أن نفسر هذا العقم بانه ناتج عن قناعته الذاتية باكتمال نظريته . وانها لم تكن لتحتاج ـ بعد أن اكملها ـ الا لأن تشرح وتفسر فقط • لقد كان ماركس على وعى بعدم اكتمال اعماله ، وكان يراجع بين الحين والآخر بعض مفاهيمه الاساسية ، من ذلك على سبيل المثال تصنيفه لمجتمعات ما قبل الراسمالية ، وخاصة طبيعة النمط الآسيوى للمجتمع •

واذا اخذنا الماركسية باعتبارها نظرية كاملة ونهائية عن المجتمع ، فان ماركس لا يعتبر ماركسيا • واذا ما اخذناها بمعنى آخر ما يزال على قدر من الأهمية بالنسبة للتاريخ السياسى للقرن العشرين ، وهو أن ماركس لم يعتبر نفسه مبدعا لعقيدة سياسية يجب أن تتبناها حركة الطبقة العاملة كايديولوجيا سياسية وحيدة ، اذا اخذنا الماركسية بهذا المعنى فان ماركس لا يعتبر ماركسيا أيضا • لقد تبنى ماركس فيما يتعلق بهذا النقطة وجهة نظر متسقة منذ كتاباته الأولى وحتى كتاباته الأخيرة • ففى خطاب موجه الى Ruge فى سبتمبر عام ١٨٤٣ كتب يقول :

« لست أشجع على الاطلاق رفع راية الدوجماطيقية ••• على العكس من ذلك تماما ••• نحن لانواجه العالم بطريقة يبدو فيها التعصب المذهبى لمبدأ جديد قائلين له : ها هى الحقيقة ، وعليك الانحناء أمامها ! اننا نحاول تطوير مبادىء جديدة للعالم تختلف عن المبادىء الموجودة بالفعل ونستطيع أن نلخص وجهة نظر مجلتنا(٩) فى عبارة واحدة : أن يكتسب

=

بلدان متعددة • ولقد تحطمت انشطة هذه الرابطة ـ على صخرة الخلافات بين الماركسيين والفوضيين ، والتى انتهت الى خلاف حاد بين ماركس والزعيم الفوضوى ميخائيل بلكونين Mikail Bakunin فى عام ١٨٧٢ • ولقد نقل مقر الدولية الاشتراكية الأولى الى نيويورك لتفادى هذه العقبات ولكنها حلت عام ١٨٧٦ •

المترجم

(٩) المقصود هنا المجلة المقترح لنشأتها آنئذ بعنوان Deutsch - Frazösiahe Jahrbücher والتى صدر منها عدد واحد مضاعف الحجم فى عام ١٨٤٤ •

العصر معرفة ذاتية (فلسفة نقـدية) تتصل بنضالاته وأهدافه · هذه هى مهمة العالم ومهمتنا معه» ·

وصدر ماركس فى عام ١٨٨٠ «استقصاءه عن حالة العمال» بدعوة للعمـال الفرنسيين بان يجيبوا على أسئلة الاستبيـان ، طالمـا انهم فقط القادرون على ان يشخصوا «وبمعرفة كاملة ، الشرور التى يعانون منها» وهم «فقط ، وليس أولو المعرفة الملهمون ، القادرين على أن يضعوا موضع التنفيذ علاجا للامراض التى يعانون منها » ·

ولسنا ندعى هنا أن ماركس لم ينحرف مطلقا عن هذه الوجهة من النظر ، او انه لم يحاول مطلقا فرض مفهومه عن اهداف الطبقة العاملة والاساليب التكتيكية الملائمة لها · ولكن نشر وثائق الدولية الاولى(١٠) مؤخرا قد أوضح بجلاء كيف كان ماركس اقل تسلطية فى نشاطه السياسى، الأمر الذى تأكد من خلاله اتجاهه نحو «كميون باريس» وفشلها ، حقيقة أن مـاركس قـد أعطى فى بعض الأحيـان انطباعـا بالتزمت فى علاقته بالاشتراكيين ذوى الاتجاهات الأخرى ، غير أن ذلك قد يكون مرجعه الى الاثارة التى تظهر لدى مفكر عظيم وخلاق فى مواقفه مع افراد ليسوا فقط اقل قدرة ، ولكن ينقصهم أيضا الاخلاص للبحث العلمى الذى تميز بـــه ماركس · فقد كان برودون Proudhn ـ على سبيل المثال ـ مفكرا خياليا صرفا ، وكان باخونين Bakunin ثوريا انفعاليا ذا افـق ضيق · ولذلك فلم يستوعب أى منهما فكرة البحث العلمى الاجتماعى الدقيق ، بل أن أيا منهما لم يجر مثل هذا البحث ، ومن ثم فقد تعامل معهما ماركس بازدراء ربما قد لايكون مقبولا لنا الآن ، غير أن له ما يبرره على اى حال ·

لقد أبدى ماركس التزاما عميقا لم يتخل عنه فى كل اعمـاله (حتى فى كتاباته المبـكرة التى كان يحـاول فيهـا التخلص من براثن الفلسفة الهيجلية) بالبحث العلمى للحقائق الاجتماعية ، وظهر هذا الالتزام بجلاء

---

(١٠) Documents of the first International, Vol. 1, 1864 - 66. Vol. 2. 1866 - 68.

فى تصدير ماركس « لاستقصائه لحالة العمال » حينما ذهب الى القول بأن على هؤلاء الذين «يرغبون فى الاصلاح الاجتماعى ، أن يسعوا أيضا الى اكتساب المعرفة الوضعية الدقيقة المتصلة بالظروف التى تعمل وتعيش فيها الطبقة العاملة التى لها وحدها المستقبل» • ولقد فهم البعض الماركسية – متمثلة فى أعمال ماركس نفسه وفى أعمال اتباعه – على أنها محاولة لاخضاع الأفكار النظرية والبحوث الاجتماعية الى مثل أعلى اجتماعى مع تحديد اساليب هذا المثل الأعلى • ولقد اكدنا من قبل ان هذا الراى ليس صحيحا فيما يختص بماركس نفسه ، ذلك لأن هدفه المعلن كان يتمثل فى أن يوضح لعصره أهدافه التى يجب أن يسعى الى تحقيقها ، وأن يحدد للطبقة العاملة – بصفة خاصة – موقفها الحقيقى فى المجتمع الراسمالى ، وما تشتمل عليه ثورة هذه الطبقة فى مقابل هذا الموقف ، وما يمكن أن يترتب على حركة الطبقة العاملة من نتائج •

ومع ذلك فقد يكون من المفيد ان نفحص العلاقات بين الأحكام النظرية واحكام الواقع واحكام القيمة فى أعمال ماركس • والنقطة الأولى التى يجب ملاحظتها هنا هى أن الاشتراكية والعلم الاجتماعى كانا متداخلين فى حياة ماركس • فقد اصبح فى سن مبكرة – ربما بتأثير من مذهب سان سيمون – متعاطفا مع حركة الطبقة العاملة ، ولا شك أن هذا الالتزام بالاشتراكية عند ماركس قد سبق الصياغة الكاملة لنظرياته السوسيولوجية • رغم ذلك ، فانه كان ماخوذا « بعلم المجتمع الجديد » الذى بشرت به كتابات سان سيمون (وكذلك كتابات لورنز فون شتاين Lorenz Von Stein عن الحركة الاجتماعية فى فرنسا) ؛ وكانت قراءاته المؤخرة لمؤرخى الثورة الفرنسية وعلماء الاقتصاد السياسى كافية الى درجة دفعته الى الاعتقاد بأن هناك ميدانا جديدا ومنهجا جديدا لدراسة حياة الانسان الاجتماعية فى طريقهما الى الظهور ؛ وأن تطور الراسمالية وظهور الحركة العمالية يكونان الموضوع الأساسى لهذه الدراسة ؛ ومنذ ذلك الحين – حوالى منتصف الأربعينات من القرن تاسع عشر – سارت مشاركة ماركس فى الحركة الاشتراكية جنبا الى جنب مع جهوده لتطوير العلم النظرى للمجتمع ، ودعمت هذه المشاركة وتلك

الجهود كل منهما الأخرى · ولا يجب أن يثير ذلك أى قدر من الدهشة أو يبدو على أنه شيء غير عادى · فأعظم علماء العلوم الاجتماعية اهتموا اهتماما مبالغا فيه ببعض المشكلات الاجتماعية · وكانوا فى بعض الأحيان متحيزين متعصبين (وأنا افكر فى هذا السياق فى ماكس فيبر ، ودوركايم وباريتو) وربما يكون هذا هو السبب الرئيسى فى اهمية الأعمـــال التى قدموها والجدل الفكرى الذى أثارته · والسؤال الذى يثار بشأن هؤلاء يتعلق بما اذا كان هذا التحيز قد ظهر فى أعمالهم بوضوح ليس فقط فى مجرد اختيار موضوعات البحث ، ولكن فى المفاهيم والنماذج النظريـــة التى قدموها ، والتى تحولت الى نماذج مثالية مسرفة فى مثاليتها ، وفى تنفيذ وعرض بحوثهم ، التى أصبحت تنتقى بعناية ، ويتم صياغتها بحيث تخفى احتمال ظهور الأمثلة التى تتنافى معها ·

وتوجد عند ماركس بصفة خاصة (وعنـد آخرين ايضـا أشهرهم دوركايم) توجد مشكلة اخرى جوهرية · هل تحتوى النظرية ، او الأطار الفكرى العام ، على نظرية فى المعرفة تفرق بين الحقيقة والقيمة ؟ فى هذه الحالة يجب أن نأخذ بعين الاعتبار خصائص عديدة فى فكر مـاركس · فهناك فكرة الحتمية الاجتماعية للفكر ، والتى تبدو على أنها تحطم استقلال الاحكام القيمية ، ولكنهـا تحطـم فى ذات الوقت استقلال كل الاحـكام (بما فى ذلك الأحكام التى تكون نظرية ماركس نفسه ، الأمر الذى لايجعلنا بحاجة الى التساؤل عما اذا كانت هذه النظرية صادقة أم زائفة) · ولكن هذه المشكلة ليست قاصرة على نظرية ماركس فحسب : انها مشكلةكامنة فى أى نظرية حتمية ، بل فى أى نظرية علمية فى مجال علم النفس او علم الاجتماع · والحقيقة أنه يمكن القول فى مقابل ذلك أن احدى مزايا النظرية الاجتماعية التى قدمها ماركس تنحصر فى أنها سمحت بمجال أرحب لدور العمل الخلاق للعقل البشرى فى صياغته للنظم الاجتماعية(١١) ·

---

(١١) عرض ماركيوز فى كتابه « العقل والثورة » Reason and Revolution (New York, 1941). الفلسفة النقدية لماركس فى مقابل الوضعية السيولوجية لأوجست كونت فى ضوء هذا المعنى · واتبع مؤخرا نفس الأسلوب فى كتابه « مشـكلة المنهـج » Question de Methode (Paris, 1960) .

وهناك مشكلة اخرى اكثر تحديدا ظهرت فى نظرية ماركس عن الأيديولوجيات . فهى نظرية اخرجت العلم من نطاق الأفكار المحددة اجتماعيا ، ولكنها اضفت على الأفكار الأخلاقية طابعا ايديولوجيا خالصا من حيث أنها تعكس مصالح الطبقات الاجتماعية ، وفى ضوء هذه الرؤية تصبح الأفكار الأخلاقية نسبية ، ومع هذا فان ماركس قد عبر عما يبدو وكأنه احكام اخلاقية مطلقة ٠ واذا كان هذا صحيحا بحق ، فانه يعنى أن هناك تناقضا فى فكر ماركس ٠ولقد تم التعبير عن خلاف حول هذه المسألة بشكل مختلف الى حد ما كنتيجة للاهتمام بكتابات ماركس المبكرة ٠ والسؤال الذى تم طرحه هنا هو : هل توجد عند ماركس صورة ثابتة لجوهر (الذات) الانسان ، بحيث يغترب فى انماط معينة من المجتمع، وينجح فى بعضها الآخر فى ان تجد تعبيرا كاملا عن الذات ومن ثم يمكن النظر اليها على انها نموذج اخلاقى مثالى لأحد صور اخلاقيات تحقيق الذات ؟ أم أن جوهر الانسان ما هو الا ظاهرة تاريخية خالصة ، ومن ثم فلا يمكن مطلقا صياغة نموذج مثالى عام او معيار عام عن الأخلاق المرتبطة بهذا الجوهر ؟ لن نحاول هنا أن نقدم حلا لهذه المشكلة٠ فلم يحاول ماركس نفسه أن يحلها ، بل أن فكره حول هذا الموضوع يشوبه بعض الغموض ، كما أن الاسهامات التى قدمها بعض الماركسيين ــ كدراسة كاوتسكى Kautsky عن « الاخلاق والمفهوم المادى للتاريخ » لاترقى الى مستوى المناقشة الفلسفية الأصيلة ٠ وحسبنا هنا القول بأن أى تفسير لمفاهيم ماركس الاخلاقية على انها مفاهيم عقلية rationalist وتاريخية historical يعتبر تفسيرا ممكنا ومقبولا ٠ ذلك ان هذه المفاهيم مع اعترافها بوجود بعض الحاجات الانسانية الأساسية والدائمة التى يجب اشباعها ، ويمكن التعبير عنها فى شكل مثل اعلى اخلاقى ، قد نظرت الى هذه الحاجات على انها تتخذ اشكالا مختلفة فى اطوار تاريخية مختلفة للمجتمع ٠

وربما تمكننا وجهة النظر هذه من حل مشكلة اخرى فى نظرية الايديولوجيا عند ماركس فبالرغم من ان هذه النظرية تبدو نسبية الى حد كبير ، الا انها تكشف ــ فى ارتباطها بعناصر أخرى من نظرية ماركس ــ عن دوجماطيقية (تزمت) لاحدود لها ، وتفسير ذلك على الشكل التالى :

أكدت هذه النظرية على ان كل الأفكار الأخلاقية هى افكار طبقية ومن ثم فهى نسبية ، غير انها اكدت على ان الطبقة العاملة هى الطبقة الصاعدة في المجتمع الحديث (كما تكشف عن ذلك الأجزاء السوسيولوجية من النظرية) وبناء على ذلك فان الأفكار الأخلاقية لهذه الطبقة تسمو على افكار الطبقات الاخرى ، ومن ثم يجب ان يكتب لها وحدها الانتشار ٠ والنقد الذى يوجه للأهداف السياسية والاجتماعية للطبقة العاملة وحتى الى الوسائل التى تستخدمها هذه الطبقة لتحقيق اهدافها ، هذا النقد لايظهر الا من اوضاع طبقية اخرى ويجب ان يدان على انه اقل اهمية ٠ وبهذه الطريقة ليس بالامكان فقط تبنى موقف اخلاقى مطلق ، على اساس النظرة الأخلاقية النسبية ، ولكن بالامكان ايضا ان تستخدم نظرية الايديولوجيا لرفض اى اراء يتبناها المعارضون سواء اكانت اراء اخلاقية أم نظرية ٠

ومن النادر حقا ان يستخدم الماركسيون بالفعل النظرية بهذه الطريقة المقززة ٠ وقد يكون أكثر اهمية من ذلك ان نؤكد ان ماركس نفسه لم يقدم رايه بهذه الطريقة ٠ فنجد أولا فى تفكير ماركس النقطة التى سبق الاشارة اليها والتى تتصل بالجوهر الانسانى الثابت او الاخلاق الانسانية الثابتة ٠ ونجد ثانيا أن الفهم الواعى لافكار ماركس يكشف عن أنه لم يرفض على الاطلاق اية رؤية نظرية جادة لمجرد انها تعبر عن ايديولوجية غير بروليتارية ٠ فمنذ نقده لبايور Bauer فى كتابه « المسألة اليهودية» ومرورا بكتابه « فقر الفلسفة » وحتى معالجته النقدية للاقتصاد السايسى الحديث فى « راس المال » و « نظريات فائض القيمة » اخذ ماركس على عاتقه من حيث المبدأ ـ ان يوضح من خلال الحجج النظرية والبحوث الامبيريقية ، ان وجهات النظر التى يرفضها زائفة ،ولم يحاول الاشارة الى الأسس الايديولوجية التى تقوم عليها وجهات النظر هذه الا فى النهاية ، هذا اذا كان قد أشار اليها على الاطلاق ٠ وهناك مثال جيد على هذا المنحنى جاء فى احد الأجزاء المهملة من كتاب « الايديولوجية الألمانية » حيث نقد ماركس المذهب النفعى على اساس ان ارجاعه لكل العلاقات البشرية الى علاقة واحدة هى الفائدة قد انتهى الى فهم زائف لكل من

الطبيعة البشرية والحياة الاجتماعية · وفى ضوء هذه المعالجة النظرية فقط يقدم ماركس تفسيرا سسيولوجيا لهذا المذهب كايديولوجية تعكس بوضوح نفس العلاقات الاجتماعية التى تنتجها الراسمالية الحديثة ، ويبدو لنا أن كلا من التحليل السسيولوجى والتحليل النظرى — فى هذا المثال — مثمر بشكل غير عادى، وأنه بالامكان التقدم بالتحليل السسيولوجى خطوات أخرى ، كما فعل زيمل فى كتابه « فلسفة النقود » الذى تأثر فيه تأثرا شديدا بماركس ·

ومع ذلك ، فلسنا نرغب هنا فى الاشارة فقط الى الاستقامة العلمية لماركس على أنها كانت الضابط الوحيد على مظاهر حماسه الايديولوجى، حتى ولو كانت هذه الاستقامة العلمية تتناقض بشدة مع المنحى الذى نحاه بعض أتباعه · ذلك أن التحليل النظرى والولاء للحركة العمالية قد ارتبطا بشدة فى حياة ماركس وكان كل منهما يدعم الآخر · لقد تطورت الحركة العمالية بطريق تلقائى ، ويمكن لماركس أن يبرر بسهولة ادعاءه بأنه يحلل ويفسر عملية واقعية من عمليات التغير الاجتماعى · لقد كانت الهوة بين الطبقات تتسع ، وكان الوعى الطبقى ينمو بشدة ، وكونت العلاقة بين الطبقات جوهر المشكلة الاجتماعية ، والقت المذاهب الجديدة ، لتنظيمات الطبقة العاملة ، الضوء على المجتمع اللاطبقى الذى تنبأ به ماركس · وهكذا وجدت نظرية ماركس تدعيما امبيريقيا ، ولقد حقق اختبارها الامبيريقى فى ذات الوقت درجة من التدعيم العقلى والواقعى للاراء الاخلاقية لماركس · ويتضح الارتباط بين هذين الجانبين ايما اتضاح فى مشروع « استقصاء حالة العمال » الذى شرع فيه ماركس عام ١٨٨٠ ، والذى كان أولا وقبل كل شىء واحدا من سلسلة من المسوح الامبيريقية لأوضاع الطبقة العاملة ؛ ولكنه — ثانيا — حقق هدفا أبعد من ذلك حيث كان بمثابة محاولة لدراسة الطبقة العاملة عن طريق الطبقة العاملة ذاتها ، ولكى يجمع فى جهد بحثى واحد ، كلا من البحث الواقعى وزيادة الوعى الطبقى ·

وهنا يتبدى الاتفاق بين الهدفين الرئيسيين لاعمال ماركس · واذا ما تساءلنا عما اذا كان هذا التوفيق بين الهدفين شرعيا أم لا ،

فان الاجابة تكون بالاثبات القاطع · فاذا كان للعلم الاجتماعى أى جوانب تطبيقية فى الحياة الاجتماعية الفعلية ، فان أحد جوانبه التطبيقية الهامة يجب أن تؤكد على ضرورة نشر المعرفة بطبيعة العلاقات الاجتماعية فى مجتمع معين بغرض زيادة قدرة الأفراد على التنظيم الذاتى الواعى لحياتهم الاجتماعية · وفى المجتمعات التى تستبعد فيها طبقات برمتها من أن تلعب دورا ذا أهمية فى تنظيم الشئون العامة ، فانه من الصواب التركيز على ايقاظ وتنمية نوع من أنواع الوعى لدى هذه الطبقات بمكانها فى المجتمع ، وبالفقر المادى والفكرى الذى تعيش فيه ، وهدر حقوقها ، واستبعادها من بناء القوة القائم · ومع زيادة المعرفة بالمجتمع ، وزيادة التغيرات الطبقية ، يجب على الفكر السسيولوجى أن يتابع هذه الحركات ، ويراجع افتراضاتها المبدئية ، ويتفهم مواقع جديدة للبحوث الامبيريقية · وهنا يظهر الاختلاف بين ماركس واتباعه من الماركسيين · واذا ما أخذنا مثالا واحدا ، فاننا لا نعتقد أن الماركسية المتزمته قد قدمت اسهاما واحدا فى دراسة الطبقات الاجتماعية الحديثة · ومع ذلك فقد كان تاثير ماركس قويا الى أبعد الحدود ، وهناك دراستان توضحان كيف يمكن أن يكون هذا التأثير مثمرا ، طالما كان الباحث ماركسيا غير متعصب · احدى هاتين الدراستين نظرية وهى دراسة اوسوفيسكى Ossowski بعنوان « الوعى الاجتماعى بالبناء الطبقى » ، والأخرى تاريخية وهى دراسة تومسون Thompson عن « تشكل الطبقة العاملة الانجليزية » ·

وبعد فقد انصب الاهتمام فى هذا الفصل على اعادة تقييم النظرية السوسيولوجية التى قدمها كارل ماركس فى علاقتها بماركسيته · ولم نحاول أن نذكر شيئا ـ الا بشكل ضمنى ـ عن صدق أو فائدة نظرياته فى الوقت الحاضر · والسؤال الذى يطرح نفسه فى النهاية هو : هل ينتمى فكر ماركس ببساطة الى تاريخ علم الاجتماع ، أم أن جزءا منه يبقى حتى اليوم بمثابة عنصر هام فى الهيكل العام للنظرية السسيولوجية ؟ فى اعتقادنا أن الجانب الاخير من السؤال هو الصادق ـ ويعنى ذلك أن « نموذج الصراع » الذى قدمه ماركس ، وخاصة نظريته عن الطبقات ،

وتفسيره للايديولوجيات ، ونظريته عن الثورة يجب أن يجد مكانا فى النظرية السوسيولوجية ـ وان كان ذلك لا يمنع أن ننظر الى شق السؤال بنفس القدر من الأهمية • فعلم الاجتماع لا يشبه اى علم طبيعى ، حيث تتطور النظرية بطريقة خطية ، وحيث يكون تاريخ موضوع العلم هو تاريخ العلم ذاته ، الأمر الذى يجعل التاريخ غير ضرورى فى فهم المبادىء النظرية ؛ ان علم الاجتماع يشبه الفلسفة الى حد كبير ، حيث تتم دراسة المشكلات الاساسية من وجهات نظر مختلفة ، وحيث يشكل الالمام بهذه الاتجاهات المختلفة وظهورها المتتابع المحتوى النظرى لموضوع العلم • وبهذا المعنى فلسنا نعتقد اننا سوف ننتهى أبدا من اعادة تقييم كارل ماركس •

الباب الثانى

الطبقات وجماعات الصفوة

الفصل السادس : فى البحث عن البروليتاريا ·

الفصل السابع : البناء الطبقى والوعى الاجتماعى ·

الفصل الثامن : الطبقة والسياسة فى أوربا الغربية ·

الفصل التاسع : الصفوة الادارية ·

الفصل العاشر : الاتساق والانقسام فى جماعات الصفوة فى الهند ·

الفصل السادس

فى البحث عن بروليتاريا (١)

كتب الن تورين Alain Touraine يقول « يوجد الآن نمط جديد للمجتمع فى طور التشكل · ويمكن ان توصف هذه المجتمعات الجديدة بانها مجتمعات ما بعد الصناعة Post - industrial وذلك لتمييزها عن المجتمعات الصناعية التى سبقتها ··· كما يمكن ان يطلق عليها المجتمعات التكنوقراطية بسبب طبيعة القوة التى تتحكم فيها · أو يمكن أن يطلق عليها المجتمعات المبرمجة Programmed Societies وذلك اذا عرفناها فى ضوء طبيعة الأساليب الانتاجية والتنظيمات الاقتصادية »(٢) ·

ولا يختلف هذا الوصف عن أوصاف اخرى قدمها عدد آخر من الكتاب · فقد لاحظ برجنسكى Brezezniski ـ على سبيل المثال ـ أن « أمريكا تعيش فى خضم تحول يبدو أنه فريد ومحير ··· فهى لم تعد مجتمعا صناعيا ، فالتكنولوجيا والاليكترونيات فى سبيلها الى أن تطبع المجتمع بطابعها الى ابعد الحدود ، الامر الذى يجعل امريكا أول مجتمع تكنوقراطى »(٣) · وفى نفس الوقت اكد دانيال بل Bell فى مقاله المعنون « ملاحظات على مجتمع ما بعد الصناعة »(٤) على الأهمية

---

(١) اعيد نشره هنا مع تعديلات طفيفة من المصدر التالى :
New York Review Book, XV11 (6) (April 1972).

(٢) The Post - Industrial Society (New York, 1971) P. 3.

(٣) Zbigniew Brzezinski, " The American Transion " New Republic 157 (23 December 1967) PP. 18 - 21; Reprinted in : Information Technology in Democracy, Edited by Alan F. Westin (Cambridge, Mass, 1971) PP. 161 - 7.

(٤) The Public Interest 6 and 7 (Winter, 1967 and Spring 1967) PP. 24 - 35 and 102 - 18.

المحورية للمعرفة النظرية فى نظـام الانتـاج ، والتحول من الاقتصـاد الصناعى الى اقتصاد الخدمات ٠

وفى الوقت الذى تتشابه فيه من حيث المبدأ مختلف أوصاف المجتمع الجـديد ، تختلف التفسيرات المتصلة بالطـابع التـاريخى والامكانيات المحتملة لهذا المجتمع الجديد ٠ فبرجينسكى ، وبل ، يفهمان هذا المجتمع على انه مجتمع تم فيه التغلب على الانقسامات الاجتماعية الرئيسية(٤) ، واصبحت سيطرة جماعات الصفوة ذات الكفاءة الفنيـة العاليـة مقبولة تقريبـا ، كما اضحى الخط العـام للتطور يتحدد من خـلال عملية نمو اقتصادى متناغمة نسبيا ٠ وظهرهنا الادعاء بالقول بأن مثل هذا المجتمع لا يعرف أى مظهر من مظاهر الانشقاق الواسعة النطاق :

« فيبدو من غير المحتمل أن تظهر (فى هـذا المجتمع) ايديولوجية للعمـل السياسى قادرة على كسب ولاء واسع النطاق بنفس الطريقة التى ظهرت بها الماركسية كاستجابة للمجتمع الصناعى ٠٠٠ فالمفـكر المنشق ذو العقلية الايديولوجية ، وذو التوجية الانسانى ، والذى كان يقوم بدور فى اثارة مظاهر النقد الاجتماعى ، هذا المفكر قـد استبدل اما بخبراء ومتخصصين ممن اصبحـوا منخرطين فى مسئوليـات حكوميـــة ، أو مفكرين يعملون فى الواقع كمنظرين ايديولوجيين لأولئـك الذين يحتلون مراكز قـوة ، ووظيفتهم هى تقـــديم اطـار فكرى متـكامل للافعـــال المتناقضـة »(٥) ٠

ويختلف رأى تورين عن ذلك اختـلافا كليـا ٠ فقـد ذهب الى أن

---

(٤) وعبر عن نفس الفكرة ريمون آرون Aron فى الكثير من كتاباته عن المجتمع الصناعى الحديث خاصـــة فى مؤلفه المعنون :

— Progress and Disillusion (New York, 1968) P. 15

حيث كتب يقول : « توحى الخبرة بمعظم المجتمعات المتطـورة بان التنافس شـبه السـلمى بين الجماعات الاجتماعية يحل تدريجيا محل الصراع العنيف الذى يهـدف الى ان تستبعد طبقـة معينـــة طبقـــة اخـــرى » ٠ ولقـــد كان لدانيـــال بل ، بعض الاعتراضـــات على عرض لارائه وتم تبادل الحوار بيننا على صفحات :

New York Review of Books, XV111 (11) (15 June, 1973). P.38.

(٥) Brzezinski, OP. cit.

الصراع بين رأس المال والعمل قد بدأ يفقد أهميته المحورية فى المجتمعات الصناعية فى النصف الثانى من القرن العشرين ، غير أن اشكالاً جديدة من السيطرة domination (توجد فى المجتمعات الاشتراكية أيضا) بدأت تحرك بعض مظاهر جديدة للصراع الاجتماعى ـ بين هؤلاء الذين الذين انحصر دورهم فى المشاركة السياسية التابعة(٦) · فالطبقة المسيطرة الجديدة لم تعد تتحدد بناء على التملك ، ولكن بناء على « المعرفة وعلى مستوى معين من التعنيم » · وتنبع الثورة ضد هذه الطبقة من رغبة الطبقة التابعة فى التخلص من تبعيتها والشروع فى تحقيق قدر من الاستقلال · ولقد دعم تورين فكرة الطبيعة المتغيرة للصراع الاجتماعى هذه ، من خلال الاشارة الى ظهور حركات اجتماعية جديدة ، خاصة تلك التى شاركت بدور حاسم فى ثورة مايو ١٩٦٨ فى فرنسا · وعلق تورين على هذه الحركة قائلا :

« ينحصر احد الجوانب ذات الدلالة فى حركة مايو فى أنها قد أظهرت أن الحساسية تجاه الموضوعات الأساسية للصراع الاجتماعى لا تظهر فى القطاعات الاكثر تنظيما للطبقة العاملة · فلم يستوعب عمال السكك الحديدية ، وعمال السفن ، وعمال المناجم بوضوح ، الأهداف الراديكالية لهذه الحركة · وظهرت أكثر الحركات راديكالية وابداعا بين الجماعات ذات المستوى الاقتصادى الأفضل : فى هيئات البحث ، وبين الفنيين الذين يملكون المهارات دون السلطة ، وفى الجامعات بطبيعة الحال »(ص ١٨) ·

ولاحظ تورين أن ذلك الرأى لا يمثل تكرارا « لموضوعات غير ذات معنى مثل القول بنهاية الطبقة العاملة » · فمن المؤكد أنه « لا توجد حركة اجتماعية سياسية مهما عظمت أو وهنت درجة قوتها ، تستطيع أن

(٦) توجد المشاركة التابعة Dependent Participation عندما تصبح « علاقة الفرد الوحيدة بأساليب التوجيه الاجتماعى والثقاف لمجتمعه ، وهى تلك التى تختبرها الطبقة الحاكمة تتفق مع المحافظة على سيطرتها الخاصة ··· ان مجتمعنا هو مجتمع اغتراب ، لا بسبب أنه أفضى بالناس الى البؤس ، أو أنه يفرض ضوابط بوليسية ، ولكن لأنه ينتزع الولاء والتوافق انتزاعاً عن طريق الخداع والسيطرة والقوة » (ص ٩) ·

تنمـو دون أن تضم تحت لوائهـا الطبقـة العاملة ، والتى تضم السواد الأعظم من العمـال التابعين » · ولـكن السؤال المحـورى المطروح هنا يختلف الى حد ما ؛ وهو يتصـل بما اذا كان بامكاننا أن نفكر بعـد ذلك فى الطبقة العاملة ـ ووفقا للمنظور الماركسى ـ على انها المحرك الاساسى للصراعات الاجتماعيـة والاداة المتميزة للترميز التاريخى · ذهب تورين معتمدا فى تحليله بشكل اساسى على الحركات والصراعات الاجتماعية فى الستينات ، الى القول بأنه لايمكن :

« لحركة طبقية فى المجتمعات الحديثة ان تعبر عن نفسها من خلال النضال السياسى المباشر ورفض الاغتراب : بمعنى الثورة ضـد النسق الذى يقـوم على التـكامل والسيطرة · والشىء الجوهرى هنـا (يقصد فى الحركات الاجتماعيـة الجديدة) هـو التأكيـد المتزايد على الفـاعل السياسى والثقافى دون الفاعل الاقتصادى · وهـذا هو الاختلاف الكبير الذى يميز هـذه حركات عن الحركة العماليـة ، التى تشكلت لمعارضة الراسمالية الليبراليـة · ان هـذه الحركات ماتزال فى بدايتها بعـد ، ولكنها تتحدث دائما عن القـوة دون أن تتحدث عن المرتبـات والعمالة والملكية » · (ص ٧٤) ·

ويقترن ظهور هـذه الصراعات الاجتماعية الجديدة عنـد تورين بتطور مواجهـة فكرية بين نوعين من علم الاجتمـاع · فهناك من ناحية علم اجتماع القرار Sociology of decision وهو يهتم بالتحكم فى التوترات الاجتماعيـة ، والتكيف ، ومصالحة الجماعات المتخاصمـة · انه عـلم الاجتمـاع الذى يقـوم على شئونه ـ بمفهـوم برجنسكى ـ الخبـراء والمنظرون الايديولوجيون الذين يخدمون الـدولة · وهنـاك من ناحيـة أخرى عـلم اجتماع المعارضة Sociology of opposition وهو العلم الذى يسعى الى تفسير دلالة ، واتجاهات واهـداف الحركات الاجتماعية التى تدخـل فى صـراع مع المجتمع القـائم · واكـد تورين على ان هـذين الفرعين من علم الاجتماع يجب ان يناضلا من اجل تقديم تفسير للحقائق، بدلاً من الاقتصار على « تبرير الذات واجترار الايديولوجية » · ويصبح قيام علم اجتماع المعارضة ممكنا ، فقط ، عندما تتاح الحقائق التى يفسرها

هـذا العلم ، اى عنـدما يبدا المجتمع فى الاستجابة للتغيير ، ويشـرع فى تحديد اهـداف جديدة ، ويخبر « الصراعات الاجتماعية والثقافيـة التى يمكن من خلالها مناقشة اتجاه التغير » ٠

وظهرت بجانب هـذه المحاولة ـ التى بنيت على السياق الخـاص للمجتمع الفرنسى ـ لتحديد الاساس الاجتماعى للراديكالية الجديدة(*) وربطها بنظرية عن المجتمع، وتحديد علاقتها بالحركةالعمالية ، وبالماركسية، ظهرت بجانب هذه المحاولة ، محاولات مناظرة فى مناطق اخرى : فى المانيا فيمـا يعرف بالنظرية النقـدية ، وبدرجة اقـل من الصرامة فى البلدان الناطقة بالانجليزية فى كثير من كتب المدخل التى عالجت عـلم الاجتماع النقدى ٠ ويقدم كتاب البريش فيلمر(٧) Albrech Wellmer مدخلا مفيدا ـ بالرغم من عـدم سهولته ـ للنظرية النقدية ٠ ولقد تضمن عرضة لهـذه النظرية ثلاثة موضوعات اساسية مترابطة : اولهـا تطـور الافكار داخل مدرسـة فرانكفورت لعـلم الاجتمـاع ـ بـدءا من كتـابات هوركهايمر Horkheimer فى الثلاثينات وحتى كتابات هابرماس Habermas فى نهاية

(*) يشير مفهوم الراديكالية الى الفكر الاجتماعى والسياسى والسلوك العلى المرتبط به الذى يطالب بضرورة أحداث تغيرات جذرية ومباشرة فى النظم القائمة ، ولقد ظهرت الراديكالية مع ظهور حركة التنوير التى صاحبت الثورة الفرنسية ثم وصلت الى اقصى درجات اكتمالها فى المـاركسية ٠ ولقد ظهرت منذ الخمسينات من هذا القرن موجة من النقد والمعارضة فى المجتمعات الغربية جمعت فصائل من الطلبة والمثقفين والمتخصصين فى العلوم الاجتماعية (والتى ارتبطت بالحركات التى يتحدث عنها تورين هنا) ٠ واطلق على حركة النقـد والمعارضة هذه « الراديكالية الجديدة » تمييزاً لها من الراديكالية بصورتها التى عرفت فى القرن المـاضى ٠ كما ان تطلعى اليسار قبل ظهور هذه الحركة قد جعل من السهل وصف اى حـركة تظهر وتتخذ اتجـاها يساريا او نقديا بانها حركة جديدة ٠ هذا فضلا عن ان هذه الحركة الفكرية قـد رفضت بعض الأفكار المـاركسية كدور الفكر فى احداث الثورة ، والدور التاريخى للعمال ، الامر الذى جعلها تتميز بشدة عن الراديكالية المـاركسية ٠ وربما كان هذا هو السبب الرئيسى فى وصف هـذه الحركة الفكرية بالراديكالية الجديدة ٠ انظر :

R. Berki, " Marcuse and The crisis of New Radicalism " The Journal of Politics, Feb. 1972.

ولنظر ايضاً المرجع التالى :

أحمد زايد ، عـلم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية ، دار المعـارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ٠ الفصل السادس ٠ المترجم

(٧) Albrich Wellmer, Critical Theory of Society, (New York, 1971).

الستينات : وثانى هذه الموضوعات هو الارتباط بين هذا التطور والتغيرات التى طرأت على البناء الاقتصادى الاجتماعى للمجتمعات الرأسمالية الغربية ؛ اما الموضوع الاساسى الثالث فهو يميز النظرية النقدية عن التفسير الهرمنيوطيقى(*) (التأويلى) hermeneutic للأحداث الاجتماعية من ناحية وعن الماركسية من ناحية اخرى ٠

ظهرت بعض الأفكار الأولى لمدرسة فرانكفورت فى سلسلة من المقالات نشرت فى منتصف الثلاثينات(٨) ، اعتمد عليها فيلمر اعتماداً اساسيا فى تحليله ٠ وينظر علماء وفلاسفة مدرسة فرانكفورت الى أعمالهم النظرية باعتبارها جزءاً من النضال الثورى الذى تقوم به البروليتاريا ضد الرأسمالية ٠ لقد تمثل الموضوع الاساسى الذى وجه اليه نقدهم النظرى – كما هو الحال عند ماركس – فى الاقتصاد السياسى ؛ وذلك بسبب ظروف الفترة التاريخية التى كتبوا فيها – أعنى انهيار الرأسمالية ، والدور الهام الذى لعبته حركة الطبقة العاملة فى محاربة الفاشية (بالرغم من هزيمتها فى المانيا ، وبالرغم من تفاقم الانقسامات الداخلية بين الشيوعيين والفوضويين والاشتراكيين الديموقراطيين) ٠ ويعنى هذا أن مفكرى مدرسة فرانكفورت قد انشغلوا بتقديم تحليل لتناقضات الرأسمالية يهيىء لقيام نضال ثورى من أجل تحقيق الاشتراكية ٠

ومع ذلك فقد اضاف هوركهايمر فى هذا الوقت عنصراً آخر

(*) يميل المهتمون بالتفسير التأويلى للنصوص الأدبية الى ترجمة مصطلح Hermeneutics « بالتأويلية » بالرغم من احتفاظهم بالكلمة الانجليزية معربة مجانيا ٠ انظر : نصر ابو زيد ، « الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النص » مجلة فصول ، المجلد الأول ، العدد الثالث ٠ ابريل ١٩٨١ ٠ ويبدو ان كلمة « التأويلية » اقرب الى المعنى المستخدم فى علم الاجتماع من حيث انها تشير الى الفهم التأويلى أو الفهم الذاتى ٠
المترجم

(٨) ظهرت هذه المقالات لأول مرة فى Zeitschrift fur Sozialforschung وتم جمعها فى المؤلف التالى :

Max HorKheimer, Kritische Theorie (2 Vols. Frankfurt, 1968).

للنظرية النقـدية . فبالرغم من أن البروليتاريا فقـط هى القـادرة على أن تأخـذ النظرية النقـدية على انهـا تعبر عن الوعى الذاتى لنضالهـا السياسى ، فانها لا تفعل ذلك بالضرورة ؛ فموقف البروليتاريا « لايقـدم ضـمانا بمعرفة صادقة » . ومن ثم فان الثورة سـوف تتحقق فقط من خلال الارادة الواعيـة للجماهير اذا وجـدت على مستوى الفـكر وعلى مستوى تنظيم حركة الطبقة العاملة « عملية ناجحة للتعجيل بقيام المجتمع الرشـيد » .

وبعد أن تجـدد العمل فى مدرسـة فرانكفورت بعـد عام ١٩٤٥ ، اصبحت هـذه الفـكرة التى تؤكد على أن تحقيق الاشتراكية يقـوم على تأكيـد ضرورة خلق مجتمع متحرر ورشـيد ــ وهو أمر يجب أن يأخـذ شكلاً عمليـا فى تنظيمات جماهيرية ــ اصبحت هذه الفكرة ذات أهميـة متزايدة فى النظرية النقـدية ، وبنـاء على ذلك فقـد أضحى الاهتمـام بالاجهزة الثقافيـة والسياسيـة للرأسماليـة الحديثـة بديلاً للاهتمـام بتناقضاتها الاقتصادية . ولقـد جاءت أعادة التوجيه النظرى(*) هـذه كجزء من ردود الفعل نحـو الصياغة الستالينية للماركسية ، والتى ردت فيهـا الاشتراكية الى مجرد تعبير عن صورة المجتمع ، التى ظهرت الى الوجود بشـكل ميكانيكى ، كنتيجة التحول الاقتصـادى الذى تم انجازه تحت قيـادة الحزب الشيوعى ؛ وان كانت قـد جاءت ايضـا كاستجابة للوضع الاجتمـاعى للطبقـة العاملة الذى طرأت عليـه بعض التغيرات كنتيجة لجنيها لثمار الرأسمالية الخاضعة لتوجيه الدولة .

ولقـد اهتم فيلمر اهتماما خاصا بأول هـذه التأثيرات ، وذلك فى فصـل بعنوان « الوضعية المستترة فى فلسفة التاريخ عند ماركس » . واكتشف هـذه الوضعية فى مفهوم ماركس عن « العلم الطبيعى » للتاريخ البشرى ، حيث يفهم النشاط البشرى ــ بمعنى الابداع الذاتى للانسان ــ

(*) المقصود هنا اعـادة النظر فى التحليلات التى قدمتهـا المـاركسية بشـأن التغير الثورى ودور الجماعات المختلفة فيه .

المترجـم

على انه مجرد عمل Labour ، بمعنى انتاج الاشياء · لقد نظر ماركس الى تتابع الأشكال المختلفة للانتاج - بما فى ذلك التحول الى المجتمع اللاطبقى - على انها عملية ضرورية حتمية · وبالرغم من أن ماركس قد عبر (خاصة فى كتاباته البكرة) عن فهم مختلف للنشاط البشرى على انه التفاعل الانسانى او الممارسة الفعلية Praxis (٩) ، فان المفهوم الوضعى - وفقا لما يذهب اليه فيلمر - قد سيطر على افكار ماركس كما سيطر على الماركسية فى صورتها المحدثة · ويمكن صياغة هذا المفهوم الوضعى فى قضية تفيد « بأن تعاظم نمو التقدم التقنى - والذى بدأ بظهور نمط الانتاج الراسمالى - يجب أن يفهم على انه تعاظم فى نمو الحرية » (ص ٧٣) · ويذهب فليمر الى أن هذه القضية « تمثل نقطة بداية لتغير تكنوقراطى خاطىء للتاريخ ، الذى يصبح واقعا عمليا من خلال مجموعة من المديرين ذوى المعرفة . يمثل وجودهم ضرورة تاريخية » (ص ٦٩) ·

ويمكن أن نكتشف درجة انحراف النظرية النقدية عن الماركسية من الخلاصة التى توصل اليها فيلر :

« ما دام التاريخ نفسه ، قد خيب كل الآمال فى ايجاد وسيلة للتحرر تقوم على اساس اقتصادى ، فليس من الضرورى فقط أن ينصب التحليل النظرى على تكوينات جديدة كلية من الابنية التحتية والفوقية · فالحقيقة أن نقد وتغيير البناء الفوقى له اهمية جديدة وحاسمة بالنسبة لحركات التحرير · فمن اجل اعادة صياغة رؤية ماركس للمستلزمات الاساسية لثورة ناجحة فى البلدان الراسمالية ، يصبح من الضرورى أن نتحدث عن الاشتراكية الديموقراطية ، والعدالة الاشتراكية ، والاخلاق الاشتراكية ، والوعى الاشتراكى ، ضمن مكونات المجتمع الاشتراكى ،الذى يجب أن ينمو فى رحم النظام الراسمالى » (ص ص ١٢١ - ١٢٢) ·

---

(٩) انظر مناقشة مفصلة لهذه القضية فى المصدر التالى :
Jürgen Habermas, Knowledge and Interests (London, 1971).

وأخيرا فقد ذهب فيلر الى أن مفهوم ماركس عن الطبقة قد فقد ـ الى حد كبير ـ فائدته كاداة تحليلية . فامكانية التنوير قائمة فقط بالنسبة لهؤلاء الذين يشاركون بطريق مباشر أو غير مباشر فى العلم . وذلك لأن العلم قد اصبح اسلوب حياة بالنسبة للمجتمعات الصناعيـة . وبذلك فلم يعد بالامكان تفسير التعـارض بين الفكر النقدى والفكر التقليدى وفقا للمعنى السياسى الخالص كتعبير عن الصـراع الطبقى ، ان مثل هـذا التفسير يجب أن يقـوم على اساس من العـلم ذاته ـ اى فى الجامعات بعبـارة اخـرى .

ويبدو ان هـذا التصور الاخير للنظرية النقـدية يحيل النضال من اجـل تحقيق مجتمع جديد الى مجرد تنافس فـكرى . وهى صياغة تقف على النقيض من صياغة تورين ، التى بالرغم من انهـا انطلقت من افكار مشابهة عن دور العلم فى عملية الانتاج وتقلص الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا ، قد فهمت مظاهر العداوة فى مجتمعات ما بعـد الصناعة على انهـا تتجسد فى صراعات سياسية بين طبقات جديدة . فقـد اكد تورين على الاستمرارية التاريخية للحركات الاجتماعية والايديولوجيات ، وادرك أن الطبقـة العاملة ماتزال تشـكل عنصـرا حيويا فى أى حركة راديكالية ، على الرغم من تغير ظروف حياتها .

ولـكن النظرية النقـدية التى قدمهـا فيلمر تهمل الماضى وتفصل نفسهـا فصلا تاما عن حركة العمال التقليدية . والاخطـار الكامنة فى مثل هذه النظرة لا تخفى على كل ذى عين . فبالامكان وفقا لهـذا التصور ان تنحصر النظرية النقدية داخل وسـط فكرى ضيق يقـدم نقـدا متسقا ولاذعا ، ولكنه يائس امام عالم اطفئت فيـه الرغبة فى التحرير . بحيث لا يمتلك الناقد من القـوة ما يمكنه من تغييره . والحق أن هـذه هى نفس الصـورة التى قدمهـا ماركيوز فى كتـابه « الانسـان ذو البعـد الواحد » . وكما لاحظ فيلمر نفســه ، فان النظرية النقدية قـد اعتبرت نفسها ـ فى تطورها الأخير من خلال أعمال ادورنو Adorno وهوركهايمر وماركيوز ـ « ضـربا من ضروب الاحتجاج ، غير انه احتـاج عقيم فى الواقـع » .

ولقد تغلبت الحركة الراديكالية للطلاب لبعض الوقت على الميل نحو التشاؤم والانسحاب الذى ظهر فى أعمال ماركيوز ؛ ولكن هذه الحركة نفسها قد أثبتت أنها حركة محدودة ، وغير مؤكدة بحيث تعجز عن تقديم نواة لقوة تستطيع أن تغير المجتمع بحق · لقد حاول فيلمر ـ الذى لم يكن راغبا فى قبول المعارضة العقيمة بين الناقد المستنير ، والدنيا التى طغى عليها الجهل ـ ان يحل المشكلة من خلال ربط النظرية النقدية بمهمة توضيح « التناقضات بين المجتمع على النحو الذى يبدو عليه ، وما يمكن ، وما يجب أن يكون عليه فى ضوء امكانياته التقنية المتاحة ومعانى « الحياة الخيرة » المعترف بها داخله · وفى هذه الحالة فان الاختبار النهائى للنظرية سوف ينحصر فى أن يرى اعداد كبيرة من الأفراد ، هذا التناقض ومن ثم يدخلون فى نضال من أجل تحقيق « الحياة الخيرة » كما يرونها ، معارضين بذلك الحياة القائمة بالفعل ·

ويعد ذلك استرجاعا لما أعلنه ماركس (عام ١٨٤٣) حيث قال « اننا نطور مبادىء جديدة للعالم من خلال مبادئه القائمة بالفعل ··· ونميط اللثام عن الطبيعة الحقيقية لنضالاته ··· ونفسر افعاله » · غير أن ما ينقص النظرية النقدية هنا هو شىء يناظر اكتشاف ماركس بعد ذلك للبروليتاريا ؛ بمعنى تحديد جماعات اجتماعية فعلية ، تنخرط بالفعل فى العديد من الصراعات ، بحيث تفسر افعالها بأنها تنمو فى اتجاه رفض عام للصورة الموجودة من المجتمع ومحاولة اقامة نظام اجتماعى جديد · ومن هذا المنطلق فان المناقشة الفلسفية التى قدمها فيلمر تعتبر مناقشة غير شاملة ، وربما مضللة من حيث أنها تميل المشكلة برمتها الى مناظرات علمية ، فهى بحاجة الى أن توسع من نطاقها لتصل الى مستوى البحث السوسيولوجى الذى قدمه تورين ·

أما الصلة التى تربط بين عمل فيلمر وعمل تورين فهى محاولة كل منهما تقديم نظرية بعد ـ ماركسية لمجتمع ما بعد الصناعة · لقد قدم نورمان بيرنباوم Norman Birnbaum فى مجلد يضم مجموعة

مقـالات(١٠) (كما فعـل فى كتـابه السـابق بعنـوان «ازمـة المجتمع الصناعى »(*) ، قـدم تحليلا دقيقـا للتغيرات التى حدثت فى المجتمعات الصناعية ، بالاضافة الى تقييم نقـدى للمحاولات التى بذلت لفهم هـذه التغيرات • ولقد عرض راية العام حول هـذا الموضوع فى مقال بعنوان « الراسماليـة الحبيثـة فى الولايات المتحـدة » حيث كتب يقـول « ان ما نواجهـة هو موقف يكشف عن قدر من اللاتحـدد التاريخى ••• ان الموقف الـذى نواجهــه لا يشـبه الموقف الذى واجهه الرعيـل الأول من الماركسيين فى وجـود قوى تاريخية جديدة » • بل ان برنباوم قد اخضع ـ فى واحـد من اجـود مقالاته ـ الماركسية نفسها لتحليل نقدى حـدد فيـه مظاهر النقص الاساسية التى تعانى منهـا على النحـو التـالى : الصعوبات المرتبطـة بفكرتى الطبقـة والصـراع الطبقى فى مجتمعات اواخر القرن العشرين ؛ الفشـل فى تحليل القـوة السياسية بطريقـة اخـرى تختلف عن تاكيـد اعتمـاد هـذه القوة على موقف الطبقـات الاجتماعيـة ؛ واهمال التغيرات الثقافية وما يمكن ان تتركه من تاثيرات على الحياة السياسية •

وفى مكان اخر من كتابه فحص بيرنباوم بعض الافكار والتفسيرات التى ظهرت ، اما كمراجعات للنظرية الماركسية ، او كبدائل لها ، واثبتت انه منصف الى حد بعيد كناقد لهـذه الصياغات النظرية الجديدة وللصور الدوجماطيقية والمتزمتة للماركسية نفسهـا • ولقد لاحظ بيرنباوم بعـد ان استعرض بعض الكتابات التي تناولت فكرة « ثورة ما بعد الصناعة » Post - Industrial Revolution ان هذه الفكرة « لا يمكن استخدامها فى مناقشـة جـادة دون ان يكون مستخدموها على استعـداد لأن يضطلعوا بمهمة تحديد القـوى الاجتماعية الموجودة فى خضم هذه الثورة تحديدا

---

(١٠) Norman Birnbaum, Toward a Critical Sociology, (New York,1971).

(*) انظر عرضا مفصلا لهـذا الكتاب باللغـة العربية قـدمه عزت حجـازى فى مجلة عالم الفـكر فى مـجلدها الثالث ، المجـلد الثانى ، ١٩٧١ •

المترجم

دقيقا ، وكذلك اتجاه هذه القوى ، والنتـائج المترتبة عليها فيمـا يتعلق بمستقبل المجتمعـات الصناعية » • (ص ٤١٤) (هذا بالرغم من أن ذلك بالضبط هـو ما فعله تورين) • واكد بيرنباوم فى مكان سابق من هـذا المقال ، الأهميـة المستمرة لتركيز الملكيـة الخاصة ، رافضا الفكرة التى تقول بأن المجتمعات الصناعية تسيطر عليهـا الآن صفوة تكنوقراطية • ولكنـه أدرك فى نفس الوقت أن الصفوة التكنوقراطيـة أو الصفوة التى تتسلح بالمعرفة والتى لاتستحوذ على ملكية ، ما هى الا ظاهرة ذات دلالة فى هذه المجتمعات •

والسؤال المطروح الآن هو الى أى حـد تفتح هذه المقالات الطريق أمام عـلم اجتماع نقـدى ؟ المحقق أنها تقـدم نقدا عميقا وشاملا للكثير من التفسيرات المعاصرة للتغيرات التى تحـدث فى المجتمعات الصناعية (مثال ذلك تشريح بيرنباوم لفـكرة روزاك Roszak عن الثقافة المضادة)• وقد ساعدت هذه التفسيرات على كشف مظاهر عـدم الاتفاق والغموض بين المفـكرين الراديكاليين • غير أنهـا لم تحاول صياغة نظرية نقـدية بديلة • وربمـا يكون ذلك بمثابة انكار للذات له ما يبرره فاذا كان موقفنا يتسم باللاتحـدد التـاريخى كمـا ذهب بيرنباوم ، فان بامـكان الفـكر النقـدى ــ بالرغم من اهتمامه المتزايد بهـدف اقامة مجمتع متحرر ــ أن يعكس هـذا الوضع من الناحية الوضعية والتفسيرية ، بل يجب عليه أن يفعل ذلك •

وفقا لما سبق فان أحد مظاهر الخلاف الفكرى داخل الحركة النقدية يرتبط بدرجة عدم وضوح وتحدد الموقف الذى نعيش فيه ، وغدم وضوح الرؤية فى المستقبل • ويبـدو أن الخـلاف فى وجهـات النظر بين فيلمر وتورين من ناحيـة ، وبيرنباوم من ناحية أخـرى ينبع من الاختـلاف فى البيئات الاجتماعية التى يمارسون فيهـا نشاطهم • فالنـاقد الاجتماعى فى كل من فرنسا والمانيـا يشكل اراءه داخل حركة العمـل الاشتراكية وفى اطـار تراث مؤثر للفـكر الماركسى • ومن ثم فان التغيـرات التى طرأت على طابع الطبقـة العاملة (وعلى البنـاء الطبقى بصفـة عامة) والمشكلات التى تثار داخل الماركسية فى محاولة فهم هذه التغيرات ، قد

تدفع المفكر الناقد الى مراجعة الماركسية ، أو صياغة نظرية جديدة ، تقوم على أساس من الماركسية · ويظهر هذا العمل النقدى وهذا التجديد الفكرى فى وسط مايزال يزخر بالحركات الاجتماعية النشطة ذات الانتشار الواسع والتى تنخرط فى نضال سياسى من أجل تحقيق المجتمع الاشتراكى ·

اما فى الولايات المتحدة الأمريكية فان غياب الحركة العمالية الاشتراكية ، وكذلك أى أساس متين للفكر الماركسى يعنى ـ من وجهة نظر الفكر النقدى ـ أن الموقف الاجتماعى لا يتسم بالتحدد لفترة من الوقت ، وبناء عليه ، فان مظاهر الغموض التى تشوب الموقف الحالى تعد تكرارا ـ على نطاق أوسع ـ لتلك التى ظهرت فى وقت سابق فى هذا البلد · ولقد اعترف ريتشارد فلاكس Richard Flacks بذلك فى مقال حديث(١١)، اعتمد على مناقشات دارت بين جماعة من العلماء الاجتماعيين من ذوى الميول الراديكالية ·ذهب فلاكس الى القول بأنه من المفيد ، لكى نثير الأعمال الفكرية التى تساعد على تحقيق تحول اجتماعى ، أن نحدد الهدف على النحو التالى : اذا تصورنا أن حركة اشتراكية منظمة ، أو حزبا اشتراكيا منظم منظما قد وجد فى الولايات المتحدة ، ما هى المهام التى كان على علماء الاجتماع الذين يناصرون هذا الحزب أن يقوموا بها ؟

وحدد فلاكس ، منطلقا من هذا الافتراض ، حدد المشكلات الرئيسية التى ستشكل موضوع علم الاجتماع النقدى ، وهى مشكلات بعضها نظرى ولكن معظمها امبيريقى : وتشبه هذه المشكلات الى حد كبير تلك التى بنى عليها تورين تحليله ـ امكانيات المجتمع الصناعى من منظور اشتراكى ، ومسالة ومسائل التغيير الممكنة ، والطرق التى من خلالها يمكن أن تطور الجماعات الاجتماعية الجديدة ـ من مثقفى العمال والفنيين والمديرين ـ نظرة راديكالية وفعلا سياسيا راديكاليا ·

---

(١١) R. Flacks. " Toward a Socialist Sociology : Some Proposals for work in the Coming Period " The Insuragent Sociologist, 11 (2) (Spring 1972). .. ..

وحدد فلاكس بناء على ذلك بعض المشكلات المرتبطة ببحث هـــذه الموضوعات نشير منهـا الى المشكلات التالية (والتى لخصتها من اجزاء مختلفة من مقاله) : الى اى حد يمكن أن تقلل التكنولوجيا القائمة من العمل البشرى الرتيب ؟ ما هى الحواجز السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التى تمنع هذا التطور فى المجتمع الرأسمالى ؟ هل نظرية ما بعد الصناعة **Postindustrialism** يمكن أن تنشر فى بلد واحد(*) ، وهل يمكن قيام المجتمع ما بعد الصناعى بدون امبريالية ؟ وما هى درجة استعداد الأمريكين (ومن منهم بالتحديد) للتضحية باثمان بعض السلع والبضائع ، لتستخدم فى تخفيض كمية العمل ، وتحسين البيئة الطبيعية والحضرية ، وتحقيق حيـاة افضل فى المجتمع المحلى ، وتقديم مزيد من التعليم والخدمة الصحية وغيرهما من الخدمات ؟ ما هى الدلائل التى تشير الى وجود وعى جديد لدى الطبقة العاملة (بين العمال المتعلمين على سبيل المثال) ؟ ما هى الروافد الاساسية لتدعيم أو مقاومة حركات التغير الراديكالى الموجودة بالفعل ؟

اما الاختبار النهائى لعلم الاجتماع النقدى او علم اجتماع المعارضة، فانه يرتبط بتطور ، أو عدم تطور ، حركات اجتماعية واسعة النطاق تهدف الى اقامة شكل للحياة يقوم على المساواة وعدم القهر ، وتشرع بالفعل فى اقامة هذه الحيــاة · ومع ذلك تظل النظرية قائمة على المســـتوى الافتراضى · وما يبرر وجودها ، ويجعــل البحث النظرى فيهـا جـديرا بالاهتمام ، هو احتمال تجدد النشاط الذى يهدف الى تغيير المجتمع بنفس الطريقة التى عبرت عنها حركة العمال والحركات الاجتماعية الجديدة فى العشر سنوات الماضية ·

(*) اى فى دولة واحــدة دون كل المجتمعات المتقــدمة ·

المترجــم

الفصل السابع

البناء الطبقي والوعي الاجتماعي (١)

في الصفحات الأولى من كتاب « التاريخ والوعي الطبقي »(٢) صاغ لوكاتش Lukács رؤية متميزة للماركسية على النحو التالي : « لا تخرج (النظرية الماركسية) عن كونها تعبيرا بالفكر عن العملية الثورية نفسها » . ولقد أعاد لوكاتش صياغة هذه الفكرة المحورية بصور مختلفة عبر

---

(١) اعيد نشره من المصدر التالي :

Istvan Mészàros (ed.) **Aspects of History and Class Consciousness** (London, 1971).

(٢) نشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٢٣ تحت عنوان **Geschichte Und Klassenbewusstsein** ويحتوى الكتاب على ثمانية مقالات نشر بعضها قبل هذا التاريخ في صورة تختلف قليلا عن الصورة التي ظهرت بها في الكتاب . ولقد اتهم المثلون الرسميون للماركسية الكتاب ، بعد نشره مباشرة ، بأنه تحريفي **revisionist** وذو اتجاه اصلاحي **reformist** ومثالي **idealist** . ولقد جاء هذا النقد بصفة خاصة من بوخارين **BuKharin** وزينونيف **Zinoviev** في المؤتمر الخامس للدولية الشيوعية المنعقد في عام ١٩٢٤ . ولقد تنصل لوكاتش نفسه في بداية الثلاثينات من كتابه هذا ، ولم ينشر الكتاب بعد ذلك الا في عام ١٩٦٨ بعد خمسين عاما تقريبا من ظهور المقالات المبكرة فيه . واحتوت الطبعة الجديدة على تصدير - مؤرخ في مارس ١٩٦٧ - ناقش فيه لوكاتش بعض التغيرات التي طرات على أصالة واعاد فحص بعض الأفكار التي كان قد صاغها في بداية العشرينات بروح نقدية . وسوف اشير الى اعادة التقييم النقدي الذي اجراه لوكاتش خلال المناقشة الموجودة في هذا الفصل . وحسبنا هنا ان نقول انه بالرغم من التفسير الذي اضافه لوكاتش الى جانب مناقشات اخرى ، فما يزال غير واضح بشكل تام لماذا ادان الماركسيون الرسميون الكتاب بشدة ، خاصة وان لوكاتش قد عبر عن فكرة الدور المسيطر للحزب الشيوعي بطريقة تتفق تماما مع اللينينية والستالينية . ولذلك فانه من الاهمية بمكان ، وقد اصبح كتاب لوكاتش متاحا مرة اخرى ، ان نعيد النظر في التاريخ الفكري للماركسية في العقد الذي تلا الحرب العالمية الاولى ، حيث تمت مراجعة الكثير من افكارها في اطار الثورة الروسية وغيرها من الحركات الثورية .

صفحات الكتاب • وعلى سبيل المثال فقد شخص المادية التاريخية فى احد مقالات الكتاب على أنها « الوعى الذاتى للمجتمع الراسمالى » ، وذهب فى مكان آخر ـ وفى اطار تحليله لنظرية المعرفة فى الفلسفة البرجوازية ـ الى ان المشكلات التى تظهر من الفصل بين الذات والموضوع ، يمكن حلها فقط عندما يبدو كيان تاريخى بمثابة ذات وموضوع فى نفس الوقت : بحيث يعبر بالفكر (كذات) عن الممارسة التاريخية (كموضوع) • والبروليتاريا فى المجتمع الراسمالى هى التى تمثل هذا الكيان التاريخى الحاوى للذات والموضوع •

ومنذ البداية فان التصور الذى قدمه لوكاتش للماركسية يثير بعض المصاعب • فقد ذهب الى ان الماركسية ما هى الا تعبير بالفكر عن العملية الثورية ؛ غير ان النظرية الماركسية نفسها هى التى تخبرنا بأن هـــذه العملية موجودة بالفعل ، محددة خصائصها • واذا حاولنا صــياغة المشكلة بطريقة اخرى : فان الماركسية تعتبر الى حد ما نظرية لايديولوجيات الطبقة ، ورغم ذلك فانها تعتبر (او انها تفهم على هذا النحو) ايديولوجية طبقة ؛ ومن ثم فان صدقها او اهميتها كايديولوجية يعتمد بشكل ما على صدقها كنظرية • ولقد ادرك لوكاتش ـ وناقش ذلك باختصار ـ الصعوبة التى تظهر من حقيقة ان المادية التاريخية يجب ان تطبق على نفسها(*) ؛ وكان حله لهذه الصعوبة هو ان الماركسية تعد صادقة فى اطار شــكل اجتماعى معين من اشكال الانتاج ، هو الشكل الراسمالى الحديث ، وهو بهذا يقر بوجود نوع من النسبية المقيدة qualified relativism (٣) • غيـر ان لوكاتش لم يستفض فى هذا الجانب من المشكلة التى تعد اهم ما اثير فى اعماله من مشكلات ؛ بمعنى أنه اذا كانت الماركسية تفهم على انهــا شكل من اشكال الوعى الطبقى ، فان ذلك يتضمن مسبقا النتيجة التى توصلت اليها كنظرية ـ والتى تفيد بان الطبقات والصراع الطبقى والوعى الطبقى موجودة كقوى تاريخية اساسية • ويستند كتاب لوكاتش على

(*) بمعنى فهم ظهور المـادية التاريخية من خلال منهج المـادية التاريخية نفسـه ، او بمعنى آخر تطبيق المنهج المـادى التاريخى على نشأة المـادية التاريخية كنسق من الافكار • المترجـم

(٣) Lukács, Op. cit, (French trans). P. 263.

هذا الافتراض المسبق الامر الذى اضفى على المناقشة طابعا خاصا . فهى ليست مناقشة نظرية او امبيريقية وانما هى مناقشـة ايديولوجية خالصة ، بمعنى انها تهتم بالاسلوب الذى يجب ان تفهم به الماركسية لكى تكون أداة فعالة فى ايدى البروليتاريا الثورية ٠

ولسنا هنا بصدد دراسة الملامح العامة لتفسير لوكاتش للماركسية، وانما نود أن نلقى الضوء على تحليله للوعى الطبقى(٤) ٠ ومع ذلك فانه مادام لوكاتش قد عرض منهجه فى كتاب « التاريخ والوعى الطبقى » ، ومادام هذا المنهج يرتبط ارتباطا خاصا بفكرة الوعى الطبقى ، فانه سوف لا يكون بمقدورنا تجنب بعض الانطباعات العـامة حـول فهم لوكاتش للمنهج الماركسى ، أو لما أسماه « بالماركسية المتزمتة » ٠

تتبع لوكاتش فى مقال « الوعى الطبقى » التطور التاريخى للطبقة العاملة فى المجتمع الراسمالى ، ولاحظ بصفة خاصة الفروق العامة بين ظاهرة الطبقة كما تظهر فى هذا الشكل من المجتمعات والظواهر المشابهة فى اشكال اخرى للمجتمع سبقت هذا الشكل الراسمالى ٠ ومن خلال تتبع المؤشرات التى عرضهـا ماركس ـ خاصـة فى كتـابه « فقر الفلسفة » وجزء من كتابه « الايديولوجية الالمانية » حيث ذهب الى ان الطبقة تعتبر بمعنى معين من اختراع البرجوازية ـ اكـد لوكاتش على خاصيتين الأولى ان الطبقة تتجلى فى المجتمع الراسمالى فى صورة قومية اكثر من كونهـا رابطة اقليمية ؛ والثانية أن الطبقتين الرئيسيين فى المجتمـع الراسمالى ـ البرجوازية والبروليتاريا ـ همـا طبقتان « خالصتان » "Pure" Classes من حيث أن طابعهمـا الاقتصـادى ومصالحهمـا تتضح بجلاء ولا تختلط بأى انواع اخرى من العلاقات ، ونظر لوكاتش الى هذه الخصائص ـ مقتفيا اثر ماركس ايضا ـ على انها شىء مرغوب فيه

---

(٤) من بين المقالات التى اشتمل عليها الكتاب « التاريخ والوعى الطبقى » هناك اربعة مقالات تعتبر اكثر اهمية بالنسبة للمناقشة التى نعرضها هنا ، وهى : « ما هى الماركسية المتزمتة » (مارس ١٩١٩) ؛ « الوعى الطبقى » (مارس ١٩٢٠) ؛ « التحول المادى والوعى البروليتارى » (١٩٢٣) ٠

مرحليا من اجل تطور وعى الطبقة العاملة . ولكن الشىء الجديد بالاعتبار هو أن لوكاتش لم يتقدم عما جاء به ماركس بالفعل ، سواء فيما يتعلق بتتبع تاريخ حركات الطبقة العاملة منذ وقت ماركس ، أو فيما يتعلق بدراسة بعض الصعوبات التى تقف أمام نمو وعى الطبقة العاملة فى المجتمع الراسمالى دراسة تاريخية ، فضلا عن المصاعب الكامنة فى تفسير طابع هذا الوعى ومساره ٠

فمن المشكلات التى لم يعالجها لوكاتش ، التناقض بين كل من موقف البرجوازية وموقف البروليتاريا ٠ فمن الواضح ان ماركس قد أسس نموذجه فى تطور الطبقات والوعى الطبقى على ظهور البرجوازية فى المجتمع الاقطاعى ؛ على أن هناك فروقا هامة بين هذه العملية والتطور اللاحق للطبقة العاملة ٠ فالبرجوازية الناشئة داخل المجتمع الاقطاعى تعتبر طبقة ثالثة . وليست هى الطبقة التى تمارس الاستغلال بشكل مباشر ، وقد ارتبطت ارتباطا وثيقا بنمط الانتاج الجديد القائم على تكنولوجيا جديدة ٠ اما موقف البروليتاريا فى المجتمع الراسمالى فهو قريب الشبه بموقف الفلاحين فى المجتمع الاقطاعى ، فالطبقة العاملة الصناعية ، مثلها مثل الفلاحين فى المجتمع الاقطاعى ، لا ترتبط ارتباطا واضحا بشكل انتاجى جديد اكثر تقدما ٠ فهى تخضع لنمق انتاجى قائم بالفعل وهو يحدد مصيرها ٠ ولقد عبر ماركس ذات مرة بشكل مجازى عن الفرق بين الاقطاع والراسمالية على النحو التالى : « تعطيك الورشة اليدوية مؤشرا على مجتمع به سيد اقطاعى ، اما الورشة البخارية فانها تعطيك مؤشرا على مجتمع به رأسمالى صناعى » ٠ وبناء عليه يمكن صياغة المشكلة التى نثيرها هنا بطريقة مبسطة من خلال السؤال التالى : ما هى نوعية الورشة التى تنتج المجتمع اللاطبقى أو المجتمع الاشتراكى ؟ ومن اجل التوصل الى اجابة على هذا السؤال من الضرورى أن نبحث — على المستويين البنائى والتاريخى — دور الطبقة العاملة فى تطوير تكنولوجيا جديدة أيا كان نوعها تؤدى الى خلق المجتمع الجديد فى المستقبل ؛ أو أن نثير القضية بشكل مختلف تماما بالقول بأن الطبقة العاملة تمتلك قدرا من الحرية لم تكن تمتلكه اى من الطبقات السابقة ،

منها أنها قادرة على الدخول بوعى فى نضال مستقل من أجل تحقيق النمط الجديد من المجتمع دون أن تكون حاملة لأى قوى تكنولوجية جديدة(٥) ٠

ومن المشكلات الأخرى التى لم يهتم بها لوكاتش مشكلة ترتبط ارتباطا مباشرا بموضوع الوعى الطبقى ٠ فبينما يصدق القول بأن ظروف المجتمع الراسمالى تسمح بسرعة بتشكل الطبقات على مستوى قومى(٦) وتسمح بظهور المصالح الاقتصادية بشكل واضح(٧) . فان بعض العوامل الأخرى داخل نفس ظروف المجتمع الراسمالى ربما تحول دون تكوين طبقات جديدة، ومن تطمس طابع العلاقات الاقتصادية ٠ فالحراك الجغرافى والاجتماعى ،

---

(٥) ترتبط هذه المشكلة ارتباطا وثيقا بمشكلات فى نظرية ماركس عن الثورة الاجتماعية ، فى انطباق تلك الأخيرة على حالة بعينها من الراسمالية ٠ فالنظرية تقرر بشكل عام أن النسق الاجتماعى يخبر ثورة عندما تتطور قوى جديدة للانتاج (تمثلها طبقة معينة) لا يمكن احتواؤها داخل النسق الموجود بالفعل ، ولكن يبدو أن ماركس يؤكد فى حالة الراسمالية على الانهيار الداخلى الناتج من عدم اتساقها بالاستقرار الداخلى ٠ ومن ثم فان ثورة الطبقة العاملة سوف لا تؤسس على تقدم التكنولوجيا ، ولكن على التوترات التى تنتجها الأزمة الاقتصادية ، وتراكم الفقر ، وتحول البروليتاريا عن وعى المذاهب او المذاهب تصيغ لهم نموذجا مثاليا جديدا ٠

(٦) « لا تقع الثمرة الحقيقية لمعارك هذه الطبقات فى النتائج السريعة ، وانما فى الاتحاد المستمر للعمال ٠ وقد اتسع نطاق هذا الاتحاد من خلال تطور وسائل الاتصال التى خلقتها الصناعة الحديثة ، والتى مكنت العمال الذين ينتمون الى مناطق مختلفة من الاتصال ببعضهم ٠ ويحتاج العمال الى هذا النوع من الاتصال بحيث تضفى الصفة القومية على الصراعات المحلية العديدة بحيث تتجمع فى النهاية فى صراع قومى واحد بين الطبقات ٠٠٠ ولم يكن بامكان الـ brughers الذين عاشوا فى العصور الوسطى ـ حيث كانت طرق المواصلات سيئة ـ ان يحققوا هذا الاتحاد الا فى قرون ، أما البروليتاريا الحديثة فانها تستطيع تحقيقه فى سنين قليلة وذلك بفضل التقدم فى طرق المواصلات » ٠ هكذا كتب ماركس فى البيان الشيوعى ٠

(٧) كتب ماركس فى المخطوطات الاقتصادية والفلسفية يقول :

« من الحتمى ٠٠٠ ان تدخل ملكية الأرض ، وهى أساس الملكية الخاصة ، دخولا كاملا فى نطاق الملكية الخاصة وتصبح سلعة ، وان تتحول القاعدة التى تحكم حيازة الملكية الى قاعدة صريحة للملكية الخاصة ، وان ينفصل راس المال عن كل الارتباطات السياسية ، وان تصبح العلاقة بين حائز الملكية والعامل علاقة اقتصادية محضة أحد طرفيها هو الطرف المستغل (بكسر الغين) والآخر هو الطرف المستغل (بفتح الغين) ، وان تختفى كل العلاقات الشخصية بين حائز الملكية وملكيته ، وان تصبح تلك الأخيرة ثروة مادية خالصة ، وان يحل الارتباط بالمصلحة محل الارتباط المقدس بالأرض ، وتصل الأرض والانسان نفسه الى مستوى يصبحان فيه موضوعا للمضاربة » ٠

والتعقد المستمر فى تقسيم العمل ، واتساع نطاق الطبقات الوسطى ؛ كل هذه العوامل قد اثرت على امكانية تشكل الطبقة العاملة فى تجمع سياسى على وعى متميز بمكانها فى المجتمع وبأهدافها طويلة المدى • وعلى نفس المنوال ، فان طبيعة الانتاج الرأسمالى قد تطمس حقيقة الاستغلال ، بالرغم من أنها (طبيعة الانتاج الرأسمالى) تعمل على تباين المصالح الاقتصادية • فلا يمكن للعبد أو القن أن يشك مطلقا فى أنه يعمل بشكل كلى أو جزئى من أجل مصلحة شخص اخر ؛ ولكن العامل الأجير لا يمكن أن يستوعب بشكل مباشر أن اخرين يتملكون عمله (قيمة عمله) • والمحقق أن الهدف الذى توخاه ماركس فى « رأس المال » كان ينحصر فى اختراق حجاب الانتاج السلعى والتبادل من أجل توضيح العلاقات الاجتماعية الحقيقية التى تجعل انتاج فائض القيمة ممكنا • غير أن هذا الاطار النظرى ـ الذى يحدد العلاقات بين الطبقات فى العملية الإنتاجية ـ يختلف عن التطور التاريخى الفعلى للوعى الاجتماعى لدى طبقات بعينها • ولهذا فمن الأهمية بمكان دراسة التطور الفعلى (للوعى الطبقى) وربط نتائج هذه الدراسة بالتحليل الاقتصادى الأصيل وذلك من أجل التوصل الى ما اذا كان النموذج النظرى كافيا أم غير كاف • ولقد فشل لوكاتش فى أن يفعل ذلك ، واستبدل ـ بدلا من ذلك ـ التاريخ الفعلى بالتاريخ النظرى أو التأملى •

وهناك مجموعة ثالثة من المشكلات ترتبط من ناحية بالمواقع الاجتماعية المختلفة للبرجوازية والبروليتاريا ، وترتبط من ناحية أخرى بمسألة تشكل الوعى الطبقى ، تتعلق بالعلاقة بين الفكر والواقع • فلقد كان المفكرون الذين ساعدوا فى تشكل وعى البرجوازية ، وعبروا عن النظرة البرجوازية فى مذاهب اجتماعية وآراء عامة ، كان هؤلاء المفكرون ينتمون الى الطبقة البرجوازية ذاتها ؛ ولذلك فلسنا هنا بحاجة الى أن نفترض وجود هوة كبيرة بين شكل من اشكال النشاط الاجتماعى وتجلى هذا النشاط فى الفكر • ولكن الأمر يختلف فى حالة البروليتاريا حيث تشكل وعيها الطبقى وتم التعبير عنه ـ كما هو الحال فى الماركسية مثلا ـ من خلال مفكرين لا ينتمون الى طبقة البروليتاريا ولكن ينتمون الى طبقة

البرجوازية ؛ وهنا تظهر مشكلة جوهرية تتعلق بالعلاقة بين الحياة الواقعية للطبقة العاملة وتفسير هذه الحياة في المذاهب الاشتراكية ·

ولقد تناولت أحد مقالات كتاب « التاريخ والوعي الطبقي » هذه المشكلة · فقد كتب لوكاتش في المقال الخاص « بالماركسية المتزمتة » ، كتب يقول : « ليس هناك من يقدم للبروليتاريا كطبقة بشكل سريع وطبيعي معرفة بموقفها الفعلي واهدافها (ولا يقدم لكل فرد بروليتاري على حده الا معرفة أقل) ؛ واستمر لوكاتش في مقال اخر عن « الوعي الطبقي » ليفرق بين « الوعي الطبقي السيكولوجي » بمعنى الوعي المباشر immediate الذي يمتلكه العمال عن موقفهم في المجتمع (والذي وصفه لوكاتش أيضا بالوعي الزائف) : « والوعي الممكن » Possible Consciousness أو الوعي المكتسب imputed consciousness ويكشف النص التالي عن رأي لوكاتش في هذا الصدد :

« لا يقتصر معنى فكرة الوعي الطبعي سى ما يفكر فيه الأفراد ويشعرون به ويرغبون في تحقيقه في مواقف تاريخية وطبقية · حقيقة أن هذا يعد ذا اهمية كمادة خام للدراسات التاريخية · ولكن اذا ربطناه بالاطار الكلي totality فاننا نتوصل الى مقوله الممكن الموضوعي objective Possibility ؛ بمعنى الأفكار والمشاعر التي كان الأفراد سيفكرون فيها ويشعرون بها لو أنهم كانوا قادرين على استيعاب موقفهم ومصالحهم بشكل كامل · وسوف يشكل رد الفعل هذا المكتسب والرشيد الوعي الطبقي » ·

ويتفق هذا الخط الفكري في بعض جوانبه مع افكار ماركس عن تطور وعي الطبقة العاملة من مرحلة الافعال المشتتة المنعزلة من أجل المحافظة على مستويات الاجور الى مرحلة التنظيم السياسي والنضال السياسي الذي يتم على مستوى قومي · ولكن تظهر هنا فروق هامة (بين رأي كل من ماركس ولوكاتش) اذا ما اخذنا في اعتبارنا العلاقة القائمة بين المرحلة المبكرة والمرحلة اللاحقة (من تطور الوعي) والطريقة التي

يتم بها الانتقال من مرحلة الى أخرى · فالمحقق أن لوكاتش لم ينظر الى المسألة في ضوء التطور التاريخي للوعي بقدر ما نظر اليها في ضـــوء التفرقة المطلقة بين الوعي السيكولوجي والوعي المكتسب الرشـــيد · فالأول هو الوعي الفعلي للطبقة العاملة والذي وصفه لوكاتش بأنه المادة الخام للدراسات التاريخية(٨) وهو ظاهرة ليس لهـــا أي تأثيرات ذات أهمية ، كمـــا أنهـــا لا تصلح لأي شـــكل من أشكال الاختبار للمذاهب التاريخية · ومن الناحية الأخرى فان الوعي المكتسب الرشـــيد للطبقة العاملة هو ـ عند لوكاتش ـ الماركسية نفسها ؛ بمعنى نظرية اجتماعية ظهرت واستقرت بالفعل وتم تقديمها الى البروليتاريا من الخارج · ولقد أعاد لوكاتش تأكيد هذه الفكرة بشكل أوضح في التصدير الذي كتبه لطبعة ١٩٦٧ من كتاب « التاريخ والوعي الطبقي » ، حيث ربط تمييزه بين الوعي السـيكولوجي والوعي المكتسب بالتمييز الذي أقامه لينين Lenin بين « وعي نقابات العمال » وهو الوعي الذي تستطيع الطبقة العـــاملة أن تكتسبه بنفسها ، « والوعي الاشتراكي » وهـــو الوعي الذي يقدمه المفكرون الثوريون الى هذه الطبقة · والحزب هو التنظيم الذي تتقـــابل فيه الطبقة العاملة · ذات الوعي المتخلف بالمثقفين ؛ غير أن هذا اللقـــاء هو لقاء من جانب واحد ، ذلك لأن الحزب يجسد أولا وقبل كل شيء نظرية صحيحة عن العالم ، وبناء عليه فان المفكرين الايديولوجيين هم الذين يسيطرون عليه · ولقد عبر لوكاتش عن هذه الفكرة عندما أشـــار الى الوعي الطبقي الصحيح للبروليتاريا وشكله التنظيمي ، كمـــا يتمثل في الحزب الشيوعي ·

غير أنه ينبغي أن يكون واضحا في أذهاننـــا أن هـــذه التصورات تختلف اختلافا كبيرا عن فكرة الوعي الطبقي التي أشار اليها ماركس في كتابات متفرقة · فقد قرر ماركس بوضوح تام أن الطبقة العاملة سوف تحقق ، من خلال مجهوداتها وخبراتها ، وعيا متطورا بموقفهـــا الطبقي

---

(٨) لا يحدد معنى هـذه الصياغة واضحا بشـــكل جلي ، ولكن يبدو أنها تعني أن الوعي الفعلي للطبقة العاملة في موقف تاريخي ذو أهمية فقط كمادة للمقارنة بالوعي الرشـــيد الذي كان يجب أن يظهر في نفس الموقف التاريخي ·

وأهدافها · والواقع أنه اعتبر ـ قبل أن يجرى دراساته أن هذه العملية قد تقدمت الى حد ما ، فى شكل حركات اشتراكية متعددة · ولقد لاحظ ماركس فى كتابه « فقر الفلسفة » أن :

« الظروف الاقتصادية قد حولت جماهير الأفراد الى عمال · لقد شكلت سيطرة رأس المال الموقف العام والمصالح العامة لهذه الطبقة · وهكذا فان جماهير العمال تكون فى علاقتها برأس المال طبقة بالفعل ، ولكنها لم تصل بعد الى طبقة لذاتها Class for itself · وتستطيع هذه الطبقة ـ من خلال النضال اوضحنا فقط جوانب قليلة منه ـ أن تتحد وتشكل طبقة لذاتها · ويحدث هذا عندما تصبح المصالح التى تدافع عنها هذه الطبقة مصالح طبقية » ·

وأكد ماركس مرة أخرى وفى أحد كتاباته المؤخرة ـ فى تصديره « لاستقصاء حالة العمال » ـ على أن العمال فقط هم القادرون على أن يشخصوا « وبمعرفة كاملة الشرور التى يعانون منها » وهم « فقط ـ وليس اولو المعرفة الملهمين ـ القادرون على أن يضعوا موضع التنفيذ علاجا للأمراض التى يعانون منها » · فطبقا لما ذهب اليه ماركس ، فان الطبقة العاملة قادرة على أن تصبح طبقة لذاتها ، وأن تأخذ بزمام المسئولية فيما يتعلق بمصيرها · ولم يتحدث ماركس عن الدور الذى يمكن أن يلعبه المثقفون والحركات والأحزاب السياسية فى هذه العملية ، ولكن يبدو واضحا أن دورهم يخضع للتطور العام للطبقة العاملة · وفى مقابل ذلك وعلى نقيضه ، اخضع لوكاتش الطبقة العاملة « للوعى الرشيد » الذى يقدمه لها المفكرون الايديولوجيون فى الحزب ، وهو بهذا يقدم تبريرا فكريا للديكتاتورية المطلقة للحزب والتى استمت بها المجتمعات ذات الطراز السوفيتى منذ عام ١٩١٧ ·

وتنبثق النتائج التى توصل اليها لوكاتش من مفهومه الخاص عن المنهج الماركسى · فمن اهم التاثيرات التى حددت اتجاهه ونتائجه تعريفه المبدئى للماركسية بانها وعى طبقى ، وليست نظرية ترتبط بعلاقة قوية بالنظرية الاجتماعية للطبقة التى تهتم بها اساسا · وفيما يختص بالمنهج

فان لوكاتش لا يتبع الأسس التى يحددها قدر انحرافه عنها · فقد أكـد فى مقاله عن « الماركسية المتزمتة » فكرتين منهجيتين : فكرة مرونة المفاهيم Fluidity of Concepts (وقد تناول هذه الفكرة باختصار وفقـا لنفس خطوط المناقشـــة التى قدمهـــا انجلز فى كتـــاب (Anti - Dühring) ، وفكرة الكلية totality والتى يعنى بها « تكامل حقائق الحياة الاجتماعية (كمكونات لتطور تاريخى) فى وحدة كلية » يوجد داخلها تاثير متبادل · ويمكن ان يثار هنا ســـؤال عما اذا كانت هاتان الفكرتان تتميزان عن الماركسية(٩) ؛ غير انه من الأهمية بمكان من أجل استجلاء النقطة التى نحن بصددها ان نلاحظ ان لوكاتش لم يسر وفقا للقواعد المنهجية التى حددها على طول الخط · واذا أخذنا مثالا لذلك نجد ان تحليله للفروق بين الطبقات فى المجتمع الراسمالى وفى اشكال اخرى من المجتمعـــات يؤدى ــ كما قال ــ الى « تنميط للوعى الطبقى » (متاثرا فى ذلك كما هو واضح بفكرة النمط المثالى عند ماكس فيبر) ، ويعنى ذلك انه يؤدى الى صياغة لانماط من الوعى فى حد ذاتها على قـــدر من التحدد النسبى · وبهذه الطريقة فانه لا يتناول مطلقا كلا من الطبقة العاملة ووعى هـــذه الطبقة كعنصرين فى عملية تاريخية ، ولا يربط ــ على خلاف ماركس ــ هذين العنصرين بالتطور المستمر للعمـــل البشرى والاشكال التى ينتظم فيهـــا ·

وعلى نفس المنوال ، فانه بالرغم من تاكيده على فكرة مرونة المفاهيم ، فان الاتجاه الفعلى لكتابات لوكاتش يميل الى تجميد هذه المفاهيم ، وتحويل مفهومات مثل الطبقة والوعى الطبقى وحتى الماركسية نفسها الى كيانات مطلقة وثابتة · ولقد اتضح هذا الاتجاه بصورة مذهلة عند لوكاتش فى مناقشته الأولية للمنهج الماركسى حيث ذهب الى القول بانه : « حتى اذا

---

(٩) فى اعتقادى ان فكر ماركس يتميز بمضمونه ــ اى بقضاياه النظرية دون منهجه · وقــد لاحظ ليفى ستراوش جانبا من هـــذه الفكرة فى نقـده لسارتر فى الفصـل الختامى من كتابه « العقل البدائى » The Savage Mind حيث كتب يقول « من المحزن ان ينظرا بعض المؤرخين وعلماء الاجتماع وعلماء النفس الى ضرورة رؤية الأشياء بصورة كلية على انه شىء جديد · غير ان الانثروبولوجيين قـد اعتبروها شيئا بديهيا منذ ان تعلموها من مالينوفســـكى » ·

كان المرء قد افترض ــ دون ان يقبل ذلك ــ أن البحث الحديث قد أوضح الغموض الفعلى لكل القضايا الخاصة بماركس ، فان الماركسى الملتزمت يمكن أن يقبل كل هذه المكتشفات الجديدة وأن يرفض كل القضايا الماركسية دون أن يجبر بأى شكل الى ادانه تزمت الماركسية · فالماركسية المتزمتة لا تعنى قبول نتائج البحوث الماركسية بلا تحفظ ···· وانما تعنى المنهج الماركسى برمته » ·

والواقع اننا نجد صعوبة فى فهم هذا النص من جوانب عديدة ، وانه لمدهش حقا أن يكرره لوكاتش ــ دون أدى تحفظ ــ فى تصديره لطبعة عام ١٩٦٧ من كتاب « التاريخ والوعى الطبقى » · هل يعنى هذا النص ــ مثلا ــ أن الذى يرفض نظرية ماركس عن الطبقة والصراع الطبقى سيظل ــ مع ذلك ــ ماركسيا ؟ أم انه يمكن الاجابة على هذا السؤال بالقول بأن فكرة الطبقة تعد جزءا من المنهج الماركسى ، وأن التفاصيل الخاصة بالعلاقات الطبقية فى مواقف بعينها هى التى تدخل تحت مجموعة القضايا التى يسمح لوكاتش برفضها ؟ وبصفة عامة ، ما هو معنى القول بأن التزمت الماركسى يتبدى فى قبول منهج ماركس ، حتى ولو ترتب على هذا تبنى قضايا زائفة ؟ وتكمن اهمية هذه الأسئلة ــ واسئلة أخرى يمكن اشتقاقها منها ــ فى كونها تكشف مرونة فكرتى المنهج والنظرية ، والصعوبة المرتبطة بفصل العناصر المنهجية عن العناصر النظرية فى أى مركب من مركبات الفكر · غير أن لوكاتش قد اقام ــ وبدون ادراك لهذه المرونة ــ فصلا مطلقا بين النظرية والمنهج وهى تفرقة تبدو لنا غير منطقية ، سواء كان المرء ماركسيا أم غير ماركسى ·

وهناك زاوية اخرى يمكن من خلالها النظر الى كتاب لوكاتش وهى زاوية تكشف عن الطابع الايديولوجى السائد فى الكتاب وتساعد على تفسيره · فكتاب لوكاتش يعد أكثر المحاولات التى تعرضت للماركسية التزاما بروح العصر ، بمعنى انه مشحون بالأفكار والاهتمامات التى تتعلق بمكان تاريخى معين وزمان تاريخى معين · حقيقة انه يمكن القول بأن كل مظاهر الفكر الاجتماعى تحمل بصمات العصر الذى ظهرت فيه ،

ومع ذلك تبقى هناك بعض الفروق : فبعض الانساق الفكرية (وكذلك بعض الأعمال الفنية) لها طابع عالمي وبريق عالمى • فمما لا شك فيه أن فكر ماركس يهتم بالتأثيرات التى تركتها الرأسمالية الصناعية المبكرة والثورة الفرنسية ، غير انه من الواضح أنه لا يرتبط بظروف عصر ماركس فقط ، فهو يقدم الى جانب تفسير العالم (الرأسمالى) الحديث مفاهيم ونظريات عامة أبعد ما تكون عن ان تكون قد فقدت قيمتها وأهميتها اليوم •

ومع ذلك فان كتاب لوكاتش يعبر — من خلال فهم معين للماركسية والبروليتاريا — عن طابع فترة تاريخية بعينها • فقد كتب المقالات التى يشتمل عليها الكتاب عندما كانت الحركات الثورية تجتاح كل أرجاء أوربا ، فقد كانت الثورة الروسية حققت نجاحا ، وتبعها نضالات ثورية فى المانيا والنمسا ، وظهور نظام ثورى لفترة من الوقت فى المجر شارك فيه لوكاتش نفسه • وبناء على ذلك ، فان كتاب لوكاتش يقدم — من خلال وسط فكرى معين لتفسير الماركسية — صورة للحركة الثورية والحزب الشيوعى مشبعة بالمثالية ؛ وذلك فى مقابل رؤية نقدية لنفس الظواهر كما فهمها آخرون من أمثال روزا لوكسمبرج Rosa Luxemborg • وفى ضوء حقيقة عدم وجود صراعات ثورية حادة فى بعض البلدان الرأسمالية المتقدمة ، وفشل الثورات فى مناطق أخرى ، وتحول الثورات فى البلدان التى نجحت فيها الى ديكتاتورية وليس الى نظام اشتراكى ، فانه من المعقول أن نجد قدرا أكبر من الصدق فى الصياغات النقدية للنظرية الماركسية ، وأن نعتبر عمل لوكاتش انعكاسا لمزاج متقلب وتوجيه محدود • وقد صاغ لوكاتش فى الكثير من نصوص تصدير طبعة ١٩٦٧ حكما يشابه هذا الحكم على الأفكار التى جاءت فى كتاب « التاريخ والوعى الطبقى » • فقد لاحظ — مثلا — أن نظريته تعبر عن اتجاه طرازى نحو مشكلات العصر الذى ظهرت فيه ، وهى تتعلق بفترة تاريخية ما يزال فيها احتمال قيام الثورة فى أوربا حقيقة واقعة ؛ وفضلا عن ذلك ، فقد ذهب لوكاتش بنفس هذه الروح النقدية الى أن فكرة الممارسة الثورية التى طرحت فى الكتاب هى أقرب الى النزعة اليوتوبية الماسونية Messianic Utopianism التى اتسم بها العصر الذى ظهر فيه الكتاب

اكثر من قربها الى مذهب ماركس نفسه(١٠) ورغم ذلك فان اكثر الاحكام التى اصدرها لوكاتش على كتابه موضوعية يوجد فى انطباعه الذى ابداه فى تصدير طبعة ١٩٦٧ حول ما اســماه « بالغموض المنتشر فى الوقت الحاضر والذى يجعل الانسان ينظر الى فكره على انه ذو مضمون ثابت واصيل والى منهجه على أنه دائم ومستمر » ٠

وتظهر الهوة التى تفصل بيننا ــ ومعنا لوكاتش ــ وبين الفترة من ١٩١٧ ــ ١٩٢٣ عندما كتب لوكاتش هذه المقالات ، تظهر هذه الهوة اذا ما تناولنا السؤال الذى ظهر كعنوان للمقال الأول فى كتاب لوكاتش :ماهى الماركسية المتزمته ؟ لايحمل هذا السؤال بالنسبة لنا ــ ولا يمكن أن يحمل ــ معنى فكريا واضحا ٠ فقد ظهرت مئات من تنويعات الماركسية ، كما تظهر مئات الأزهار من برعم واحد ، فمن اذن يستطيع القول بأن أيا من هــذه الصورة المتزمته وأى منها هى الصورة الزائفة ؟ وهل يمكن لأى مفكر جاد أن يهتم بمثل هذا السؤال ؟ فليس هناك من معنى لما نسميه « بالماركسيــة المتزمنة » الا معناها التاريخى ، وهو يشير الى الدوجماطيقية السياسية التى تميز بها زعماء الحزب فىجمهوريات الاتحاد السوفيتى منذ العشرينات وحتى عام ١٩٥٦ ، والتى تدعمت من خلال استخدامهم للبوليس ومنفذى حكم الاعدام ٠ وحتى فى هذا الشكل التاريخى فان افضل لفظ اطلق على الماركسية هو « الماركسية الرسمية » ٠

ونود فيمــا تبقى من هــــذا الفصــــل أن ندرس الوعى الطبقى من وجهة نظر مختلفة ، تنبثق عن فكرة بعيدة عن الماركسية ٠ ونقطة البداية هنا تنحصر فى قضية منهجية عامة ، هى أن الماركسية يجب اعتبارها بادىء ذى بدء نظرية عن المجتمع ، وليست ايديولوجية ٠ ومن ثم فان وظيفــــة الماركسية هى تفسير الوعى الطبقى وليس التعبير عنه تعبيرا كامـــلا ٠ ولا يعنى هذا ان انكار حقيقة أن الماركسية (مثلها مثل اى نظرية اجتماعية) لها جانب ايديولوجى ، بمعنى انها تطورت فى ظروف تاريخية معينــــة ،

(١٠) وهى اقرب ايضا الى النزعة اليوتوبية المـاسونية التى ازدهرت فى بعض الدوائر فى الوقت الحاضر ، ولا شك ان ذلك يفسر الى حـد ما اعادة الاهتمام الآن بكتاب لوكاتش ٠

وعبرت عن تفضيلات والتزامات ظهرت خارج نطاق العلم الاجتماعى ، وحددت أشكالا من السلوك الموجهة نحو تحقيق غايات مرغوب فيهـــا · ولكن بامكاننا أن نفصل بين الجانب النظرى والجانب الايديولوجى ، بل يجب أن ننظر اليهما على انهما منفصلان · فأقل اشكال الماركسية قيمة على الاطلاق هو ذلك الشكل الذى يتداخل فيه هذان الجانبان ، كما هو الحال فى فكرة لوكاتش عن الماركسية بانها لا تعدو أن تكون وعيا متطورا للبروليتاريا * فمثل هذه الفكرة تجعل اختبار النظرية (التى من المفترض أن تكون صادقة ، على الأقل لفترة تاريخية معينة) مستحيلا ، هذا فضلا عن أنه بالامكان اثبات عدم وجود اتفاق كامل من الناحية التاريخية بين وعى الطبقة ونظرية اجتماعية بعينها · ويمكن توضيح هذه النقطة اذا ما أخذنا فى اعتبارنا تطور الوعى الطبقى للبرجوازية · فلم يتم التعبير عن هذا الوعى بطريقة كاملة وشاملة فى أى نظرية واحدة ، ولكنه اتخـــذ صورا عديدة فى ازمان مختلفة واماكن مختلفة ؛ وهكذا يمكن القول بأن الايديولوجية البرجوازية توجد فى النظرية السياسية لهوبز ولوك ، وفى الفلسفة النفعية ، وفى أعمال الكتاب الموسوعيين ، وفى الاقتصاد السياسى الكلاسيكى ، أو فى الاخلاق البروتستنتية · فالمحقق أن هناك مجموعة من الافكار ـ عن الملكية والعمل والحكومة والطبيعة البشرية ··· الخ ـ ليست متناغمة تناغمـــا كاملا ، ولا تتجمع فى نظرية معينة ، وهى التى تشكل النظرة البرجوازية ؛ ولا تتضح هذه النظرة الا اذا صيغت فى نمط مثـــــالى ideal - type يمكن مقارنته بالمواقف التاريخية الفعلية · وينسحب نفس هذا القول على تطور وعى الطبقة العاملة · فقد ظهـــرت هنا أيضا مجموعة من الافكار المتشابهة عن العمل والاستغلال والمساواة والتعاون من خلال نظريات اجتماعية مختلفة من الماركسية وحتى الفوضوية؛ ومن الضرورى أيضا صياغة نمط مثالى عن نظرة الطبقة العاملة ، يمكن مقارنتها بالتطور الفعلى لوعى الطبقة العاملة فى المجتمعات المختلفة فى فترات مختلفة ·

ولا نقصد بصياغة النمط المثالى ومقارنته بالظواهر الواقعية للوعى الطبقى تأكيد وجود هوة ـ كما هو الحال عنـــد لوكاتش ـ بين الوعى

الطبقى السيكولوجى والوعى الطبقى الصحيح (أى الماركسية) ، والذى يجب أن ينقله المفكرون الايديولوجيون الى العمال ٠ وانما نقصد بصياغة النمط المثالى وصف ـ وان أمكن تفسير ـ مظاهر الاختلاف بين النمط المثالى والواقع ، ثم اعادة صياغة ـ اذا ثبت وجود خــلاف ـ الانماط المثالية وبالتالى النظرية التى تستخدم فيها هذه الانماط وذلك من أجـل فهم افضل للواقع ٠ ويمكن فهم تصورات ماركس عن البرجوازية كطبقة حاكمة والبروليتاريا كطبقة ثورية بهذه الطريقة ٠ ولقد تناولت فى مكان اخر(١١) بعض المواقف التى لا تتفق فيها الظروف الاجتماعية مع النمط المثالى للطبقة الحاكمة ، ولذا فلن أتوسع فى هــــذا الموضوع هنـــا ٠ واذا ما تفحصنا الآن موقف الطبقة العاملة فى المجتمع الرأســـمالى فى ضوء وجهة النظر هذه فان علينا أن نفرق بين مسالتين مختلفتين : الأولى تتعلق بالتنوع داخل مجتمعات بعينها والفروق بين هـــذه المجتمعات ، والأخرى تتعلق بالتغيرات التاريخية التى ظهرت مع تطـــور الراسمالية كنسق اجتماعى ٠

فمن الواضح أن الطرق التى تنظم بها الطبقة العاملة نفسها ووعى هذه الطبقة تختلف اختلافا كبيرا من مجتمع الى آخر ٠ ففى فرنســـا وايطاليا يؤيد قطاع كبير من الطبقة العـاملة الحزب الشيوعى ؛ ويعنى هذا انهم يدعمون حزبا ماركسيا ثوريا له طابع رسمى ٠ اما فى بريطانيا والمانيا الغربية والدول الاسكندنافية فان نسبة أكبر من الطبقة العاملة ما تزال تؤيد الأحزاب الديموقراطية الاشتراكية أو العمالية التى تتبنى اتجاها اصلاحيا ٠ اما فى الولايات المتحدة الأمريكية فان الطبقة العاملة ليس لها تنظيم سياسى مميز على مستوى جماهيرى وذلك منـــذ الحرب العالمية الأولى ، ولم تفرز هذه الطبقة اى مذهب راديكالى أو اشتراكى مميز ٠ وحتى عندما تؤيد اغلبية من الطبقة العاملة حزبا معينا من احزاب

---

(١١) Elite and Society (London , 1964) Chapter 11.

وقـد صدرت ترجمة عربية لهذا الكتاب ـ ضمن كتب اخرى لبوتومور بعنوان : ترجمـة الصفوة والمجتمع : دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، ترجمة محمد الجوهرى وزملائه ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨ ٠

الطبقة العاملة فى هذه البلاد (خاصة فى بريطانيا حيث توجد رابطة قوية بين عضوية الطبقة والولاء السياسى) فاننا لا نجد حزبا واحدا للطبقة العاملة وانما نجد أحزابا وطوائف يسارية متنوعة ، يحظى كل منها ببعض من تاييد الطبقة العاملة · وفضلا عن ذلك يوجد فى كل البلدان قطاع أساسى من الطبقة العاملة يؤيد الأحزاب الليبرالية أو المحافظة(*) ·

ولهذا فانه عبر فترة طويلة نسبيا من الوقت اتخذ الوعى السياسى للطبقة العاملة صورا متنوعة للتعبير عن نفسه فى كل بلد من هذه البلدان، وفى نفس الوقت اختلف النمط السائد لهذا التعبير اختلافا جوهريا من بلد الى اخر · ومن السهولة بمكان أن نقدم تفسيرا لهذه التنويعات ، غير انه من الواضح ـ وكما عبر عن ذلك ماركس نفسه عندما كان يناقش مشكلة مشابهة ـ « اننا لن ننجح مطلقا فى فهمها اذا ما اتخذنا من النظرية الفلسفية التاريخية وسيلة لفهمها ، فهى نظرية تتسم أولا وقبل كل شىء بأنها نظرية فوق تاريخية »(١٢) · فليس هناك أذن من أساس تقوم عليه وجهة النظر القائلة بأن الاختلاف فى وعى الطبقة العاملة يرتبط بمراحل فى تطور الرأسمالية حيث يظهر الوعى الثورى المتقدم فى المراحل المتقدمة من الرأسمالية ؛ فالوعى الثورى فشل فشلا ذريعا فى أن يظهر فى بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية وقد كانتا ـ فى فترتين تاريخيتين مختلفتين ـ

(*) أكد بوتومور فى كتابه « الطبقات فى المجتمع الحديث » أن للأفكار القومية (التى تعتبر افكارا للطبقة الحاكمة) قد وجدت طريقها الى قطاعات عريضة من السكان بينهم الطبقة العاملة ؛ الأمر الذى جعل الاحساس بالمجتمع القومى فى البلدان الأوربية يقيد أو يخفف من حدة الصراعات الطبقية بحيث يمكن القول ان « الرابطة القومية ـ الاجتماعية قد اثبتت انها اكبر فعالية من رابطة الطبقة فى خلق مجتمع متماسك » · انظر كتابه الطبقات فى المجتمع الحديث ، ترجمة محمد الجوهرى وزملائه ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٩ ·ومن الجدير بالذكر انه لا يمكن التسليم بهذا الراى طالما انه لم يرتبط بتحليل دقيق لمستوى الوعى لدى الطبقة العاملة ، ودور البرجوازية فى تشكيل هذا الوعى وتوجيهه وجهة معينة ·

المترجم

(١٢) لقد ارتكب الماركسيون الرسميون ـ ومن بينهم لوكاتش ـ نفس الخطأ الذى حذر ماركس من الوقوع فيه ، فقد أظهروا تحفظا واضحا نحو الانحراف فى دراسات تاريخية مفصلة لهذه الظواهر ، واعتمدوا ـ بدلا من ذلك ـ على تعميمات نابعة من النظرية التاريخية الفلسفية · وهذا هو السبب فى انهم لم يسهموا فى اثراء فهمنا للطبقات الاجتماعية فى القرن العشرين ·

من اكثر الدول الرأسمالية تقدما • بل يمكن القول ـ على عكس ما يذهب هذا الرأى ـ بأن الوعى الثورى قد ظهر بشدة فى البلدان الرأسمالية المتخلفة والتى ينخفض فيها نصيب الفرد من الدخل القومى(١٣) •

وبصرف النظر عن هذه الاعتبارات العامة ، فقد عرف كل مجتمع من هذه المجتمعات بعض الظروف الخاصة التى تفاعلت داخله ، ومن ثم ساعدت على خلق ما يمكن أن نسميه « بالاسلوب القومى » national style فى السياسة • وحسبنا هنا ان نشير ـ وبشكل مختصر للغـــاية ـ الى بعض الظروف التى يجب تحليلها بدقة فى أى نظرية سوسيولوجية مقارنة عن تجلى الوعى الطبقى فى المذاهب السياسية •

ففى فرنسا هناك التأثير الذى تركه تراث ثورى طــــويل ، أما فى ألمانيا والاقطار التى كانت تابعة لامبراطورية هابسبرج فان التوترات قـــد نتجت من جراء الهزيمة فى الحرب العالمية الأولى ؛ وفى بريطانيا فـــان الفترة الطويلة من الحكم الامبراطورى المتحالف مع حركة الاصـــلاح الاجتماعى فى الداخل قـد أذكى الاحاسيس المحافظة ، أما فى الولايات المتحدة الأمريكية فقـــد وقفت الانقسامات السلالية والجغرافية وتراث استرقاق الزنوج وانتشار ايديولوجية المساواة ، وقفت حجر عثرة أمام تبلور الطبقات • ويجب أن نربط هذه الظروف والخصوصيات القومية ، فضلا عن العوامل الاقتصادية التى اشرتاليها ، بالنموذج النظرى الماركسى عن تشكل البروليتاريا الثورية ، اذا كان لنا أن نقدم تقييما نقديا لنظريته عن الطبقة والصراع الطبقى •

ولكن تقييما نقـــديا من هذا النوع يتطلب أيضا وجوب الاهتمـــام بالمجموعة الأخرى من الأسئلة التى اشرنا اليها فيما سبق ؛ ونقصد تلك

---

(١٣) قال بهــذا الرأى سيمور مارتن ليبست Lipset فى كتابه « الانسان السياسى » (نيويورك ١٩٥٩) ص ص ٦١ ـ ٦٢ ؛ وقــد لاحظ الن تورين مؤخرا فى كتابه « مجتمع ما بعد الصناعة » ص ص ٢٦ ـ ٢٧ ، أن حركة الطبقة العاملة ما تزال تحتفظ بتوجيه ثورى خاص فقط فى البلدان التى يتسم المجتمع فيها بالتطور الصناعى غير المتساوق Uneven وبوجود مقاومة نابعة من قوى اجتماعية وثقافية عتيقة كما هو الحال فى فرنســـا وايطاليـــا •

الأسئلة المتصلة بتطور المجتمع الرأسمالى ككل · فنظرية ماركس فى الطبقة ليست هيكلا من القضايا منفصلا أو مستقلا عن الواقع : فقد ارتبطت بتحليل بناء الرأسمالية كنسق اجتماعى كلى ، وكذلك الاتجاهات الرئيسية لتطور هذا النسق ، واعتمدت على هذا التحليل اعتمادا جزئيا · وبناء عليه فان التفسير الماركسى للطبقات فى الوقت الحاضر يتطلب دراسة رأسمالية القرن العشرين وفقا للخطوط العاملة لدراسة ماركس غير المكتملة لرأسمالية القرن التاسع عشر ، فضلا عن تحديد اتجاهات التغير الرئيسية لرأسمالية القرن العشرين وفقا لنفس المنظور(١٤) ·

ومن أهم التغيرات التى ظهرت فى عصرنا والتى تميزه عن العصر الذى عاش فيه ماركس نمو الطبقات الوسطى على استحياء ، وتقلص الطبقة العاملة وذلك كنتيجة للتطورات التكنولوجية · ولقد وصلت هذه العملية الى ذروتها فى الولايات المتحدة الامريكية ، حيث فاق عدد العاملين فى مهن الطبقة الوسطى عدد العاملين فى مهن الطبقة العاملة ، وان كانت العملية تحدث بسرعة نسبية فى كل البلدان الرأسمالية · وقد اشار ماركس نفسه الى احتمال حدوث مثل هذا التطور عندما كتب عن « الزيادة المستمرة فى عدد أعضاء الطبقات الوسطى ··· التى تعتمد بكل ثقلها على الطبقة العاملة وتعمل فى نفس الوقت على زيادة قوة الطبقة العليا وأمنها الاجتماعى » · وأكد نفس الشىء بطريقة أكثر وضوحا فى نصوص متعددة من كتابه « الأسس Grundrisse»(١٥) الذى قدم فيه تحليلا لتأثيرات الميكنة على النحو التالى :

« تطرأ على أداة العمل ، بعد دخولها فى العملية الرأسماليةللانتاج

---

(١٤) ويجب ان تشتمل الدراسة بصفة عامة على دراسة الاشكال الجديدة من التدرج الاجتماعى والقوة السياسية فى المجتمعات ذات الطراز السوفيتى ، وهى قضايا لن نستفيض فيها هنا ·

(١٥) هذا هو الاسم الذى اعطى للمسودات التى كتبها ماركس فيما بين عامى ١٨٥٧ ـ ١٨٥٩ والتى نشرت كاملة لأول مرة فيما بين عامى ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ بعنوان : « أسس نقد الاقتصاد السياسى »
Grundrisse der KritiK der Politischen öKonomie (Rohentwurf).

تعديلات متعددة ، تصل فى النهاية الى ظهور الآلة ، او بمعنى اخر النظام الآلى للماكينات ··· التى تدار بحركة الية او بقوة ذاتية ··· وفى هذه المرحلة تعمل الآلة بنفسها ، وما على العامل الا أن يشرف على حركتها وان يتأكد من انها تسير دون عطب ··· وفى هذه الظروف لاتصبح عملية الانتاج مسألة عمل ··· ويتحول العامل الى مجرد ناقلة ··· وتصبح عملية الانتاج بمثابة تطبيق تكنولوجى للعلم ··· فكلما تطورت الصناعة الواسعة النطاق كلما قل اعتماد عملية خلق الثروة على زيادة وقت العمل وكمية العمل المستخدمة ، وزاد الاعتماد على قوة الآلات ··· وفى هذه الظروف يصبح اساس الانتاج والثروة قائما على القوة الانتاجية للانسان بصفة عامة وعلى فهمه للطبيعة وقدرته على السيطرة عليها »(١٦) ·

والمحقق أن ماركس قد قدم مناقشته لهذه الظواهر فى ضوء اطار تاريخى معين ، وانه عندما اشار الى تطبيق العلم كاساس جديد لخلق الثروة فانه كان يتحدث بصفة أساسية عن امكانيات المجتمع الراسمالى التى سوف يتم تحقيقها بشكل كامل فى أحد مراحل تطوره فى المستقبل · ولكن العملية التى تحدث عنها ماركس قد ظهرت بالفعل فى المجتمع الراسمالى ؛ فقد أصبح استخدام العلم اهم بكثير من العمل الفيزيقى ، وتسبب هذا التغير فى تحويل البناء المهنى الذى اثر بدوره على البناء الطبقى · اما عن الآثار التى تركها هذا التغير وسوف يتركها فى المستقبل على الوعى الاجتماعى فما تزال غير واضحة ، ويعتمد وضوح هذه المسألة على ما اذا كانت الطبقات الوسطى الجديدة ترث ايدولوجية الطبقة العاملة وتحافظ عليها ! او بعبارة أخرى ما هى الايديولوجية التى يمكن أن تسود فى الطبقة الوسطى التى تبتى ايديولوجيات تتراوح بين اشكال معينة من الراديكالية الى الفاشية ؟ أن الوقت الحاضر يكشف عن وجود حركات متناقضة : ففى بعض الاقطار ينشغل قطاع من الطبقة الوسطى بالتهديدات التى يتعرض لها الوضع التقليدى للطبقة الوسطى فى المجتمع ، وبالحاجة الى اعادة ارساء قواعد القانون والنظام (بمعنى

---

(١٦) Ibid., PP. 584 - 93.

كبح مصادر الانشقاق) ، بينما ينشغل قطاع آخر ـ يضم الطلاب وأعضاء المهن الحرفية والتعليمية من الشباب ـ بمحاولة تطوير نظرة أكثر راديكالية ومن الناحية الأخرى فان الوعى الاجتماعى الجديد لايساعد على تقلص الطبقة العاملة بشكلها التقليدى ولكنه يتأثر به ، وخاصة بتقلص بعض المهن ـ مثل العمل فى مناجم الفحم ـ والتى أدت الى ظهور مجتمعات سياسية مترابطة ترابطا وثيقا وعلى درجة من الوعى الطبقى ، هذه التجمعات التى لعبت دورا رياديا فى الحركة الاشتراكية ، ولكن يظهر هنا أيضا اتجاهات متناقضة . فقد تكون الايديولوجيات (وكذلك سياسة) ـ كما يقال غالبا ـ احزاب العمل والأحزاب الديموقراطية الاشتراكية ،وحتى الاحزاب الشيوعية فى أوربا الغربية قد أصبحت بالتدريج اصلاحية ، الى الحد الذى يمكن أن يقال معه ان هناك ضربا من ضروب الاجماع السياسى القومى بين أحزاب اليمين وأحزاب اليسار على حد سواء .

واذا كان الأمر كذلك ، فانه من المعقول أن نفترض أن الايديولوجيات المتغيرة تعكس ـ الى حد ما ـ تقلص الأهمية السياسية للطبقة العاملة . لقد كانت مثل هذه الأفكار رائجة لدى علماء الاجتماع فى الخمسينات أكثر مما هى عليه الآن ؛ اذ ظهر الآن اتجاه مخالف ، يتمثل فى راديكالية من نوع جديد ظهرت بين شباب العمال والعمال الذين يعملون فى مصانع على درجة عالية من التكنولوجيا ، حيث تجسدت فى المطالبة بمزيد من المشاركة فى ادارة المشروع ، وتجديد الاهتمام بأفكار عامة كالمشاركة ،الديموقراطية الصناعية والضبط العمالى .

والمهمة الملقاة على علم الاجتماع الماركسى فى أن يدرس التغيرات فى البناء الطبقى ، وأن يضعها داخل السياق الكلى للتغيرات فى نظام الانتاج (الذى يتضمن بجانب الخصائص التى أشرنا اليها من قبل خصائص أخرى كظهور الشركات الدولية العملاقة ، وأن يتناول ـ وفقا للخطوط التى أشرنا اليها ـ التأثيرات التى تركتها هذه التغيرات علىخلق أشكال جديدة للوعى الاجتماعى . واذا كان لنا أن نتناول هذه المسائل بالدقة المطلوبة فلا بد من أن نأخذ فى اعتبارنا نوعا آخرا من أنواع التغير

التى طرأت على الرأسمالية الحديثة ، ونعنى تحقيق نمو اقتصادى هائل غير مصحوب بأية أزمات اقتصادية حادة فى العشرين سنة الماضية .وقد أدى هذا النمو الى تحسن مستمر وملحوظ فى مستوى المعيشة العام .أما التأثيرات التى تركها هـــذا التغير على الوعى الاجتمـاعى فتنحصر فى عنصرين : الأول : أنه قـد أدى الى تأكيـد وتدعيم فـكرة أن المجتمعات الحديثة هى مجتمعات الطبقة الوسطى ، وأن الطبقات الأخرى تقف موقفا هامشيا بالمعنى السياسى والايديولوجى ، وهى فكرة ظهرت مع التحول الى مهن الطبقة الوسطى • والثانى : انه يظهر النمو الاقتصادى ذاته على انـه ايديولوجية جديـدة • فلقـد اكد الجـدل السياسى فى المجتمعـات الرأسمالية الاهتمام المتزايد بمسائل كالتقدم التـكنولوجى ، والتحـديث والنمو ؛ وطغت هذه المسائل على تلك التى سبقتها والتى كانت تنصب على مظاهر اللامساواة بين الطبقات ، حقيقة انه يمكن القـول بأن أى نظرية تعجز عن أن تلاحق ــ وتعبر عن ــ الاستمرار المطرد فى النمو الاقتصادى ولكن خبرات العشرين سنة الماضية ، فضلا عن الآراء النظرية التى أكدت قدرة النظام الرأسمالى على تجنب الأزمات الاقتصادية الخطيرة ، هـذه الخبرات وتلك الآراء قد دفعت قطاعا عريضا من السكان الى الاقتناع بأن النمـو الاقتصادى المستمر والتزايد المطرد للرخاء يمثلان توقعا مقبولا وقيمة اساسية ؛ وفى نفس الوقت فـان النظريـة الماركسية عن « أزمـة الرأسمالية » ، والتى تحققت بأقصى صورها فى الصراعات السياسيـة فى الثلاثينات ، قد أصبحت غير ذات مفعول •

لقد تبددت مظاهر الغموض الفكرى فى الوقت الحاضر ــ وقد ألمح اليها لوكاتش ــ فى الظلال التى ألقيت على بعض الايديولوجيات المستقرة (وخاصة الماركسية) ، وظهور عدد متشابك من المذاهب الفكرية الجديدة، او الموضات الفكرية الجديدة (كما هـو الحـال فى حركات الطلاب على سبيل المثال) لاترتبط ارتباطا وثيقا بالطبقات الاجتماعية أو حتى بـأى جماعة متميزة يمكن النظر اليها على انها اداة فعالة فى التغير الاجتماعى وبذلك فقد أصبح فهم الظروف التى تشكل وعيـا سياسيا ومن ثم تمييز

اتجاه الاحداث ، يشكل صعوبة بالغة ٠ ولكن يبقى هناك على الأقل شيء واحد على درجة من الوضوح : لقد تجاوزنا الفترة التى كان بامكاننا أن نناقش الوعى الحقيقى للجماعات الاجتماعية فيها ، كما يتبدى فىمعتقداتهم وأفعالهم ، كمجرد « وعى سيكولوجى » أو « وعى زائف » يمكن أن يقارن بالوعى الرشيد (العقلانى) المتمثل فى أيديولوجية الحزب الشيوعى ٠

الفصل الثامن

الطبقة والسياسة في أوربا الغربية (١)

روج الكثيرون من علماء الاجتماع فى الخمسينات للرأى القائل بأن البناء الطبقى فى اقطار اوربا الغربية قد تعرض لتغيرات جذرية ، وأن هذه التغيرات قد أدت الى ظهور مجتمع اصبحت فيه الفروق الطبقية أقل تمييزا ، والحواجز بين الطبقات أقل صلابة ، والمعارضة والصراع بين الطبقات أقل حدة ، والوعى بعضوية الطبقة أقل شدة وأقل أهمية ٠وهناك صورة متطرفة من هذه النظرية تذهب الى القول بأن الطبقات ـ كجماعات اجتماعية ذات أهمية ٠ قد اختفت تقريبا ، ان لم تكن قد اختفت كلية فى الاقطار الصناعية المتقدمة ٠ أما عن العوامل الرئيسية التى ساهمت فى خلق هذا الموقف الجديد ، فقد قيل انها تنحصر فى ارتفاع مستويات المعيشة بشكل مستمر وسريع ، وتقدم التكنولوجيا وما صاحب ذلك من تغيرات فى تنظيم الانتاج ، واعادة توزيع الثروة والدخل والذى نتج فى جانب منه عن التوسع فى الخدمات الاجتماعية التى يتم تمويلها من خلال فرض الضرائب التصاعدية ؛ وارتفاع معدلات الحراك الاجتماعى بسبب التوسع فى فرص التعليم ، واخيرا ـ وعلى المستوى الايديولوجى ـ اختفاء المشكلات الاجتماعية التى كانت تثار من قبل امام تزايد الاهتمام بالنمو الاقتصادى فى البلدان الصناعية والتصنيع فى البلدان النامية ، والانفجار السكانى ، وخطر الحرب الذرية ٠

ولقد اختلفت أساليب وصف وتفسير هذه التغيرات فى كتاباتبعض

---

(١) أعيد نشره من المصدر التالى :
M. Scotford Archer and Salvador Giner (eds) Contemporary Europe : Class, Status and Power (London, 1971).

من اكثر المتخصصين فى العلوم الاجتماعية شهرة فى الخمسينات والستينات ، ولكنها تكمل بعضها البعض رغم هذا الاختلاف ، فقد ذهب جالبراث Galbraith فى كتابه « مجتمع الوفرة » ـ وهو كتاب يمثل الى حد كبير الفكر الاجتماعى لهذا العصر ـ الى القول بأن « عدم المساواة لم تعد ذات اهمية كمسالة اقتصادية » ، وأن الناس ينظرون الى الزيادة المستمرة فى الناتج الاجمالى على انها بديل لاعادة توزيع الثروة · ووفقا لهذه الفكرة اعاد جالبراث صياغة « المشكلة الاجتماعية » بانها لم تعد مشكلة لامساواة بين الطبقات وانما مشكلة تحقيق التوازن بين الثراء الفردى والمصلحة العامة ·

ولا تعتبر افكارا من هذا النوع مجرد انعكاس للخبرة الامريكية فى فترة ما بعد الحرب · فقد لاحظ بوستان Postan فى كتابه « التاريخ الاقتصادى لاوربا الغربية » ١٩٤٥ ـ ١٩٦٤ « أن نمو الاقتصاد الاوربى بعد عام ١٩٤٥ كان اكثر صعودا واقل تراخيا من أى فترة أخرى فى التاريخ الحديث · فقد زادت الانتاجية ـ كما حسبها بوستان ـ فى اقطار أوربا الغربية فى الفترة من ١٩١٨ ـ ١٩٣٨ بمعدل ٧ر١٪ فى العام ، بينما زادت فى الفترة من ١٩٤٥ ـ ١٩٦٣ بمعدل يزيد عن ضعف هذا المعدل ، حيث وصل الى ٥ر٣٪ فى العام · اما عن أجمالى الناتج القومى G. N. P. لأوربا الغربية فقد تضاعف (مع ثبات الاسعار) فى عام ١٩٦٣ مرتين ونصفا عما كان عليه عام ١٩٣٨ · وفضلا عن ذلك فان رخاء ما بعد الحرب كان اقل تعرضا للأزمات الحادة مما كان عليه الحال فى أى فترة أخرى سابقة ، اما أسباب هذه الطفرة الهائلة فى النمو فانها غير واضحة تماما ، غير أن بوستان قد أكد على عاملين هامين هما : ارتفاع معدل الاستثمار (وهو فى معظمه استثمار حكومى أو تشرف عليه الحكومة) ، والتقدم الواسع والسريع للتكنولوجيا · وأوضح بوستان أيضا كيف ظهرت « ايديولوجية للنمو » لم تكن مجرد رد فعل للنمو الذى تحقق بالفعل وانما كانت أيضا استمرارا للاهتمامات السابقة بفكرة التشغيل الكامل ، وهى اهتمامات ترجع الى مناقشات دارت فى الثلاثينات · لقد تحولت فكرة التشغيل الكامل ـ على ما ذهب بوستان ـ « تحولت بالفعل الى سياسة

عملية وفلسفة اقتصادية لها تطبيقات على نطاق واسع ٠٠٠ أى أنها تحولت الى سياسة للنمو الاقتصادى » ٠

والحقيقة أن عملية النمو هذه ، وما صاحبها من تغيرات فى تنظيم الانتاج وسياسة الحكومة ، هى نفس العملية التى اهتم بها جالبرأثدون ان يتناول بالتفصيل تأثيراتها على التدرج الاجتماعى(٢) ولقد تناول اثنان من علماء الاجتماع المرموقين هما سيمور مارتن ليبست وريمون ارون التغيرات التى طرأت على البناء الطبقى فى اطار النمو الاقتصادى والعمل السياسى ، اما وجهة نظر آرون ــ والتى عرضها باستفاضة فى كتابه « صراع الطبقات » الصادر عام ١٩٦٤ وكتابه الآخر بعنوان « التقدم وزوال الوهم » ــ فيمكن تلخيصها على النحو التالى : اصبح نظام التدرج الاجتماعى فى المجتمعات الصناعية ــ وكنتيجة للتطور الاقتصادى ــ اصبح اكثر تعقيدا عن ذى قبل ٠ فلم يظهر اى شكل من الاستقطاب بين الطبقتين المتنازعتين (يقصد طبقة البرجوازية وطبقة البروليتاريا) ، ولم تزدد نسبة عمال الصناعة أو اصحاب الحرف اليدوية من السكان ، بل بدأت هذه النسبة فى التناقص فى معظم المجتمعات المتقدمة ؛ وتم تقليل ساعات العمل مع زيادة الدخول الفعلية ؛ وتزايد معدل الحراك الاجتماعى أو انه فى طريقه الى التزايد٠ وتعنى هذه التغيرات ــحسبما ذهب آرون ــ أن الظروف الاساسية لتشكل البناء الطبقى والمحافظة عليه ــ بمعنى التماسك الداخلى لكل طبقة واستمراريتها من جيل الى آخر ، ووعى الفرد بانتمائه لطبقة معينة ، والوعى الذاتى بالطبقة نفسها ــ كل هذه الظروف قد ضعفت بشدة ، ان لم تكن قد اختفت تماما ٠ وبصفة عامة ، فان أرون ــ مثله مثل جالبرات ــ قد أعاد صياغة « المسألة الاجتماعية »فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وذلك من خلال استبداله لفكرة التناقض بين الرأسمالية والاشتراكية بفكرة التناقض بين المجتمعات الصناعية والمجتمعات غير الصناعية ، والاهتمام بفكرة تطبيق العلم فى الانتاج

(٢) ناقش جالبرات فى كتاباته الأخيرة ــ خاصة كتاب « الدولة الصناعية الجديدة » بعض جوانب التدرج التى سأشير اليها فيما بعد ٠

بصرف النظر عن طابع النظام الاقتصادى الذى يظهر فيه كأحد الحقائق الحيوية والحاسمة فى المجتمعات الحديثة ·

ولقد تناول ليبست تغير البناء الطبقى بنفس الطريقة تقريبا ، ولكن من خلال الاهتمام بصفة خاصه بفكرة نهاية الايديولوجيا(*) والتعبيــر عن الاعتقاد بأن معالم البناء الطبقى القديم قد اختفت تماما من المجتمع الرأسمالى · فقد توصل ليبست فى كتابه « الانسان السياسى » الى نتيجة مفادها أن الارتباط بين الرخاء (الوفرة) والديموقراطية قـد أدى ـ فى الولايات المتحدة أساسا ـ الى ارساء دعائم المجتمع الخير good society واننا لايجب أن نتوقع حدوث أية تغيرات اجتماعية وسياسية جوهريــة ، أو نرغب فى احداث هـذه التغيرات ، فى هـذا النمط من المجتمعــات · وذهب ليبست فى مقال آخر عن بلدان أوربا الغربية(٣) الى أنه «··· فى مقابل الحديث عن التميز الاوربى وتبنى العلاقات السياسية التى لاتؤدى الى نموذج مستقبل الولايات المتحدة ، أصبح التنظيم الاجتماعى للولايات المتحدة يقدم صورة للمستقبل الأوربى»ـ وتتمثل هذه الصورة فى مجتمع لا طبقى يختفى منه أى شكل للصراعات الايديولوجية أو السياسية حول البناء الاساسى للمجتمع ·

لقد توصل كل من ليبست وآرون ـ اذن ـ الى نتيجة واحدة تتمثـل

(*) ظهرت فكرة نهاية الايديولوجيا فى منتصف الخمسينات وقــد روج لهـا عالمـا الاجتماع الأمريكى ادوارد شيلز Shils ودانيال بل Bell · ولقد كانت هذه الفكرة تعكس تيارا من الدعة والتفاؤل سيطر على المفكرين الاجتماعيين فى أمريكا حيث ساد الاعتقاد بأن المجتمع الديموقراطى الغربى قد تغلب على مظاهر الصراع الأيديولوجى ، بحيث تضاءلت الفروق بين اليمين واليسار الى درجة لم يعد فيها مكان للايديولوجيا فى هذا المجتمع ؛ فقـد انتهت الأيديولوجيا اذن · ومعنى ذلك أن فكرة نهاية الأيديولوجيا قـد حاولت أن تصــور المجتمع الرأسمالى وكأنه حقق قـدرا كبيرا من الاتفاق العام ، ولذا ما ظهرت بعض مظـاهر الخلاف فانها تدور حول بعض المشكلات البسيطة المتعلقة بمجتمع الوفرة الديموقراطى · ولقد اثبتت تيارات النقد فى علم الاجتماع فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات أن هذه الفــكرة ما هى الا محض خيال · المترجم

(٣) S. M. Lipset, " The Changing Class Structure and Contemporary European Politics ", in. : S. R. Graubard, A New Europe ? (Boston, Mass, 1964).

فى القول بأن الصراع الطبقى والسياسة التى تقوم على أساس أيديولوجى قد اختفيا الى حد كبير من البلدان الصناعية المتقدمة ، وسوف يستمرا فى الاختفاء لامراء فى ذلك • فقد اكد ليبست على وجود اتجاه مطرد نحو مزيد من المساواة فى الداخل ونحو تحول الصراع الطبقى الى عملية مساومة محدودة بين جماعات المصلحة ؛ بينما لاحظ آرن – مع قليل من التحفظ – أن « الخبرة بمعظم الاقطار المتقدمة توحى بأن المنافسة شبه السلمية بين الجماعات الاجتماعية تحل بالتدريج محل ما يسمى بالصراع المتطرف الذى يفترض فيه أن تقضى طبقة معينة على طبقة أخرى »(٤) •
ومع ذلك فان الغليان وعدم الاستقرار والصراع الحاد الذى عرفته الحياة السياسية منذ منتصف الستينات قد ألقى كثيراً من الشك على بعض هذه التغيرات الأمر الذى أدى الى اعادة تقييم الأفكار الخاصة بالبناء الطبقى التى انتشرت منذ عقد مضى • لقد كتب آرون – مثلا – ملاحظاته قبل احداث مايو ١٩٦٨ فى فرنسا • فبالرغم من أن هذا التمرد قد بدأ به الطلبة

فانه بدا للبعض على انه يتخذ طابع المواجهة الشعبية بين الطبقات ، على نحو لم يحدث من ثلاثينات هذا القرن • ونفس هذه الأحداث التى ظهرت فى سياق احياء الحركات الراديكالية بعامة – هى التى دفعت ليبست الى الاعتراف بضرورة مراجعة افكاره السابقة ، حيث كتب فى تصدير لمجموعة من المقالات حول علم الاجتماع السياسى المقارن(٥) يقول :

« يمثل عام ١٩٦٨ نقطة تحول فى تاريخ السياسة الديموقراطية للجماهير : لقد انتهت الى غير رجعة السنوات الهادئة التى اتسمت بالتكيف والتكامل والاستئناس السياسى ، حيث تسببت موجات جديدة من التعبئة والتعبئة المضادة فى اخراج عدد من الديموقراطيات الغربية من حالة التوازن ، وبدأ الجيل الجديد فى تحدى منطق وافتراضات الجيل القديم •

---

(٤) Progress and Disillusion (New York, 1968) P. 15.

(٥) S. M. Lipst and S. Pakkan, "Preface" to Party Systems, Party Organization and Politics of New Masses (Papers of The 3rd International Conference on Comparative Political Sociology (Berlin, 1968).

كما يمثل عام ١٩٦٨ ايضا نقطة تحول فى علم الاجتماع السياسى كفرع عالمى من فروع المعرفـة : فالهبة الثورية ـ القائمة على العنـف ـ للقوى الجديدة لم تؤد فقط الى تحدى النظريات والنماذج التى ظهرت فى الخمسينات والستينات ، وانما فرضت ايضا نوعا من اعادة التقيم لأساليب جمع البيانات واستراتيجيات التحليل » •

والسؤال الذى يثور الآن هو الى أى حد دفعتنا الأحداث السياسية فى نهاية الستينات الى مراجعة ذلك النوع من تحليل البناء الطبقى والذى ظهر عموما فى العقد الماضى ؟ لنتبين بادىء ذى بدء الآثار التى ترتبت على النمو الاقتصادى فى مقابل تلك التى ترتبت على الدخل • ليس هناك خلاف حول واقع الوفرة المتزايدة فى اقطار أوربا الغربية ، أو حول بعض الآثار المترتبة عليها • فقد حققت نسبة من السكان أكبر من أى وقتمضى مستوى من المعيشة يساوى ـ من الناحية المادية ـ المستوى الذى كان يميز الطبقة الوسطى منذ جيل مضى أو نحو ذلك •وفضلا عن ذلك ، فان استمرار النمو الاقتصادى بمعدلاته الحالية سوف يمكن أعدادا متزايدة منالسكان من أن تحقق هذا المستوى • ويمكننـا وفقـا لذلك أن نتحـدث عن ظهور مجتمعات الطبقة الوسطى • كما يمكن القول أيضا بأن سنوات قليلة من النمو ـ بنفس معدلات فترة ما بعد الحرب ـ سوف تؤثر على مستويات المعيشة الخاصة بالطبقة العاملة بدرجة تفوق اية اعـادة لتوزيع الثروة والدخـــل •

غير أنه يمكن النظر الى هذه الحقائق من زاوية أخرى •فمما لاشك فيه أن مستويات معيشة الطبقة العاملة قد تحسنت الى حد كبير كنتيجـة للنمو الاقتصادى ، ذلك لأنه لم تكن هناك اية اعادة لتوزيع الثروة والدخل وان وجدت فقد كانت تتم بشكل طفيف •• ففى بريطانيا ، تؤكد دراســات عديدة أن بعض مظاهر اعادة توزيع الدخل لصالح الطبقة العاملة خلال الفترة التى امتدت من بداية هذا القرن ، لم تتغير تغيرا جذريا فى الفترة التى امتدت منذ الثلاثينات وحتى الخمسينات ، وأن مظاهر عدم المساواة

قد بدأت تتزايد مرة أخرى ــ على ما يبدو ــ بعد عام ١٩٥٩(٦) ·وبنفس الطريقة ، فانه فبالرغم من أن تركز الثروة فى أيدى الشريحة العليا التى تشكل ١٪ من السكان قد انخفض بين عامى ١٩١١ ــ ١٩٦٠ ، بالرغم من ذلك ، لم تظهر اعادة توزيع جوهرية (جذرية) للدخل ، طالما أن هناك ٧٥٪ من مجموع الثروة الخاصة تتجمع فى أيدى الشريحة العليا التى تمثل ٥٪ من السكان (فى مقابل ٨٧٪ فى الفترة من ١٩١١ ــ ١٩١٣)، ويستحوذ هؤلاء الملاك على ٩٢٪ من مجموع الدخل الناتج عن الملكية الخاصة(٧)· ويبدو ــ وكما تؤكد المادة المتاحة ــ أن البلدان الأوربية الأخرى لم تشهد أى شكل من أشكال اعادة توزيع الدخل ·

وبنـاء على ذلك ، فانه بالرغم من التزايد الملحوظ للمستوى العام للدخل ، فان الاوضاع النسبية لمختلف الطبقات لم تتغير منذ قبل الحرب، الا بشـكل طفيف ، هذا اذا كانت قـد تغيرت أصلا ؛ فقـد ظلت الأسس الاقتصـادية للتباين الطبقى ــ الاستحواذ على الملكيـة من عدمه ــ كما كانت عليه من قبل ، والسؤال الذى يجب أن نأخذه بعين الاعتبار هنـا يتصل بما اذا كانت هذه الفروق الطبقية لهـا ــ فى الوقت الحاضر وفى ظروف الرخاء العام ــ نفس الأهمية الاجتماعية والسياسية التى كانت لها فى التاريخ المبكر للمجتمعات الأوربية· شىء واحد هو المؤكد فى هذا الصدد لم يعد بامكاننا أن نقابل بين الطبقة العاملة والطبقة العليا (البرجوازية) فى ضوء وجود الفقر فى مقابل الثروة · حقيقة أن هناك كما هائـلا من الفقر فى مجتمعات الوفرة ، ولكنه فقر لايرتبط بطبقة برمتها ، أو بغالبية السكان · انه فقر يرتبط بجماعات اجتماعيـة معينـة ــ كبـار السن ، الجماعات العرقيـة ، العمـال المهاجرين ، أو العمـال الذين يعملون فى صناعات فى طريقها الى الاختفاء ــ ويتطلب القضاء على هـذا الفقر

---

(٦) انظر ملخصاً بالبيانات فى المصدر التالى :
S. Pollard and D. W. Crosseley, The Wealth of Britain (London, 1968) Chapter 9.

(٧) انظر المرجع السابق ، وانظر كذلك ·
J. E. Meade, Efficiency, Equality and The Ownership of Property (London, 1964).

سياسات اجتماعية معينة ، دون تحول النظام الطبقي برمته ؛مع الاشارة الى حقيقة أن الطبقة العاملة او أحزاب اليسار ـ دون احزاب اليمين ـ هى التى أسهمت ـ ويجب أن تسهم ـ فى الارتقاء بهذه السياسات ٠

ويمكن القول بصفة عامة أن تزايد الرخاء يغير من طابع العلاقات بين الطبقات حتى وان لم تتغير المواقع النسبية لهذه الطبقات فى تدرج الدخل والثروة ٠ فقد اقترح آرون ـ مثلا ـ « أن الزيادة العامة فى الثروة قد ضيقت الفجوة بين أشكال الحياة المختلفة ، حتى وان لم تكن عدم المساواة النسبية قد تغيرت بالدرجة المطلوبة ٠ فما هى الفروق الحقيقة التى تخلقها الثروات الضخمة اذا كانت الحاجات الأساسية ٠٠٠ تشبع بنفس القدرة تقريبا »(٨) ٠ ولقد أخذ هذا الراى صورة أكثر تحديداً فى فكرة تبرجز embourgeoisement الطبقة العاملة ، بمعنى استيعاب الطبقة العاملة الميسورة الحال داخل الطبقة الوسطى من حيث موقفها الاقتصادى، واسلوب حياتها ، وقيمها الثقافية ، ونظراتها السياسية ٠ ويرجع السبب فى ذيوع هذا التصور عن «الطبقة العاملة الجديدة» الى القياس الخاطىء على الموقف الاجتماعى فى الولايات المتحدة (والتى عرفت نظاما طبقيا فريدا من الناحية التاريخية) من ناحية ، والى حالة السلام الاجتماعى التى شهدتها اقطار أوربا الغربية فى فترة الخمسينات من ناحية أخرى ؛ غير أن الدراسات الحديثة ـ فضلا عن عودة الروح الراديكالية الى الحياة السياسية ـ قد القت ظلالا من الشك على وجود اتجاه عام نحو التبرجز بمعناه السياسى والثقافى ٠ فقد أوضحت أدق البحوث التى اجريت حتى الآن على العمال الميسورى الحال ـ وهو البحث الذى أجراه لوكود Lookwood وجولدثروب Geldthrope وزملاؤهما ـ أنه لم يحدث اى تغير فى الولاء السياسى للعمال ، ويخلص البحث الى أن « ٠٠٠ فهم سياسة الطبقة العاملة فى الوقت الحاضر يتطلب ـ أولا وقبل كل شىء ـ دراسة مظاهر العلاقات الاجتماعية التى يقيمها العامل مع الجماعات الأخرى ،

---

(٨) Aron, (1968) Op. cit., P. 11.

وليس فى مستوى دخله وممتلكاته على ما يذهب البعض »(٩) • وفى حالة فرنسا وايطاليا فان ولاء الطبقة العاملة للحزب الشيوعى لم يتأثر كثيرا، وينسحب ذلك على ارتباط العمال بالحزب الديموقراطى الاشتراكى فى المانيا الغربية ، وبالاحزاب الاشتراكية عموما فى بعض اقطار أوربـــا الأخـرى • أمـا فى الـدول الاسكندنـافية ـ وكما أشـار ايرت الاردت Erik Allardt ـ فان عضوية الطبقة أصبحت تحظى بأهمية متزايدة فى عملية التصويت الانتخابى ، فمع اختفـاء الحواجز الطبقيـة التقليدية ، اصبح الناخبون الذين ينتمون الى الطبقـة العاملة اكثر ميلا عن ذى قبل للتصويت لصالح أحزاب العمال •

ورغم ذلك فقد يكون التغير الذى طرا على النظرة السياسيةللعمال وعلى أهدافهم وهو تغير ينعـكس فى الأهداف المتغيرة لأحـزاب الطبقة العاملة التقليدية نفسها ، والتى لم تعد تسعى الى احداث تغير جـذرى فى المجتمع الرأسمالى وانما الى احداث بعض الاصلاحات داخله ـ هذا التغير قد يكون ناتجا عن تزايد معدلات الرخاء • ولكن مثل هذه الفـكرة كانت مقبولة فى الخمسينات عنها فى أواخر الستينات ، حيث ظهر احياء للراديكالية فى سياسة الطبقة العاملة ، له قدر من التميز بالرغم من عدم شموله ، وفى اعتقادى أن تطور النسق الطبقى فى المستقبل ، وبالتـالى بعض الجوانب الهامة للحياة السياسية ، سوف يتأثر بالتغيرات التى تطرا على موقف الطبقة العاملة فى عملية الانتاج،اكثر من تأثره بتزايد الرخاء ومن بين أهم التغيرات التى حدثت فى الانساق الاقتصادية للمجتمعـات الصناعية حركة العمل من قطاع الزراعة وقطاع الصناعات الاستخراجية الى قطاع الصناعات التحويلة ، ثم بعد ذلك من قطاع الصناعة التحويلية الى قطاع الخدمات(١٠) ، وتحول العمل داخل الصناعة التحويليةنفسها من المهن اليدوية الى المهن الكتابية والمهن الحرفية • وقـد شهدت هـذه

---

(٩) J. H. Goldthrope, D. Lockwood and others, The Affluent worker : Political Attitudes and Behaviour (Cambridge, 1968). P. 82.

(١٠) فى عبارات كولين كلارك تم التحـول من قطـاع الصـناعات الأولية الى قطـاع الصناعات الثانوية ، ثم بعـد ذلك الى ما اسماه بالقطاع الثالث •

العملية أقصى درجات حدتها فى الولايات المتحدة الامريكية حيث يشكل العمال الذين يعملون فى وظائف كتابية والعمال الحرفيون نسبة من قوة العمل تفوق نسبة العمال اليدويين ، غير أن ذات العملية تتقدم بسرعة فى اقطار أوربا الغربية أيضا · فقد لاحظ بوستان أن العمالة فى الصناعة التحويلية بالملكة المتحدة زادت ١ر١ مليون فى الفترة ما بين ١٩٤٨ ـ ١٩٦٢ ، ولكنه لاحظ أيضا أن ٧٤٥ الفا من هؤلاء العمال كانوا موظفين من الفنيين والكتبة أساسا · وظهرت تغيرات مشابهة فى الاقطار الصناعية الاخرى ، وهى تغيرات سوف يزداد معدلها مع تقدم الآلية (الاتوميشن) · وهكذا يمكن أن نتوقع استمرار الطبقة العاملة ـ الطبقة التقليدية المكونة من العمال اليدويين وعمال الصناعة والتى اهتمت بها نظرية ماركس وكثير من التفسيرات السوسيولوجية ـ الانكماش كنسبة من السكان ، الأمر الذى سيترتب عليه بالضرورة نتائج اجتماعية وسياسية هامة · فلم تعد الطبقة العاملة قائمة بنفس الطريقة التى صورها ماركس ، كطبقة صاعدة متزايدة الحجم · وفضلا عن ذلك يجب أن نلاحظ أن مهنا معينة كمهن العمل فى مناجم الفحم ، والتى لعب أعضاؤها دورا رئيسيا فى حركة العمل بسبب تكوينها لوعي طبقي ولتجمعات راديكالية قد شهدت انكماشا سريعا ومتميزا فى العدد ·

وهناك تأثير آخر له مضمون مشابه يرتبط بموقف الطبقة العاملة فى بعض الدول الصناعية المتقدمة فى غرب أوربا ؛ ونعنى به تدفق المهاجرين سواء من مناطق المستعمرات السابقة أو من الدول الأكثر فقرا فى أوربا(١١) ولقد اتجهت الغالبية الغالبة من هؤلاء المهاجرين الى أحط الأعمال اليدوية واقلها أجرا ، وشكلوا بذلك قطاعا مميزا من الطبقة العاملة ولقد تزايدت اعداد هؤلاء المهاجرين فى سويسرا (حوالى ثلث قوة العمل الكلية) الى درجة أنهم أصبحوا يشكلون كل الطبقة التى تعمل فى الأعمال اليدوية تقريبا ؛ ويمكن للمواطنين السويسريين أن يتطلعوا فى المستقبل

---

(١١) عندما نشر هذا الفصل لأول مرة ، ظهرت دراسة شاملة حول هذا الموضوع انظر :
Stephen Catles and Godula Kosack, Immigrant Workers and Class Structure in Western Europe (London, 1973).

القريب الى موقف لايحتاجون فيه هم انفسهم الى الالتحاق بالمهن اليدوية على الاطلاق ، حقيقة أن سويسرا تمثل حالة استثنائية فى هذا المجـال ، ولكن اعداد العمال المهاجرين قد وصلت الى حد لايستهان به فى كل من فرنسا والمانيا • ومثل هؤلاء العمال المهاجرين لايشـاركون فى الحيـاة السياسية فى البلدان التى يعملون فيها ـ وذلك بسبب انتمائهم الى بلد اخر ، وتحدثهم للغة مختلفة ، ومشاركتهم فى ثقافة مشتركة • الأمر الذى يترك اثاره على الحركات السياسية للطبقة العاملة فى هذه البلدان • ومن اهم الآثار المترتبة على ذلك تزايد اللاتجـانس بين صفوف الطبقـة العـاملة كنتيجة للتعدد السلالى ، وظهور بروليتاريـا فرعية متميزة ومنعزلة من الناحية الاجتماعية • وتتشابه هذه الظروف مع ظروف الولايات المتحدة الامريكية فى وقت مبكر من تاريخها حيث وقفت الفروق السلالية والوضع الخاص للزنوج حجر عثرة امام تطور حركة عمالية راديكالية •

وبناء على ذلك ، فان احد الملامح الملفتة للنظر فى تغير البنـــاء الطبقى يتمثل فى بداية انكماش حجم الطبقة العاملة التقليدية • ويتضمن هذا بدوره اتساع الطبقات الوسطى • ويمكن النظر الى البلدان الصناعية ـ فى ضوء بنائها المهنى ومستويات المعيشة السـائدة فيهـا ـ على انها تتحول بالفعل الى مجتمعات الطبقة الوسطى ، او انها على شفا هـــذا التحول • والسؤال الذى يجب أن نلتفت اليه هنا يرتبط بما اذاكانت هذه الطبقة الوسطى الجديدة ـ المتزايدة باستمرار ـ سوف تكتسب الخصائص الاقتصادية والثقافية والسياسية للطبقة الوسطى التى كانت موجودة فى وقت سابق من هـذا القرن أم لا • هذه مسالة متشابكة الى حد ما ، ذلك ان الطبقة الوسطى التى وجدت فى الثلث الأول من القرن العشرين كانت جديدة ، بمعنى أنها كانت تتكون من الموظفين الذين يشتغلون بالأعمـال الكتابية والذين يشتغلون بوظائف مهنية ، ولم تشتمل على اصحاب المهن الحرة وصغار رجال الأعمال ، الأمر الذى جعلها اقل تجانسا ، على أن هذه الطبقة الوسطى ككل كانت ما تزال صغيرة الحجم نسبيا ، كما كانت تشكل قطاعا محظوظا من السكان ، يتميز بوضوح عن الطبقة العاملة • اما الطبقة الجديدة التى ظهرت فى أوربا فى فترة ما بعد الحرب فانهـــا

تشكل جماعة أكثر تعددا واكثر اتساعا ، اما اعضاؤها فانهم اقل وعيا بأنهم يشغلون مكانة طبقية متميزة ·

وهناك ثلاثة تفسيرات لمسالة ما اذا كان هناك استمرار تاريخى بين هذه الطبقة والطبقات التى سبقتها ، وما اذا كان موقفها الاقتصادى والاجتماعى ونظرتها السياسية تختلف اختلافا جذريا الآن · يؤكد التفسير الأول – الذى ظهر فى الخمسينات – على عناصر الاستمرار ويتنبأببزوغ مجتمعات الطبقة الوسطى التى سينخفض فيها الصراع السياسى الناتج عن المصالح الطبقية المتعارضة ، بحيث يحل محله اجماع واسع فى الرأى على الأمور المتعلقة بالسياسة الاجتماعية والاقتصادية ، ولا يوجد فيها الا مظاهر خلاف مرحلى بسيط يظهر بين الجماعات المحافظة والجماعات التقدمية ، ويشتمل هذا الرأى على فكرة اندماج الطبقة العاملة فى مجتمع الطبقة الوسطى ، غير انه ليس من الواضح تماما عما اذا كانت هذه النظرة تشير ضمنيا الى اختفاء الطبقة العليا · فقد ذهب بعض علماء الاجتماع والمتخصصون فى العلوم السياسية الى انه لم تعد هناك طبقة عليا بمعنى الطبقة التى تحكم المجتمع – فى الولايات المتحدة الامريكية ، وأن الطبقات العليا فى البلدان الأوربية فى طريقها الى التحلل ·وينظر هؤلاء الكتاب الى المجتمعات الصناعية على انها تتحول كلية الى طبقة وسطى ، مكونة من جماعات اجتماعية كثيرة ومتنوعة تمتلك كل منها القوة أو التأثير فى مناطق بعينها أو فى ظروف بعينها ، حتى وان كانت قوة لاتزيد عن حق الاعتراض · ومع ذلك فهناك طائفة اخرى من العلماء الاجتماعيين فى الوقت الذى يقبلون فيه فكرة أن الطبقة العاملة تمر بعملية اندماج فى مجتمع الطبقة الوسطى ، ينظرون الى المجتمع الجديد على انه ما يزال ينقسم الى فئتين : جماهير من السكان وطبقة عليا (صفوة أو مجموعة صفوات)·فنجد رايت ميلز يقابل بينجماعات الصفوة الحاكمةوالجماهير فى المجتمع الامريكى ؛ ونجد هربرت ماركيوز يصف – فى كتابه «الانسان ذو البعد الواحد» – المجتمعات الصناعية المتقدمة على انها مجتمعاتفى حالة تعبئة شاملة total mobilization تضحى فيها جماهير السكان بالحرية لتعيش تحت حكم شركات الاعمال الكبيرة والصفوة السياسية

وتحت تأثير وتحكم وسائل الاتصال الجماهيرى . وهناك ارتباط وتحالف بين العمل المنظم ودنيا الاعمال التجارية ، اما الخلاف والمعارضة فلم يعد لهما أى أساس اجتماعى ؛ وان كان التمييز بين الحكام والمحكومين ما يزال قائما ·

أما التفسير الثانى لهذه التغيرات فانه ينظر الى هذه الطبقة الوسطى الجديدة (أو على الاقل قطاعات عريضة منها) على أنها طبقة جديدة مسيطرة ، تختلف - مع ذلك - عن الجماعات الحاكمة التى سبقتها فى انها تشتمل على قطاع عريض من السكان وفى كونها اكثر التزاما بالرفاهية العامة للشعب من خلال التزامها بتحقيق النمو الاقتصادى · وقد أشار جالبراث الى هذه الطبقة الجديدة فى كتابه « الدولة الصناعية الجديدة » ، مستخدما مصطلح البناء التكنوقراطى techostructure ليصف التنظيم الذى يتكون من عدد كبير جدا من الأفراد ، بدءا من الموظفين الذين يحتلون أعلى المراكز الاشرافية فى شركة وحتى هؤلاء الذين يقعون فوق مستوى الكتبة والعمال اليدويين الذين يشاركون الآن فى ادارة الصناعة ، وفى تحديد السياسات الاجتماعية بعامة ؛ واهتم جالبراث اهتما خاصا بالقطاع الذى ينمو بسرعة من هذه الطبقة ، وهو القطاع الذى يشغل اعضاؤه مكانة علمية وتعليمية · وقد عبر دارندروف Dahrendorf عن افكار مشابهة - وان كانت متميزة - فى مقال عن «التغيرات فى البناء الطبقى فى أوربا» (١٢) · فقد ذهب الى ان الجماعات الحاكمة أو الصفوات الحاكمة (والتى اعتبرها جماعات ما تزال تحتفظ بصغر حجمها النسبى ، ولكنها تأتى فى معظمها من الطبقة الوسطى) تجذب ما اطلق عليه « طبقة الخدمات » Service Class (وهى تتكون من المديرين والبيروقراطيين) وهى تشكل بذلك طبقة حاكمة جديدة فى المجتمعات الأوربية · ومع ذلك فان دارندروف يرى أن هذه الجماعات تشكل مع بعضها قطاعا صغيرا نسبيا من السكان (لا يزيد عن ١٥٪ على أكثر تقدير) ، ولا

---

(١٢) R. Dahrendorf, "Recent Changes in Class Structure of European Societies" in S. R. Groubard, A New Europe? (Boston, Mass. 1964).

تكمن اهمية هذه الجماعات فى عددها ولكن فى حقيقة أن قيمها ، خاصة تلك المتصلة بالمنافسة الفردية ، قد انتشرت الى كل الجماعات الأخرى · وتؤيد افكار دارندروف فكرة الاستمرارية التاريخية ؛ فقيم طبقة الخدمات الجديدة ـ كما عرفها ـ لاتبدو مختلفة عن قيم الطبقة الوسطى القديمة ؛ ورغم ذلك فان التزايد المطرد فى اعداد هؤلاء الذين يدخلون فى نطاق «طبقة الخدمات» وتسربهم من الطبقةالحاكمة القديمة (كما راها دارندروف) يمكن أن ينتج طبقة مسيطرة جديدة فى البلدان الأوربية من ذلك النوع الذى وصفه جالبراث على انه وجد بالفعل فى الولايات المتحدةالأمريكية، غير انه من الممكن تفسير نفس الظواهر بطريقة اخرى كالقول بصعود اقلية جديدة الى نطاق القوة تضم التكنوقراطيين والبيروقراطيين ·

ولقد ظهر هذا الرأى ـ الذى يرجع الى فبلن Veblen ويمثل احياء للفكرة التى طرحت فى الاربعينات عن الثورة الادارية ـ فى فرنسابصفة خاصة فى السنوات الأخيرة ؛ من خلال اعمال جورج جيرفتش(١٣) Georges Gurvitch ومن بعده الن تورين(١٤) والموضوع الاساسى الذى يدور حوله رأى تورين هو أن الصراعات الاجتماعية العامة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة لم تعد تتركز حول حيازة الملكية ، وهكذا فانها لم تعد صراعات بين الطبقات الاجتماعية القديمة التى عرفهاالمجتمع الراسمالى · فالصراع الاجتماعى يتخذ الآن صورة « النضال السياسى المباشر ، ورفض الاغتراب ، وثورة ضد النسق الذى يقوم على التكامل والتحكم » ؛وهو صراع يضع جماعات مختلفة ـ والطلبة بصفة خاصة ـ فى موقف معارض لأولئك الذين يتحكمون فى مقدرات المجتمع من البيروقراطيين والتكنوقراطيين ·

اما التفسير الثالث فانه يختلف جذريا عن التفسيرين اللذين ناقشناهما حتى الآن ؛ وذلك من حيث انه ينظر الى الطبقة الوسطىالجديدة

---

(١٣) G. Gurvich (ed.), Industrilization et technocratic (1949).

(١٤) A. Touraine, La Societe Post-Industrielle : Maissance d'un Societe (1969).

على انها تمثل شكلا بديلا للطبقة العاملة التى تظهر الآن فى الاقطار الصناعية المتقدمة . ولقد قدم سيرج مالية(١٥) Serge Mallet جانبا من هذا التفسير ، وقدمت بعض اتجاهات فى حركة الطلبة الجانب الآخر منه . ذهب ماليه الى أن العمال ذوى الكفاءة الفنية والمهنية فى احدث الصناعات كانوا اكثر الناس معارضة للتنظيم الراسمالى الصناعى فى السنوات الأخيرة ، وأخذوا الصراع الطبقى التقليدى مأخذ الجد فى محاولة تغيير نظام الملكية والادارة فى المشروعات الاقتصادية . اما داخل الحركة الراديكالية للطلاب فقد تمت صياغة الفكرة القائلة بأن الطلاب هم بمثابة صبية تحت التمرين لكى يأخذوا اماكنهم فيما بعد فى صفوف الطبقة العاملة ذات الكفاءة الفنية العالية ، وقيل أن الطلاب قد اخذوا ينظرون لأنفسهم وفق هذا المنظور ، على انهم عمال المستقبل اكثر من كونهم اصحاب مهن واعضاء فى الطبقة الوسطى . والواقع انه لايؤيد هذه الوجهة من النظر الا اقلية قليلة (من المفكرين) ، غير أنها لعبت دورا مؤثرا فى الحركة الراديكالية فى الستينات وربما تشير الى تغيير ذى دلالة فى الوعى الاجتماعى للقطاع الذى يشغل مكانة علمية وتعليمية من الجيل القادم . وهناك بالفعل بعض المؤشرات الدالة على شكل التغير الذى ناقشة مالية ، تتبدى فى نمو نقابات ذوى الياقة البيضاء (الموظفين) والنقابات المهنية ، وكذلك فى تزايد القدرة على النضال السياسى militancy وتزايد راديكالية هذه الجماعات قد طورت توجها جمعيا يعارض النزعة الفردية التى احداث ١٩٦٨ درجة كبيرة من الراديكالية فى نظرتهم للأمور ، بل أن هذه الجماعات قد طورت توجها جميعا يعارض النزعة الفردية التى ميزت الطبقة الوسطى التقليدية ، ويعارض النزعة الجمعية الاداتية instrumental collectivism والتى ربطها كل من جولدثروب ولوكود بالطبقة الوسطى الجديدة(١٦) .

---

(١٥) S. Mallet, La Nouvelle Classe Ouvriere (1963) et 'La Nouvelle classe ouveriere en France" Chiers internationaux de Sociologie XXXXVIII (1965).

(١٦) J. H. Goldthrope and D. Lockwood, "Affluence and the British Class Structure", Sociological Review, XI (2) (July 1962).

وتصف كل هــذه التفسيرات المختلفة ميولا ، موجودة كلهـا فى المجتمعات الغربية ، ولــكن ليس لأى منها هيمنة على الأخـرى • فالطبقة العاملة لم تخفف بعـد ؛ ولم يتم استيعابها بشـكل كامل داخل الطبقـة الوسطى التقليدية : ولم توجد هناك بعـد طبقة حاكمة تكنو ــ بيروقراطية مستقرة ؛ ولم تبدأ الطبقة الوسطى بعـد فى النظر الى نفسها على أنهـا طبقة عاملة ، وسـوف نرى فى المستقبل ما اذا كان طلاب الستينات سوف يظهرون وعيـا اجتماعيا جديدا فى مهنهم الحرفية المنتظرة • وقبـل أن نقيم كل هــذه الاتجاهات تقييما أكثر قبولا لابد لنا أن نأخـذ فى اعتبارنا جانبا آخر من جوانب البنــاء الطبقى ــ ونعنى به موقف الطبقة العليا ، والذى أثير ــ بشكل مباشر أو غير مباشر ــ فى النظريات التى تنـاولت الطبقـة العاملة الجديدة والطبقة الوسطى الجديدة • فهل ما تزال هناك طبقة عليا يمكن تحديد معالمهـا فى المجتمعات الاوربية الغربية ؟ وهـل ماتزال هى نفس الطبقـة الراسمالية التى تحدثت عنها النظرية الماركسية ، أى ماتزال طبقا تمارس التحكم السياسى لانهـا تمتلك الادوات الاساسية للانتاج ؟ أم أن الطبقة العليـا القديمة قد أصابها التفكك ، وتحولت القوة السياسيـة التى تمتلكهـا الى جمـاعات ضغط عـديدة أو الى صـفوة جديدة ؟

الحقيقة أن الطبقة العليـا ، وكما أوضحنا فى موضع سابق ، أبعد من أن تكون قـد فقدت يدها الطولى فى ملكيـة الثروة أو النصيب الذى تحصل عليه من الدخل القومى • ولكن هـل هى نفس الطبقـة العليا التى كانت موجودة منـذ نصف قرن مضى ، وهـل ماتزال الثروة التى تملكها تمنحها تأثيرا طاغيا فى تحديد مجرى الحيـاة الاجتماعية والاقتصادية ؟ من الناحيـة الاقتصادية ، أشـار الباحثون الـذين أكدوا حدوث هـذه التغيرات الهامة الى ظاهرتين : نمو الملكية العـامة فى الصناعة والفصل بين الملكيـة والادارة فى المشروعات الخاصة • ورغم ذلك فان الصناعة المملوكة ملكيـة عامة لا تحتـوى على أكثر من ١٥٪ من الحجم الـكلى للعمالة فى بريطانيا ، وأقل من هـذه النسبة فى معظم الأقطار الاوربية الغربية • ولقد اختتم بوستان المسح الـذى أجراه عن آثار التأميم بقوله

أن الصناعة المؤممة ، كانت قوية ولكنهـا لم تعد تشـكل عنصرا هاما فى اقتصاد مختلط »(١٧) ولقـد صاحب التوسع المستمر فى الملكية العامة زيادة فى التنظيم الحـكومى للاقتصاد ككل ، مرتبطـة ارتباطا شـديدا بتخطيط النمو الاقتصادى ، وأدى هذا بدوره ـ كما ذهب القائلون بذلك ـ الى انكماش نصيب مالكى الثروة من القوة ٠ غير أن الرابطة بين شركات الاعمال وبين الحكومة يمـكن تفسيرها من زوايا عديدة ؛ فهنـاك تزايد الرقابة على المصالح الخاصة من خـلال سلطة سياسية منتخبة ٠ وهناك تزايد الرقابة على الحكومة من خلال المصالح الخاصة ٠ وليس من السهولة بمكان تفسير هـذه الخطوط التى تسير فى اتجاهات متعارضة من التأثير والقوة ٠ ولكن بامكاننا تفسيرها من خـلال معرفة الى أى حـد يشغل ممثلو الشـركات الكبـرى الوظائف السياسية الهـامة ، والتعرف على نوعية القوارات التى تصدر بشأن السياسة العملية ، أو التعرف على طابع السياسة الاقتصـادية الاجتماعيـة عبر فترة من الزمن ٠ وبامكاننا أن نتخـذ من عدم وجـود اعادة لتوزيع الثروة والدخل خلال نصف القرن الماضى مؤشرا على أن الطبقة العليا قـد حافظت على تسييرها لمجريات الامور ، وهناك مؤشر آخـر من نفس النوع يتبدى فى مقاومة هذه الطبقة للتوسع فى خدمات الرفاهية ، وهى مقـاومة أدت الى كثير من مظـاهر اللامساواة فى تقديم خدمات الاسكان والتعليم ، مع عدم بذل جهود كبيرة لزيادة وتنويع معدل السلع والخدمات التى تقـدم الى كل السكان بدون مقـابل ٠

اما القضية الثانيـة التى اثرناها فيمـا يتعلق بالفصل بين الملكية والادارة فى الصناعة ، فانها قضية على جانب من الأهمية طالما أن الذين يؤكدون على هـذا الفصل يذهبون الى أنه قد حـد الى درجة كبيرة من اشراف أصحاب الثروة على الاقتصاد ، وغير فى نفس الوقت من الطابع الاجتماعى لشركات الأعمـال الكبيرة ٠ حقيقة أن هناك فصلا رسميا بين الملكيـة والاشـراف عليهـا (بين وظائف ملكيـة الأسهم والادارة) فى

---

(١٧) Postan, op. cit.

شركات الأعمال الحديثة ، مع بقاء الكثير من الأعمال التى تشرف عليها الأسرة بشكل رئيسى (وبعض هذه الأعمال من الأعمال واسعة النطاق)(١٨) ؛ ولكن وجود فصل حقيقى بين المالكين والمديرين هو أمر مشكوك فيه الى حد كبير ، فقد لاحظ ميلز Mills فى كتابه « صفوة القوة » أن « أولى الثراء العريض » و « رجال الادارة العليا » يرتبطان بشكل ملحوظ فى الولايات المتحدة الامريكية ، ولا يوجد الا قدر ضئيل من الشك فى أن نفس الشىء يصدق على دول أوربا ، بالرغم من أن الطبقة العليا الاوربية قد درست بشكل أدق من نظيرتها فى أمريكا · فقد لاحظ بوستان ـ على سبيل المثال ـ أن البرجوازية الكبيرة فى اقطار أوربا الغربية قد كيفت نفسها وفق متطلبات العصر الادارى من خلال ضمانها لأن يحصل أعضاؤها على التعليم اللازم للأعمال التنفيذية · ولقد بدأت هذه العملية فى فرنسا فى نهاية القرن التاسع عشر عندما كانت « المدرسة الحرة للعلوم السياسية Ecole Libre des Science Politiques تزود أعضاء الطبقة العليا بالمهارات اللازمة للمحافظة على وضعهم السائد فى مجال الأعمال والادارة العليا ؛ وفى اقطار أوربية أخرى كانت توجه أنواعا معينة من الجامعات نحو تحقيق نفس الغاية ·

ومن الممكن أن يكون للتطور العام نحو الاشراف الادارى والتكنوقراطى تأثيرات ذات دلالة على الموقف الاجتماعى لطبقة حائزى الملكية فقط اذا كان قد حدث حراك ملحوظ عبر النسق التعليمى ؛ ولكن الواقع أن امكانية الوصول الى التعليم العالى فى دول أوربا الغربية لم يتغير الا تغيرا طفيفا على مدار الثلاثين سنة الماضية(١٩) ؛ ففى بريطانيا بلغت نسبة طلاب الجامعات القادمين من الطبقة العاملة فى الفترة من ١٩٢٨ ـ ١٩٤٧ حوالى ٢٣٪ ، ووصلت الى ٢٥٪ عام ١٩٦١ ؛ أما فى المانيا فقد ارتفعت نسبة الطلاب الذين ينتمون الى الطبقة العاملة من ٥٪ قبل الحرب الى ٦٪ فى الوقت الحاضر ؛ وظهرت نفس هذه الزيادة

---

(١٨) See Jean Meynaud, La Technocratie (Paris, 1964) Chapter III.

(١٩) See P. Bourdieu and J. C. Passeron, Les Heritier (Paris, 1964).

المتواضعة فى فرنسا (من ٦٪ قبل الحرب الى ٨٪ فى الوقت الحاضر) • ولهذا فانه ليس من المدهش أن نجد جماعات الصفوة فى هذه المجتمعات ــ كبار رجال الأعمال وكبار الموظفين وجزء كبير من أعضاء القيادة السياسية ــ ماتزال تستقى اعضاءها من الطبقة العليا ومن الشرائح العليا فى الطبقة الوسطى(٢٠) • فالطبقة العليا ماتزال تحافظ على استمراريتها من خلال توارث الثروة والامتيازات التعليمية والفرص المهنية ، وكل ذلك يؤكد استمرار تركز الملكية والهيبة والقوة فى ايدى فئة قليلة • حقيقة أن هناك حركة للأفراد والعائلات بين الطبقة العليا والطبقات الاجتماعية الأخرى ، ولكن ليس هناك من دليل يوحى بأن هذه الحركة اكثر سرعة واكثر كثافة هذه الايام عنها فى أى وقت مضى خلال المائة سنة الماضية •

وبذلك فان الطبقات العليا فى بلدان اوربا الغربية قد ظلت جماعات مغلقة نسبيا ، تتميز فيها بشدة استمرار العضوية من جيل الى جيل ؛ اما فى بقية المجتمع فان الحراك الاجتماعى ربما يكون قد ازداد خلال العقود القليلة الماضية ، كنتيجة لتغير البناء المهنى اساسا(٢١) ، ولكن من الواضح أن معظم الحراك يحدث داخل الطبقات وليس بين الطبقات •

---

(٢٠) انظر تفاصيل هذه المناقشة فى كتابى « الصفوة والمجتمع » مرجع سابق الفصل الرابع ، وانظر بالألمانية المرجع التالى :
Wolfgang Zapf (ed.) Britäge Zur Analyse der Deutschen Oberschicht.

(٢١) من ادق المناقشات التى تناولت المشكلات المطروحة هنا ، وتحتوى على مقارنات تاريخية لمعدلات الحراك التى ظهرت فى المرجع التالى :
P. Blau and Otis Duncan, The American Occupational Structure (New York, 1967) Chaptr 3.

ومن اجل التوصل الى بيانات مقارنة على درجة عالية من الدقة فانه من الضرورى اعادة اجراء الدراسات المتعلقة بالحراك (والمصممة من اجل غرض المقارنة) على فترات منتظمة • والمحاولة الأولى التى سارت وفق هذا النهج ــ فى حدود ما اعرف حتى الآن ــ هى دراسة الحراك الاجتماعى التى اجرتها كلية نافيلد Nuffield College بجامعة اكسفورد ؛ فقد حاولت الدراسة اجراء ما يمكن اجراؤه من مقارنات مع بيانات دراسة ١٩٤٩ التى ظهر تقريرها فى :
D. V. Class (ed.) Social Mobility in Britain (London, 1954).

فقد اوضحت دراسة عن الحراك المهنى بين الأجيال فى فرنسا ، تأسست نتائجها على بحث اجراه « المعهد القومى للاحصاء والدراسات الاقتصادية » ، اوضحت أن ١٤٪ من العمال اليدويين قد غيروا مهنهم فى الفترة ما بين ١٩٥٩ و ١٩٦٤ ، ولكن ثلثى هؤلاء العمال ظلوا فى اعمال يدوية ، بينما انتقل الثلث فقط الى الأعمال غير اليدوية ؛ أما بالنسبة للعمال غير اليدويين فقد غير ١٢٪ منهم مهنهم ، مع بقاء ثلثى هذه النسبة ايضا فى اعمال غير يدوية وانتقال الثلث الآخر الى اعمال يدوية(٢٢) وعندما توجد حركة (سواء اكانت حركة داخل الجيل أو بين الأجيال) بين الطبقات فانها تحدث عادة بين المستويات المتقاربة ؛ مثال ذلك الحركة من الطبقة العاملة الماهرة الى المستويات الدنيا من الطبقة الوسطى · ولكن لا يوجد فى أى مجتمع صناعى اوربى أى قدر ملحوظ من الحراك عبر مسافة طويلة ، بمعنى الحراك من الطبقة العاملة مباشرة الى الطبقة العليا أو جماعات الصفوة ·

ومع ذلك ، فان المعدلات العالية نسبيا من الحراك المهنى ، والتى كشفت عنها معظم الدراسات ، قد تترك تأثيرا قويا على البناء الطبقى ، وخاصة على طابع الطبقة العاملة ، من حيث أن مثل هذا الحراك يؤدى الى عدم تكوين تجمعات مهنية تكتسب العضوية فيها صفة الاستمرار عبر اجيال متعددة ، والتى قد تشكل نقاطا بؤرية يمكن أن يتبلور حولها وعلى طبقى اكثر عمومية · ولقد لفتنا الانتباه فى مكان سابق الى اهمية هذا العامل فى حالة عمال المناجم ، غير انه بامكان الحراك المهنى – عندما يتجاوز حدا معينا – أن يؤدى الى نتائج مشابهة لتلك التى تترتب على انكماش مهنة معينة من حيث حجمها واهميتها الاقتصادية · واذا كان الحال كذلك ، فان النتيجة ستكون نكوصا عاما فى الوعى الطبقى للعمال ؛ وقد اكد كثير من الباحثين –

---

(٢٢) Michel Praderie, "La Momilite Professionelle en France entre 1956 et 1964", Etudes et Conjuncture (10) (Oct. 1966).

مع اختلاف اساليبهم ـ أن ذلك يحدث بالفعل(٢٣) ومع هـذا فان النتائج التى توصلوا اليهـا تتناقض ـ كما اشرنا من قبـل ـ مع النتـائج التى توصلت اليها دراسات حديثة عن الولاء السياسى للطبقة العاملة ٠

وتنحصر دلالة المناقشـة السابقـة بالنسبة للطبقـات الاجتماعية الرئيسية فى أن درجة وطبيعة التغيرات فى البنـاء الطبقى يجب أن تفهم من خلال دراسـة الحركات السياسية والصراع السياسى الذى يحـدث فى المجتمع ٠ فلن يختلف سوى عـدد قليـل من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية حول وجهة النظر التى تذهب الى أن المصالح الطبقية والوعى الطبقى قد لعبت دورا جوهريا فى الحيـاة السياسية لـكل اقطار أوربا الغربية خـلال المـائة سنة الماضية ، بالرغم من انها قـد اتخذت اشكالا مختلفة وتاثرت الى حد كبير باشكال اخرى من الانقسامات الاجتماعية ـ ذات طابع دينى أو لغوى أو ثقافى ـ فى البلدان المختلفـة ٠ وبناء عليه فان مسالة البنـاء الطبقى المتغير فى هـذه البلدان تحـال الى التساؤل عما اذا كانت الصراعات السياسية القائمة على أساس طبقى قد استمرت محتفظة باهميتهـا ، وما اذا كانت اشكال جديدة من النشـاط السياسى والأهداف السياسية قد ظهرت ، وفى حالة ظهورها ، كيف ترتبط بالتغيرات الحقيقية التى طرات على البناء المهنى ونظام الانتاج ٠

يجب أن نلاحظ بادىء ذى بدء ان الطبقة ماتزال باقية كقوة محركة للسياسة ، ليس فقط لأن الطبقـة العليا تحافظ على طابعها كجمـاعة من اصحاب الملكيات الكبيرة بالرغم من ظهـور جماعات جديدة من الصفوة التكنولوجية والمهنية ، ولـكن لأن الطبقـة العاملة ماتزال أيضـا تتشيع بشـدة لتنظيماتهـا ذات التاريخ الطـويل ، كنقابات العمـال والأحزاب السياسية ، وتتشكل نظرتها الاجتماعية فى ضـوء التراث التاريخى لحركة

---

(٢٣) انظر بصفة خاصة :
A Andrieux and J. Lignon, L'ouvrier d'aujourd'hui, (1960); H. Popitz, H. P. Bahrdt, E. A. Jöres and H. Kesting, Das Gesellschaftbild der Arbeiters (1957), K. Bednarik, Der Junge Arbeiter, von heute: ein neuer, Typ (1953).

العمـل • ان ضمور عضوية النقابة فى الولايات المتحدة ـ والذى أشار اليه جالبراث وهو بصدد عرض رأيه عن ظهـور نظام صناعى جديد ـ ليس له نظير فى أوربا الغربية . حيث تزايدت عضوية نقابات العمـال بصفة عامة منذ الحرب ، وحيث ارتبط نمو الاتجاه النقابى لدى فئات الموظفين ارتباطا وثيقـا بالتوسع فى نقابات العمـال اليدويين(٢٤) • وكذلك فان تأييـد الطبقة العاملة لأحزاب العمـل والأحزاب الاشتراكية لم يضمحل بل اتجه الى مزيد من النمو ، وبدأت النظرة الراديكالية فى نهاية ستينات هـذا القرن تنتشر فى بعض قطاعات حركة العمـال ، كما اتضح ـ على سبيل المثال ـ فى احيـاء الاهتمام بمفهوم الاشـراف العمالى ومظاهر ممارسته فى الواقع •

ورغم ذلك فيمكن القول بأن الوقت الحاضر يمثل نقطة تحول ، فقد حققت الأحزاب الطبقية القائمة ذروة تطورها ، بينما تبدأ قـوى سياسية جديدة فى تحدى سيطرة هذه الأحزاب ، ويبدو أن هناك أربعة اتجاهات رئيسية يظهر من خلالها بجلاء أسلوب جديد لممارسة السياسة • يتمثـل الاتجاه الأول فى ظهور جماعات صفوة جديدة ، تلتزم أولا وقبل كل شيء بالرشد والكفاءة فى الانتاج والادارة ، وتؤيد المذاهب الفكرية المرتبطة بالتقدم التكنولوجى والنمو الاقتصادى ، وربما تستطيع بذلك أن ترسى دعائم استقرارها وأن يقبل أعضاؤها على أنهم أمناء على المصالح الاقتصادية التى يستطيعون أن يؤمنوها • ويتعارض الاتجاه الثانى مع هذا الاتجاه، حيث يرتبط بالحركة الراديكالية ـ خاصة بين الطلاب فى الوقت الحاضر ـ التى تهاجم الطابع التكنوقراطى والبيروقراطى للمجتمع الحديث ، وتطرح مفاهيم «كالمشاركة» و«الجماعات ذات المصالح المشتركة» بدلا من مفاهيم مثل « السلطة » و « نظرية الصفوة » elitism المتضمنة فى مفهوم المجتمع الذى يديره الخبراء • ومن غير المحتمل أن تحقق حركة الطلبة بمفردها كثيرا من النجـاح ، غير أن تأثيرها يمكن أن ينمو اذا ما وجدت تعاطفا سواء من حركة الطبقة العاملة (التى أخذت عنها أفكارها فى المحل الأول)

---

(٢٤) See Adolf Sturmthal (ed.) White Collar Trade Unions (Urbana, Illions, 1966).

أو من جماعــات الطبقة الوسطى التى اتى منهــا الطلبــة بحكم أصولهم الأسرية والتى سوف ينتمون اليها فيما بعد كعمال على درجة عالية من الكفاءة المهنية ·

ورغم اختلاف الاتجاهين الآخرين فى ممارسة السياسة اختــلافا جوهريا من جوانب عديدة ، الا أنهما يتشابهان مع سابقيهما فى انهمــا يتخذان من الجماعة القائمة على تشابه المصالح community – والتى تتميز عن الطبقات الاجتماعية ـ اساسا لممارسة السياسة · فهناك من ناحية الحركات الاقليمة والقومية التى تفجرت فى السنوات الأخيرة (فى اسكتلنده وويلز والاجزاء التى تتحدث اللغة الفلمنكية فى بلجيــكا على سبيل المثال) ؛ وهناك من الناحية الأخرى حركة الدعوة الى مجموعـــة أوربية مشتركة · ويوجد فى كل النمطين من الحركة تأكيد على الهويــة الثقافية التى تعد شيئا يتجاوز مظاهر الخلاف داخل الجماعة التى تربطها المصلحة المشتركة ، وأصبحت هذه الخاصية الثقافية ـ فضلا عن اعتبارات التطور الاقتصادى ـ ركيزة للفكر السياسى والفعل السياسى عند دعاة هاتين الحركتين · ولا يلتفت هذان الاتجاهان كثيرا الى التقسيمات القائمة على التبــاين الطبقى أو الى المســاعى السياسية ذات الأهمية الحيوية بالنسبة للأحزاب التقليدية طالما انها تعبر عن مصالح خاصة ، ولهــذا فلم يثر فى مناقشات المجمــوعة الاوربيــة التســاؤل عمــا اذا كانت أوربا ستصبح مجتمعا راسماليا أم مجتمعا اشتراكيا ·

ولا يمكن مناقشــة مستقبل علاقة أشكال الممارسة السياسية هــذه بالأحزاب والحركات القائمــة بالفعل ، الا بشــكل تصورى · ومع ذلك فهنــاك بعض ظروف وعمليات التغير التى يمكن تحديدها بدقة والتى من المحتمل أن يكون لهــا تاثير ملحوظ · فسوف يستمر انكماش نسبة الطبقة العاملة اليدوية من المجمــوع الكلى للسكان ، ولكن من غير المحتمل ان يتم هـــذا الانكمــاش بسـرعة تؤدى الى الحـد من النضــال السياسى والراديكالية التى تميز قطاعا كبيرا من نقابات العمال وحركة العمال · ومن الممكن أن يتخـذ النضال السياسى موقفا دفاعيا ، وخاصة فى المهن التى تاثرت اكثر من غيرها بالتقـدم التكنولوجى ، وأن يلعب دورا أقل

فى تهيئــة الحركة من اجـل احــداث تغير جـذرى فى المجتمع ، غير أنه لا يوجـد حتى الآن أى مؤشر على ان ذلك الوضع فى طريقه الي الظهور ومن ناحيــة اخــرى فانه من المحتمــل أن تكسب الحركة الراديكالية قوة كلما استمر التعليم العالى فى التوسع بمعدل سريع ، هــذا اذا افترضنا أن التوجه الايديولوجى لحركة الطلبة سوف يستمر بنفس طابعــه الذى وجـد فى نهـاية الستينات ؛ فالخبرة بالمجتمعات الاوربيــة الآن توحى بأن راديكالية الطلبة ليست مجرد ظاهرة مزاجية عابرة ٠

وهناك ظرف اخــر له اهمية حيوية فيمــا يتعلق بمستقبل تطــور الطبقات والحركات السياسية وهو ظرف يصعب تقييمه الى حــد كبير ؛ ونعنى به احتمال استمرار النمو الاقتصادى بنفس السرعة وبنفس الشكل اللذين كان عليهما اثنــاء العقدين الماضيين ٠ وتنتج الصعوبة هنــا من عدم وجود نظرية كافية لتفسير نمــط مختلط للاقتصــاد ، يتميز فى نفس الوقت بانه اقتصاد رأسمالى ويقــوم أساسا على علاقات السوق ٠ فمن الواضح أن النظرية الماركسية عن الأزمة الراسماليــة لم تعــد كافيــة ؛ ولكن يبدو من الناحية الأخــرى أن القول بتوقع استمرار النمو والرخاء يعتمــد على ملاحظات امبيريقية خالصة وقصيرة المــدى ، دون الاعتماد على نظرية لتفسير أى نوع من التغيرات تكون قــد طرأت على الاقتصــاد الراسمالى وخففت من احتمــال تعرضه للأزمات ٠ وبناء على ذلك فليس هناك من يقين فيمــا يتعلق بمستقبل الاقتصــاد ، وبالتــالى فيما يتعلق ببعض جوانب البناء الطبقى ــ مثــل راديكالية الطبقة العاملة ، وتوسع الطبقة الوسطى ، وظهور جماعات صفوة جديدة ٠

وبالرغم من تداخل العناصــر وتنوع التفسيرات التى اشرنا اليها فى هـــذا الفصــل ، فاننا نعتقــد أن بامكاننا أن نستخلص من العرض السابق نتيجــة اوليــة ، لم توجـد حتى الآن اية اشــارة على أن موجة المســاواة التى ظهرت مع ظهور حركة العمــال فى بلدان اوربا الغربية قد فقدت قوتهــا ، والمحقق أن النضال من اجـل المساواة ، والذى نتج عن العلاقة بين الطبقــات فى المجتمع الراسمالى ، يمكن ان يستمر من خلال الصراعات السياسية المباشرة التى تظهر الآن على مستويات متعددة حول

مسائل السلطة والمشاركة فى صنع القرارات(٢٥) وطالما كانت الطبقات ـ وماتزال ـ المظهر الوحيد لعدم المساواة فى المجتمعات الحديثة ، فان اهميتها السياسية لن تختفى .

(٢٥) انظر بصفة خاصة المناقشة التى جاءت فى كتاب الن تورين السابق الاشارة اليه ، ص ٦٨ وما بعدها .

الفصل التاسع

الصـفوة الادارية (١)

يشـكل الموظفون الحكوميون فى مستويات الادارة العليا ـ فى كل المجتمعات المعقـدة ـ قطاعا هاما من « الصفوة الحاكمة » او « الطبقة السياسية » بمعنى الاقليـة التى تحكم المجتمع بالفعـل فى أى فترة من الزمن(٢) . ويعتبر وضع كبار الموظفين فى المجتمعات الصناعية الحديثة بصـفة خاصـة وضعا مؤثرا ، وذلك نتيجة للتوسع الهـائل فى انشـطة الدولة ، ونمو التعقيد الفنى للادارة العـامة ، وتنظيم الخدمات المهنية كعمل مهنى يعتمد على الشهادات الدراسية والتدريب . ولقد اكد ماكس فيبر ـ الذى تمثـل كتاباته عن البيروقراطية نقطة بداية لـكل المناقشات الحديثة حول الموضوع ـ أن « وضع القوة المرتبط بالتنظيم البيروقراطى المتطور يكون دائما وضعا راسخا ، بل أن يكون ـ تحت الظروف العادية ـ وضعا متفوقا . فعندما يواجه الزعيم السياسى الموظف المدرب الذى يعمل مديرا للادارة ، فانه يجـد نفسه فى وضع معرفى سطحى بالمقارنة بخبرة الأول » . فينسحب هــذا ـ كما ذهب فيبر ـ على الزعيم السياسى الذى يحـكم مجتمعا بأثره (والذى يتمتع بحقوق المبـاداة والدعوة للاستفتاء

---

(١) اعيد نشره مع تعديلات من المصدر التالى :

Irving L. Horowitz (ed.) The New Sociology : Essays in Social Sciences and Social Theory in Honor of C, Wright Mills (New York, 1964).

(٢) استخدم باريتو مفهوم الصفوة الحاكمة بينما استخدم موسكا مفهوم الصفـوة السياسية . واكد كل منهما ـ معارضين فى ذلك الفكرة المـاركسية الخاصة بالطبقة الحاكمة التى تقوم على القوة الاقتصادية وتمثلها فى المجال السياسى جماعات عديدة متغيرة ـ فكرة « الصفوة » المكونة من هؤلاء الأفراد الذين يتحكمون بالفعل فى القوة السياسية فى وقت معين . واكد ايضا الضرورة التى لا مفر منها لمثل هذه الصفوة . ولقد تناولت بعض جوانب هذه الاتجاهات فى دراسة الصفوة فى مؤلفى : الصفوة والمجتمع (لندن ـ ١٩٦٤) .

العام واقالة الموظفين) أو الزعيم السياسى البرلمانى المنتخب(٣)٠ ولا شك ان رأى ماكس فيبر حول اهمية البيروقراطية قد تأثر برؤيته للبيروقراطية فى المانيا ، ولكنه تأثر أيضا برؤيته المعارضة للاشتراكية ـ التى تعتبر عنده تراكما للحكم البيروقراطى ٠ فقد كان ماكس فيبر يهاجم فى كتاباته حول هذا الموضوع المذهب الذى تبناه الماركسيون ، الذين ذهبوا الى القول بأن القوة البيروقراطية هى مجرد مظهر من مظاهر حكم البرجوازية فى المجتمع الرأسمالى ، الذى سوف يختفى بمجرد ظهور المجتمع الاشتراكى ، وهو أمر ينسحب على الدولة أيضا ٠ فقد فحص لينين فى كتابه « الدولة والثورة » تحليل ماركس لكميونة باريس وذهب الى أنه يجب الحد من قوة الموظفين العموميين أثناء عملية التحول من الرأسمالية الى الاشتراكية وذلك عن طريق انتخابهم واقالتهم فى أى وقت ، ودفع نفس اجور العمال لهم ٠ والحقيقة أن واقع المجتمعات الشيوعية المعاصرة يكشف عن أن كبار الموظفين ـ سواء فى الحزب المسيطر أو الدولة (وهما يرتبطان ارتباطا وثيقا) ـ قادرون على أن يحققوا وضعا متميزا فيما يتعلق بالقوة والهيبة والدخل الحقيقى ؛ وبعبارة أخرى فهم قادرون على أن يصبحوا جزءا حيويا من الصفوة الحاكمة ، ان لم تكن الصفوة الحاكمة كلها ٠ ومع ذلك فان الأحداث الأخيرة تكشف عن أن القوة البيروقراطية ليست فوق المعارضة وليست لها حرية مطلقة حتى فى المجتمعات الشيوعية ، وبناء عليه فلا يمكن أن نعتمد على هذه الخبرات التاريخية الخاصة فى القول بصدق ما ذهب اليه ماكس فيبر عن العلاقة بين اشكال الاشتراكية والبيروقراطية ٠

ولقد اهتمت الدراسات السوسيولوجية الحديثة للصفوات ، اهتمت بصفة اساسية بالمجتمعات الصناعية الغربية ، واكدت هذه الدراسات بصفة خاصة على اثنتين من خصائص الهرم الاجتماعى فى هذه المجتمعات ٠ الأولى : تعدد جماعات الصفوة ، والثانية الطبيعة

---

(٣) Max Weber, **Wirtschaft und Gesellschaft**, chap. VI, "Bureaucracy" English trans. in H. Gerth and C. W. Mills, **From Max Weber**, London, 1947.

الاشكالية للعلاقة بين جماعات الصفوة ، وللعلاقة بينها وبين الطبقات ٠ فقد عرف كول Cole – على سبيل المثال – جماعات الصفوة بأنها « جماعات تقفز الى مواقع القيادة والتأثير فى كل مستوى اجتماعى – أى كقادة للطبقات او لأى قطاعات أخرى هامة من البناء الاجتماعى » : واستمر كول قائلا « بأن جماعات الصفوة لا تقوم كلها على أساس طبقى ، وانما بعض هذه الجماعت فقط هو الذى يقوم على اساس طبقى ويمثل الطبقة ، ولا تظهر أهمية العلاقة بين جماعات الصفوة والطبقات وكذلك أهمية الاختلافات التى تصاحب مظاهر التعقد فى البناء الاجتماعى الا فى المجتمعات الحديثة التى تطورت من الارستوقراطية الى شكل من أشكال الديموقراطية »(٤) ٠ وبنفس الاسلوب لفت ريمون أرون Raymond Aron الانتباه الى العلاقات المتغيرة بين جماعات الصفوة والطبقات الاجتماعية ، وذلك فى دراسة للارتباطات بين البناء الاجتماعى والقوة السياسية ميز فيها بين خمس جماعات للصفوة تعتبر شرائح هامة فى تشكيل الطبقة السياسية : القادة السياسيون ، والمديرون العاملون فى الحكومة ، والمهيمنون على النشاط الاقتصادى ، وقادة الجماهير ، والقادة العسكريون(٥) ٠

وتعد دراسة رايت ميلز عن « صفوة القوة » Power Elite فى الولايات المتحدة الامريكية(٦) ، المحاولة الرئيسية التى توضح – فى مجتمع واحد – كيف يمكن أن تترابط جماعات الصفوة الاساسية ترابطا مطردا متفقة على أهداف السياسة العامة ، وكيف تنحدر هذه الجماعات من طبقة بعينها ٠ ومع ذلك فقد نقد ميلز – بل رفض – المفهوم الماركسى عن الطبقة الحاكمة الذى يقوم على اساس من المصلحة الاقتصادية ، وقدم شواهد عديدة للدفاع عن فكرة وحدة صفوة القوة ، والتى عبر عنها فى النهاية بأنها « التوافق الذى لا يتحقق بسهولة بين

G. D. H. Cole, **Studies in Class Structure** (London, 1955).
R. Aron, "Social Structure and the Ruling Class", **British Journal of Sociology**, 1, (March, 1950).
C. W. Mills, **The Power Elite** (New York, 1965).

القوة الاقتصادية والسياسية والعسكرية »(٧) اما القضايا الرئيسية التى طرحها ميلز فانها تتلخص فيما يلى : اولا ان التغيرات التكنولوجية فضلا عن التغيرات فى النظم الاجتماعية قد انتجت تركزا للقوة لم يسبق له مثيل ، ووسعت بالتالى من الهوة التى تفصل بين الصفوة والجماهير (وتلتقى هذه القضية من زوايا عديدة مع نظرية ماكس فيبر عن امتداد البيروقراطية) ؛ ثانيا : انه لا يمكن الحكم على طابع صفوة بعينها وعلى سياساتها العملية من مجرد النظر الى الاصول الاجتماعية لاعضائها (بالرغم من ان تلك حقيقة هامة) ولكن يجب أن يدرسا أيضا فى علاقتهما بتشكل نظرة أعضاء الصفوة من خلال التدريب والخبرة ، وبالاطار التاريخى والنظامى الذى يوجدان فيه ٠

ما هو طابع الصفوة الادارية ؟ ما هى طبيعة ومدى قوتها ؟ ما هى الأهمية التى تحتلها عملية التوافد الى هذه الصفوة فى نسق القوة والتدرج بصفة عامة ؟ قد يكون من المفيد ان نتأمل هذه الأسئلة قبل الدخول فى تفاصيل المادة الامبيريقية ٠

يمكن تحديد طابع الصفوة الادارية بصورة مبدئية من خلال مقارنتها بالانماط الأخرى لجماعات الصفوة ٠ فهى تختلف عن جماعات الصفوة الأخرى فى كونها صغيرة نسبيا ، ومحددة بدقة ، ومتجانسة (كنتيجة للتدريب المشترك وممارسة المهنة) ومتماسكة ٠ وفضلا عن ذلك فانها تنخرط مباشرة فى ممارسة القوة السياسية ، وهى تتميز بذلك عن عدد من الجماعات الأخرى التى قد تمتلك هيبة اجتماعية عالية ولكن تنقصها القوة ٠ وتختلف الصفوة المكونة من القادة السياسيين ــ وهى التى تهتم بالقوة بشكل مباشر ــ تختلف عن الصفوة الادارية فى كونها اقل وضوحا فى حدودها ، واقل ترابطا حيث نجد فى المجتمعات الحديثة جماعات سياسية فرعية متنافسة ومتصارعة (احزاب سياسية متعارضة او تكتلات داخل حزب واحد) ٠ أما صفوة المثقفين فانها اكثر صعوبة فى تعريفها ، فهى اقل تنظيما ، واقل ترابطا واقل قوة ــ بالمعنى الدقيق

(٧) Ibid., P. 278.

للكلمة ـ من معظم جماعات الصفوة الأخـرى · أما الصفوة العسكرية فانها تتشابه من وجوه عديدة مع الصفوة الادارية ، ولكنها تستبعد عادة من الممارسة المباشرة للقـوة السياسية · وتظهر صعوبات عديدة عندما نتجاوز هـذا التحليل المقارن لنحـدد بشكل مباشر مـدى تميز واتساق صفوة بعينهـا · ورغم ذلك فانه من الممكن تحديد بعض الشروط الملائمة التى يمكن قيامها من ناحية المبدأ ، مثال ذلك تحكم الجماعة فى اسلوب توافد الاعضاء اليها ، وتشابه الاعضاء فى الخلفية الاجتماعية الثقافية ، ومدى التفاعل بين الأعضاء داخل النطاق المحدد لنشاط الجماعة وخارج هـذا النطاق ، والروابط التكاملية (مثـل القرابة) بين الاعضـاء ؛ كما يمكن أيضا تحـديد بعض المعايير التى يمكن من خلالهـا الحـكم على تضامن الجمـاعة ـ درجة التشابة فى مفاهيم الاعضـاء عن الجماعة ومظاهر التعبير عن روح الجمـاعة وغير ذلك من المعايير واذا ما حاولنا الحكم على الصفوة الادارية وفقا لهـذه المعايير فانهـا سوف تكشف عن درجة عالية من التماسك ·

ويقودنا السؤال الثـانى المتعلق بطبيعة ومـدى القـوة(٨) التى تحظى بهـا الصفوة الادارية ، يقودنا الى بعض المشكلات المعقدة تتصل بالتحليل فضلا عن بعض الصعوبات المتصلة بالاختبـار الامبيريقى · من الواضح أن أعضـاء الصـفوة من الأفراد يمكن أن يكون لهم تأثير واسع فى المجتمع يناظر تأثير الافراد الذين يعملون فى مهن على درجة عاليـة من الهيبة · وفضلا عن ذلك فمـا دام لكبار الموظفين اتصالات منتظمـة بالقـادة السياسيين فان باستطاعتهم استخـدام تأثيـرهم الشخصى لاصـدار قرارات بعينها · ولـكن ما هى القـوة التى تمتلكها الصـفوة

---

(٨) نعنى بالقوة هنا قدرة فرد أو جماعة على تحقيق غايته (غايتها) خلال مجرى الفاعل حتى على حسـاب معارضـة الأفـراد (او الجماعات) الذين يتفاعلون معه فى نفس الموقف · انظـر :

Max Weber, "Class, Status and Parties" in Wirtschaft and Gesellschaft.

ونعنى بالتأثير influence قدرة الفرد أو الجماعة على تغيير الخط الذى يسير فيه من يحوز القوة وذلك من خـلال الاقناع Persuasion · ويمكن أن تظهر بعض الحالات التى لا يمكن التمييز فيها بدقة بين القوة والتأثير ·

الادارية ـ كجماعة ـ فى حياتها اليوميــة وانشطتها المتصلة ؟ يقال عادة أن هــذه القوة التى تتمتع بها الصفوة الادارية محــدودة فى المجتمعات الديموقراطية ، حيث يعمل الموظفون المدنيون تحت سلطة الهيئة التنفيذية السياسيــة التى تكون مسئــولة بدورها أمــام البرلمــان والنــاخبين ٠ ووفقا لهذه الوجهة من النظر ، فان الموظفين ينفــذون قرارات اتخــذها اخرون غيرهم ، وفقــا لمصالح وقيم تقع خارج حــدود تاثيرهم ٠ ورغم ذلك ، فان كبــار الموظفين قــد يملكون قدرا لا بأس به من الاستقلال ، بل ومن المحتمل أن يكونوا قــد طوروا رأيا (مشتركا) خاصا بهم فيما يتعلق بنوعية السياسات العملية بحيث يستطيعون القول ما هى أكثر السياسات حكمة ، وما هو اكثرها حساسية وما هى اكثرها قابلية للتطبيق العملى ٠ أما فى المرحلة التى تنفذ فيها سياسة بعينها فانهم قــد يملكون من القوة ما يمكنهم من ايقــاف أو تاخير أو تعــديل مجرى هــذه السياسة ٠ بل أن هــذه القــوة تظهر فى مرحلة مبكرة اثنــاء صياغة السياسة العملية نفسهــا ، وفى هــذه الحــالة فانهم يمارسون ـ بحكم خبرتهم الطويلــة ومعرفتهم الدقيقة بالأقسام التى يشرفون عليهــا ـ قدرا من التأثير على افــكار وقرارات الوزير الذى يترأسهم من الناحيــة الرسمية ٠ وتصــل قوة هؤلاء الى ذروتها عندما تتغير الادارة التنفيذية السياسية (الوزارة) باستمرار ، ففى هــذه الظروف لا يمتلك الوزراء ســوى خبــرة طفيفة بالحكومة بعامة أو بالمصالح الحكومية التى تقع تحت مسئوليتهم بخاصة٠ وكما لاحظنا من قبــل ، فان نمو التعقــد الفنى للحكومة الحديثة يعضد أيضــا من قوة الموظفين الدائمين ٠ ويتم الاعتراف صراحة ـ فى بعض الأحيان بمظاهر القــوة التى يتمتع بهــا الموظفون الذين يلعبون دورا فى تشكيل السياسة العملية ، ويظهر هـــذا الاعتراف فى القواعد واللوائح التى تنظر الى بعض التعيينات فى الخدمة العــامة على أنهــا « تعيينات سياسية » تلك التى لا تتم من خلال الترقية العادية وانما من خلال التكليف حسب رغبات الادارة السياسية التنفيذية ٠

وتؤدى بنــا هــذه الاعتبارات الى مزيد من التساؤل عن مصــدر القوة البيروقراطية والقيود المفروضة عليها ٠ لقــد كان ماكس فيبر ميالا ـ كما رأينــا من قبــل ـ الى النظــر الى نمو القــوة البيروقراطيــة فى

المجتمعات الحديثة على أنه شيء لا يمكن تجاوزه : وتقوم وجهة النظر هذه على اسس مختلفة منها التطابق بين الادارة البيروقراطية والترشيد العام للحياة الاجتماعية ، وعدم امكانية الاستغناء عن المديرين الفنيين ذوى الخبرة ، ودوام واستمرارية الادارة البيروقراطية فى مقابل عدم دوام وتغير الادارة السياسية ٠ واضاف فيبر أن البيروقراطية كانت قادرة على أن تقوى من وضعها فى مواجهة الادارة التنفيذية السياسية وذلك عن طريق تغليف انشطتها بأقصى درجات السرية ٠ ولم يذهب فيبر فى دراسته للقيود الممكنة على القوة البيرقوراطية الى أبعد من القول بأن انصياع كبار الموظفين للقواعد القانونية العامة التى ينفذون من خلالها بشكل كامل وفعال قرارات كل حاكم سياسى له صفة الشرعية ، فضلا عن درجة استقرار النظام السياسى ككل قد يكون لها بعض التأثير (على درجة قوة الادارة البيروقراطية) ٠ ويبدو أن هذه العوامل لها اهمية أكبر من تلك التى أضفاها عليها فيبر الذى كان مهتما اهتماما بالغا بالظروف البيروقراطية فى المانيا ٠ فأحد القيود الهامة المفروضة على قوة الصفوة الادارية ينحصر فى تطور نوع من الأخلاق المهنية — داخل الصفوة نفسها — تدعم مثالية الحياد السياسى للموظفين ٠ ومع ذلك ، فمن المحتمل أن تتزايد قوة الصفوة الادارية (سواء بشكل مقصود فى السعى نحو اكتساب القوة أو بأى شكل آخر) عندما توجد من الظروف ما يجعل شرعية النظام السياسى نفسه غير محددة ٠

والواقع انه يمكن تتبع تطور الاخلاق المهنية فى مجال الخدمة العامة فى معظم المجتمعات الحديثة ، وبالرغم من ان هناك اختلافا فى درجة قبولها عن صدق وفى درجة الالتزام بها عمليا ٠ ففى بريطانيا أكد قانون المهنين بشدة على الحياد السياسى للخدمة العامة ، وعبر رئيس الوزراء الاشتراكى فيما بعد الحرب عن ثقته فى هذا الحياد ٠ وكتب اللورد أتلى Attlee فى هذا الصدد يقول « لقد كان هناك بعض الأفراد فى حزب العمال ممن يتشككون فيها اذا كان الموظفون المدنيون سيتصرفون بحياد تجاه الحكومة الاشتراكية ولكن كل هذه الشكوك قد اختفت مع

الخبـرة »(٩) ٠

وكانت الظروف مختلفـة في فرنسا ، حيث كانت وجهـة النظـر الشائعة منـذ بداية القرن التاسع عشـر تذهب الى أن الموظفين المدنيين ـ وبصفة خاصـة كبـار الموظفين ـ يدينون بالولاء للنظـام السـياسى السـائد فى أى وقت ٠ ولقـــد اشـــار شـافان C. Chavanon الى الأمر الذى اصدره نابليون « بضرورة ولاء كل الموظفين المدنيين ، وكل من يشغلون أوضاعا مناظرة »(١٠) لنظامه ؛ وكرر الحكام السياسيون من بعده نفس الدعوة ٠ وقد بلغت مظـاهر التأثير السياسى للعاملين بالخدمة المدنية أقصى درجات شدتها اثناء السنوات الصعبة للجمهورية الثالثة بعد قضية دريفيو(*) Dreyfus Case ، غير أن مظاهر التأثير هذه قد استمرت فى الانخفاض حتى يومنا هذا ٠ ولقد ذهب ر٠ كاثرين R. Catherine فى مقـال عن الموقف فيما بعـد الحرب الى أن انخراط العاملين بالخدمة المدنية فى الأمور السياسية قـد تقـدم بسرعة مرة أخرى منذ ١٩٤٥ ؛ واختتم ر٠ جريجوار R. Gregoir مناقشته للموضوع برمته بملاحظة أن فكرة الحياد السـياسى للموظفين المدنيين ما تزال عموما أقل قبولا وأقل تأثيرا فى فرنسا عنها فى بريطانيا(١٢) ٠

---

(٩) Clement R. Atllee, "Civil Servants, Ministers and the Public", The Political Quarterly (Oct. - Dec. 1954). P. 308.

(١٠) C. Chavanon, Les Fonctionnaires et la fonction publique (Paris, 1951).

(*) كان ألفرد دريفيو (١٨٥٩ ـ ١٩٣٥) ضابطا فى هيئة الأركان الفرنسية ٠ وفى اكتوبر ١٨٩٤ حول الى محاكمة عسكرية بتهمة الخيانة وجرد من رتبه وسجن فى جزيرة ديفيل ـ واتهم فى هذه القضية ـ التى عرفت بقضية دريفيو ـ بنقل معلومات عسكرية بخطه الى الألمان. غير انه اكتشف بعد ذلك أن هذه المعلومات ما تزال تنقل وأن المتهم هو شخص آخر ، الأمر الذى ترتب عليه اعادة محاكمته حيث المنفى له وسمح له بدخول الجيش مرة ثانية وظل به حتى الحرب العالمية الأولى ٠ ولقد اشتهرت هذه القضية لما اثارته من جدول وخلاف بين الذين يدافعون عن براءة دريفيو من المثقفين والاشتراكيين من ناحية وبين الذين يتهمونه من رجال الجيش والكنيسة من ناحية أخرى ، وقد ظهر هذا الخلاف فى الفترة من اكتشاف عدم خيانته إلى اعادة محاكمته ٠ المترجـم

(١١) R. Catherine, "Le Fonctionnaires" in M. Duverger (ed.) Partis Politiques et Classes Sociales en France (Paris, 1955).

(١٢) R. Gregoire, La Fonction Publique (Paris, 1954), PP. 331 - 5.

ويبدى تراث عدم الثقة فى الحياد السـياسى لكبار الموظفين فى فرنسا من خلال نظام ليس له نظير فى النظام الادارى البريطانى ، ونعنى به هيئة موظفى مجلس الوزراء(١٣) فعنـدما يشغل وزير معين منصب الوزارة فانه يعين هيئة من المعاونين الموثوق بهم ليعملوا كوسطاء بينه وبين الموظفين الدائمين فى وزارته • وبعض من يشغلون هذه الوظائف هم بالفعل من كبار الموظفين القادمين من واحدة أو أخرى من الهيئـات الكبرى وخاصة « مجلس الدولة » « وجهاز الرقابة المالية » اما الباقى فانه يأتى من خارج نطاق الخدمة المدنية • ويعكس وجود هذه الهيئات المعينة ، فضلا عن تزايد أعداد افرادها ، يعكس ـ كما لاحظ جريجوار ـ الشكوك التى يشعر بها الوزراء تجاه ولاء كبار الموظفين الدائمين فى الهيئات التى يشرفون عليها وفى درجة الاعتماد عليهم(١٤) •

ويؤيد الوضع فى فرنسا فكرة احتمال أن تتدعم القوة المسـتقلة للبيروقراطية عندما يصل النظام السياسى الى وضع غير مستقر • فنجد أن الاصرار على الولاء السياسى لنظام بعينة (أو حتى لحكومات حزبية) يشجع كبار الموظفين على تكوين اتجاهات سياسية ، وفى الوقت نفسه فقد أدى عدم استقرار الانظمة السياسية الى مطـالبة كبـار الموظفين (أو استعدادهم نحو المطالبة) بدور سياسى مستقل • ولقد سـجل المهتمون بالسياسة فى فرنسا هذه الظاهرة مرارا وتكرارا ، بل بالغ بعضهم فى وصفها • فنجد كارل ماركس يكتب فى كتابه The Eighteenth Brumaire of Lois Bonaparte قائلا : « يبدو أن التنظيم البيروقراطى والعسكرى الضخم ••• ذلك الجسم الطفيلى المرعب الذى أوقع جسـم المجتمـع الفرنسى كله فى شباكه وسد كل المسام الخلاقة فيه » ، قد جعل من نفسه قوة مستقلة تماما داخل المجتمع المدنى • وكتب هـ • لوثى H. Luthy بعد اكثر من قرن (منذ كتب ماركس) يصف الهيئات الكبرى وخاصـة مجلس الدولة وجهاز الرقابة المالية ، كتب يقول :

---

(١٣) لدراسة شاملة عن مجلس الوزراء انظر :
J. L. Suerin, "Les Cabinets Ministeriels" Reuue du dreit et de la Science Politique (Nov. - Dec., 1956) PP. 1207 - 94.

(١٤) Gregoire, op. cit., P. 333.

« تشكل هذه الهيئات هيكلا له أعلى درجات الامتياز وله السيادة المطلقة على تشكيله الداخلى ، وهو يتمتع بالحصانة ضد التدخل السياسى ، وليست عليه أى مسئولية أمام أى شخص خارج نطاق نظامه الخاص وهو بذلك وقف كالصخرة دون تأثر بكل العواصف السياسية ؛ فهو نسق وظيفى مغلق تماما ، حتى فى أسلوبه فى تجديد ذاته ٠ أما الروح السائدة داخله ـ وأعنى الاحساس بالانتماء الى صفوة مختارة ـ فانها تتدعم منذ الطفولة فى المدارس الداخلية التى تعد التلاميذ للدخول فى هذا السلك الوظيفى »(١٥) ٠

ولقد عبر واحد من علماء السياسة المقتدرين فى فرنسا ـ هو أندرية سيجفريد André Siegfried عن وجهة نظر مشـــابهة تتعلق بالدور السياسى لكبار الموظفين المدنيين ، غير أنه ذهب الى أبعد من ذلك حيث ربطها بنظريات أكثر عمومية عن الثورة الادارية ٠ ذهب سيجفريد الى القول بأن :

« هناك جماعتان تسعيان الى اتخـــاذ موقع الصدارة فى الدولة والاقتصاد على حد سواء ٠ فالصفوة التى تسير عمل الادارة الحكومية يتم اختيارها اساسا من بين العاملين فى جهاز الرقابة المالية وفى مجلس الدولة ؛ وهم أفراد عموميون لهم وجـــود فى كل مكان ٠ ولأن هـــؤلاء الاداريين لهم تعامل مع القطــاع الخــاص ، فان لهم وجـــودا فى البنوك والمشروعات الصناعية والتجارية الكبرى ٠ أما الجماعة الثانية فانهـــا تتكون من خريجى معاهد البوليتكنيك ، وهم يشكلون صفوة تعمـــل فى الأجهزة الفنية للدولة ، غير انهم يعملون أيضا فى أعمـــال الادارى فى المشروعات الصناعية الكبرى »(١٦) ٠

اذا كانت الاعتبارات السابقة توضح أن الصفوة الادارية تشـــغل

---

(١٥) Herbert Luthy, The State of France (London, 1955).

(١٦) André Siegfried, De La IIIème a la IVème République (Paris, 1954) P. 246.

وضعا يمكن أن نفترض أنه وضع قوى ، فانه من الصعوبة بمكان تنظيم البراهين الامبيريقية التى تدل على ممارسة هذه الصفوة للقوة فى ظروف معينة · ومع ذلك ، فان تلك صعوبة عامة تواجه معظم دراسات القوة كظاهرة امبيريقية ـ وليست مجرد ظاهرة نظامية ؛ ومن المتوقع ان تتزايد حدة هذه الصعوبة بشكل خاص عندما يكون لدى الجماعة المدروسة من الأسباب ما يجعلها تخفى بقدر الامكان القوة او التأثير الذى تملكه · وبالرغم من وجود هذه الصعوبة ، فان علينا ان نختبر ـ باقصى ما يمكننا ـ افكارنا حول جماعات القوة من خلال امثلة واقعية يتم فيها تقرير مسائل اجتماعية هامة ، سواء كنا غير مقتنعين بوجهة النظر (التى يصعب تدعيمها) القائلة بأنه لا توجد جماعات للقوة على الاطلاق فى المجتمع وانما الموجود هو شبكة معقدة من التأثيرات والتأثيرات المضادة غير القابلة للحصر ، او كنا مستعدين لقبول وجهة النظر القائلة بأن علاقات القوة تعتبر علاقات غامضة كلية · ولقد تم فى عدد من الحالات توضيح قوة جماعات المصلحة الاقتصادية ، والتأثير (فى أدنى معدلاته) الذى يمكن ان تمارسه هذه الجماعات بأشكالها المختلفة(١٧) ؛ ويمكن أن تقدم دراسات تسير على نفس النهج براهين عن ممارسة كبار الموظفين للقوة فى مواقف بعينها · فقد قيل ـ على سبيل المثال ـ أن كبار الموظفين المدنيين قد عطلوا السياسات العملية لحكومة الجبهة الشعبية التى شكلها ليون بلام Leon Blum (١٩٣٦ ـ ١٩٣٨)(*) · ولقد كشفت دراستى حول هذه الفترة انه قد تم تعطيل بعض المشروعات التشريعية بالفعل ، وخاصة المذكرة المتعلقة بالخدمة المدنية نفسها ، والتى ظلت ـ بعد الموافقة عليها فى الهيئة التشريعية عام ١٩٣٦ باغلبية كبيرة ـ تمرر من لجنة الى

---

(١٧) يقدم تاثير جماعات المصلحة على دخول التليفزيون التجارى فى انجلترا مثالا جيدا انظر :
H. H. Wilson, Pressure Group: The Compaign for Commercial Television (London, 1961).

(*) شكلت هذه الحكومة فى فرنسا وكانت بمثابة تحالف بين احزاب اليسار والوسط فى معارضة الفاشية والقضاء عليها وتقديم برنامج اصلاحى ضخم · ولقد تكونت فى هذه الفترة حكومات جبهة شعبية من هذا النوع كانت اشهرها حكومة بلام المشار اليها هنا · ولقد فشلت هذه الحكومات من جراء الخلاف الذى حدث بين فصائل اليسار ودالادية Daladier (آخر من الف حكومة من هذا النوع) · ولقد تشكلت فى نفس الفترة حكومة مماثلة فى اسبانيا ، وهى الحكومة التى شن ضدها فرانكو الحرب الأهلية الأسبانية ·
المترجم

أخرى عن طريق تدخل الموظفين الى أن انتهى مفعولها بسقوط حكوم بلام فى عام ١٩٣٨ ·

لقد عالجنا حتى الآن اثنين من العوامل الاجتماعية التى يمكن أن تؤثر ـ باسلوب مختلف ـ على وضع القوة المرتبط بالصفوة الادارية وهما : القانون المهنى الخاص بالحياد السياسى وعدم استقرار النظام السياسى · وهناك عنصر ثالث يثيره السؤال الثالث فى مجموعة الأسئلة التى طرحناها من قبل ، وهو يتعلق بالعلاقة بين الصفوة الادارية والبناء الطبقى فى المجتمع · ذلك لأنه يمكن أن يقال أن الصفوة الادارية تمثل قطاعا واحدا فقط من الطبقة المسيطرة فى المجتمع ، وأن قوتها المستقلة من ناحية ، وحيادها السياسى من الناحية الأخرى ، يتم تكييفهما أو الحد منهما من خلال مصالح واهداف الطبقة التى تمثلها · ولم يول فيبر سوى اهتمام ضئيل بهذه المشكلة ؛ والمحقق انه أوضحها من خلال فكرتين على جانب من الأهمية فى تفسيره الشامل لتطور البيروقراطية · تنحصر الفكرة الأولى فى القول بأن البيروقراطية ـ بمعنى الادارة الرشيدة القائمة على العلاقات اللاشخصية ـ تعتمد على الكفاءة الفنية والشهادات الدراسية ، وترتبط بالنمو الديموقراطى democratization وتخفيف حدة الفروق الاجتماعية ، الأمر الذى يترتب عليه أن تصبح الطبقات الاجتماعية غير ذات اهمية سياسية كبيرة ؛ اما الفكرة الثانية فتقول بأن الموظفين ـ من مديرى الادارات ـ هم الوريثون الوحيدون لمالكى وسائل الانتاج كحكام للمجتمع · ولقد تطورت هاتان الفكرتان فيما بعد فى نظرية بيرنهام عن « الثورة الادارية »(١٨) ، وتجدد الاهتمام بهما من خلال الانتقادات التى وجهت الى البيروقراطية فى المجتمعات الشيوعية فى فترة ما بعد حكم ستالين(١٩) ·

ومهما يكن الحال فى المجتمعات الشيوعية ، فانه لا يمكن الادعاء بأن

---

(١٨) James Burnham, The Marganial Revotion (London, 1943).

(١٩) انظر بصفة خاصة :
Milovan Djilas, The New Class (London, 1957).

التسوية الاجتماعية Social Levelling (بمعنى تخفيف حدة الفروق الاجتماعية) قد وصلت فى المجتمعات الرأسمالية الغربية الى حد لم تعد معه جماعات الصفوة ـ بما فيها الصفوة الادارية ـ لها أى ارتباط بالطبقات الاجتماعية ·

وقد لاحظ لاسكى Laski أن الطبقات الراسخة فى المجتمع المحلى سوف تستمر مستأثرة بوظائف الخدمة العامة المؤثرة طالما أن النظام التعليمى غير قائم على الديموقراطية (يعنى غير قائم على المساواة) واضاف لاسكى أن ذلك يتضمن : « أولا أن الخبرة (الاجتماعية) التى يعتمد عليها أصحاب هذه الوظائف لن تكون ممثلة للمجتمع المحلى ؛ بل أن الحقائق الجديدة التى سيواجهها هؤلاء الأفراد سيتم رؤيتها فى ضوء هذه الخبرة الخاصة · ثانيا : سوف تكون المشورة التى يقدمها هؤلاء الأفراد الى الهيئة التنفيذية السياسية ذات أفق ضيق ، اللهم الا اذا انضم اليهم بعض الأفراد القلائل من ذوى الخيال الواسع »(٢٠) وتعبر ملاحظة اللورد أتلى Lord Attlee عن العلاقة بين الوزراء الاشتراكيين وكبار الموظفين المدنيين ـ والتى أشرنا اليها فى مكان سابق ـ تعبر عن مخاوف من المعارضة الطبقية للاصلاحات الاجتماعية ؛ فيجب أن ننظر الى قوله بأن هذه المخاوف لا أساس لها فى ضوء موقف ما بعد الحرب فى بريطانيا، حيث استمرت الاصلاحات التى قامت بها الحكومة العمالية لتكمل سياسات حظيت بقبول واسع أثناء الحرب ، ودون ادخال أى ضوابط ذات طابع راديكالى ؛ وحيث كان التركيب الاجتماعى لقطاع الخدمة المدنية قد شهد بعض التغيرات كنتيجة للتعبئة فى وقت الحرب ·

ولقد ساهمت الدراسات التاريخية فى توضيح أهمية العلاقة بين الصفوة الإدارية والبناء الطبقى · فقد قدم كنجزلى Kingsley فى دراسة عن المستوى الأعلى لقطاع الخدمة المدنية فى بريطانيا(٢١) قدم

---

(٢٠) H. J. Laski, A Grammar of Politics (4th ed., London, 1941) P. 399.

(٢١) J. D. Kingsley, Representative Bureaucracy (Yellow Springs), 1944.

الفكرة القائلة بأن النظام الادارى فى بريطانيا يعمل بكفاءة ويسر لأن اعضاء الهيئة التنفيذية السياسية ورؤساء قطاع الخدمة المدنية ينتمون الى نفس الطبقة الاجتماعية ولذلك فان لهم وجهـات نظر متشابهة فى المسائل الهامة المتعلقة بالسياسة العامة • وذهب فى تحليله لأسباب ظهور هذا الموقف الى أن القوة والتأثير المتزايدين لطبقة بعينها فى الحيـاة الاقتصادية والاجتماعية قد منح هذه الطبقة اكبر نصيب فى ممارسة كل من القوة السياسية والادارية • فالحوار السياسى حول اصلاح قطـاع الخدمة المدنية فى منتصف القرن التاسع عشر له نفس اصول واهميـة الحوار السياسى الذى دار حول مذكرة الاصلاح التى قدمت عام ١٨٣٢ • ولقد عبر هذا الحوار عن مظـاهر الامتعاض والطموح لـدى الطبقة الراسمالية الصناعية • وظهرت هذه المشاعر فى وصـف جون برايت John Bright لوزارة الخارجيـة بانهـا « هيئـة للترويج الخـارجى للارستقراطية » وكذلك فى الملاحظة التى قدمها كاتب مجهول الهوية والتى تقول بأنه لا يمكن لأى فرد أن يصل الى مكانة معينة فى ظل حكومة ليس لها تأثير على نطاق الأسرة أو أنها ولدت من خلال زواج غير شرعى • ويمكن أن يكون هذا التفسير التاريخى الذى يربط التغيرات فى تركيب الصفوة الادارية بالتغيرات فى موقف الطبقات الاجتماعية مفيدا فى فهم احداث اكثر حداثة • فطالما أن فرص الأفراد الذين ينحدرون من الطبقة العاملة فى دخول المستوى الأعلى لقطاع الخدمة المدنية قد زادت ، فان هذه الحقيقة يمكن أن تفسر بتزايد قوة الطبقة العاملة فى المجتمع ككل ؛ وفى هذه الحالة يمكن أن نتخذ من معدل هذه الفرص خـلال فترة من الوقت ـ مؤشرا مفيدا على التغيرات فى البناء الطبقى فى المجتمع •

وتحتل عملية التوافد الى جماعات الصفوة recruitment of elites اهمية خاصة فى المجتمعات الصناعية التى تطورت نحو صيغة ديموقراطية اشتملت ليس فقط على الحقوق السياسية والتنافس من اجـل القـوة السياسية ، بل اشتملت أيضا على مستوى اكبر من المساواة الاقتصادية والاجتماعية ، بمعنى المساواة فى الفرص على الأقل • ويمكن القـول ـ كما ذهب فيبر ـ بأن تحقيق قدر من المساواة فى الظروف الاجتماعية

يعتبر شيئا ضروريا لنمو البيروقراطية . طالما أن ادخال موظفين جـدد وفق الأساس الصارم للقدرة والمؤهلات يمكن تحقيقه فقط عندما تتاح لكل المواطنين ـ من حيث المبدأ ـ سبل الوصول الى الوظيفة العامة ، بدلا من قصرها على أعضاء شريحة اجتماعية بعينها • فالواقع ان المذهب الذى ينادى باعتماد الوظيفة على المهارات هو نتيجة منطقية لمبادىء الحرية والمساواة والاخاء • وذهب فيبر الى ابعد من ذلك عندما اكد ان انتشار البيروقراطية سوف يؤدى بدورد الى مزيد من المساواة ؛ ولكن نجد أنه من الضرورى تعديل هذا التنبؤ الذى تنبأ به فيبر ، بالرغم من اعترافنا بان الافكار الخاصة بالاقتدار والجدارة (الغربية) قد مارست تأثيرا على الحد من الامتيازات الاجتماعية القديمة فى اطار التعقيد العلمى والفنى للمجتمعات الحديثة • فدخول عناصر جديدة الى الوظائف العامة من خلال الامتحان القائم على المنافسة أو على أساس الشهادات التعليمية لا يحدث مساواة حقيقية فى الفرص المتاحة الا اذا حصـــل اولئك الذين يتمتعون بقدرات متساوية على فرص متساوية لاعداد انفسهم للدخول الى نطـاق الخدمات العامة ، وذلك من خلال الحصول على الشهادات اللازمة أو التدريب اللازم لدخول الامتحانات • فالذى يحدث بالفعل أن اختيار الأفراد لشغل المناصب العليا فى قطاع الخدمات وفى كثير من المهن ذات المكانة المرتفعة ، يتم فى معظمه بعد أن يكون الافراد قـــد تم اختيارهم للتعليم العالى بالفعل • ويكشف تاريخ مؤسسات التعليم العالى أنها كانت مقصورة على افراد من الشرائح العليا فى المجتمع • والمحقق أنها قد لعبت دورا رئيسيا فى المحافظة على استمرار الفروق الطبقية ينـــاهز الدور الذى لعبته مظاهر عدم المساواة فى الحقوق الدنية والسياسية فى ذلك •

وسوف تفيد دراسة عملية توافد أعضاء جدد الى المستويات العليا فى قطاع الخدمات ، فى القاء الضوء على عمليات الحراك الاجتمـــاعى فى المجتمع • فسوف توضح الى أى مدى توجد مساواة فى الفرص فى أحد القطاعات الهامة فى المجتمع ، واذا ما غطت مثل هذه الدراسة فترة من الوقت فربما تكشف عن درجة واتجاه التغير • ومن الممكن أن تضيف دراسة عملية التوافد الى جماعات صفوة بعينهـــا معلومات مفيـــدة

لتلك المعلومات التى يتم الحصول عليها عن طريق الدراسات العامة للحراك الاجتماعى للسكان ككل ؛ ففى الوقت الذى يتعرض فيه ذلك النوع الأخير من الدراسات للحصيلة الكلية لأشكال مختلفة من الحراك (بين الشرائح الاجتماعية المتقاربة وبين الشرائح الاجتماعية المتباعدة) ، فان دراسة عملية التوافد الى جماعة صفوة بعينها سوف يكشف عن معدل الحراك طويل المدى · وفى هذه الحالة فان فرص الصعود المباشر من الأوضاع الاجتماعية المنخفضة الى الأوضاع الاجتماعية المرتفعة يجب أن تحظى باهمية خاصة ، ذلك لأن هذه الفرص تلعب دورا اساسيا فى تشكيل حكم الفرد على طبيعة النسق الطبقى سواء اكانت طبيعة مفتوحة أم مغلقة ، وبالتالى طابع ومدى الوعى الطبقى ·

ومن المحتمل أن يكون لمعدل الحراك الاجتماعى تأثير هـــام على الصفوة الادارية نفسهـا ، فلو نتج عن التغيرات فى عمليـة التوافد الى الصفوة أن اصبحت الصفوة تستقى اعضاءها الجدد باعداد كبيرة من طبقات وشرائح اجتماعية عديدة ، فان الروابط التى توحد بين أعضـاء الصفوة لن تنتج أبدا عن مظاهر التماثل فى الاصول الاجتماعية ، وانما من المحتمل أن تنتج بصفة رئيسية عن التمـــاثل فى المهنة وفى الخبرات التعليمية التى تؤدى الى هذه المهنة · وفى هذه الحالة ، فان كبـــار الموظفين سيصبحون اكثر وعيا بانفسهم كصفوة مهنية ، اكثر من كونهم اعضاء فى طبقة اجتماعية تقليدية ؛ وربما يؤدى ذلك ـ فى ظروف مجتمع بعينه ـ اما الى تعضيد فكرة « الحياد السياسى » (بحيث تفهم المهنة فى ضوء القدرة الفنية وليس فى ضوء القوة) ، أو الى تطور اســـرع للصفوة الادارية كجماعة قوة جديدة ، أو حتى كطبقة جديدة اذا ما ارتبطت بجماعات اخرى · ولقد اصبح هذا الاحتمال الاخير موضوعا اساسيا لكثير من المناقشـات الحديثة حول « حـــكم الخبراء » ـ التكنوقراطيين والبيروقراطيين ، وهو نفس الموضوع الذى كان وراء تحليل فيبر للتيارات الاجتماعية فى المجتمعات الصناعية الحديثة ·

الفصــل العـاشر

الاتساق والانقسام فى جماعات الصفوة

فى الهند(١)

لم تحظ جماعات الصفوة فى الهند بعد بدراسة دقيقة • ولذلك فان البيانات المتاحة غير كافية وهى موزعة على موضوعات عديدة مثـــل تركيب جماعات الصفوة ، وتوافد عناصر جديدة اليها ، والعلاقات فيما بين هذه الجماعات ، ودرجة هيبتها وتاثيرها ، ومـــدى انفصالها عن الجماهير ، ودرجة ترابطها الداخلى • ومن ثم فان هذا الفصل ذو طبيعة استكشافية • وسوف نحاول أن نتعرف على بعض العناصر الهامة التى تؤدى اما الى الاتساق أو الانقسام فى جماعات الصفوة فى الهنـــد ، وان نجمع بعض خيوط المعـــرفة التى يمكن اشتقاقها من الدراســـات الحديثة(٢) •

ومن الأهمية بمكان أن نوضح بادىء ذى بدء بعض الفروق العامة بين جماعات الصفوة فى الهند ونظيرتهـــا فى المجتمعات الصـــناعية • وبامكاننا أن نميز ـ طبقا لمـــا ذهبت اليه دراســـة شهيرة(٣) بين خمس

---

(١) اعيد نشره من المصدر التالى :
Philip Mason (ed) India and Ceylon : Unity and Diversity (London, 1967).

(٢) ناقشت الخصائص العامة لجماعات الصفوة ودورها فى البلدان النامية فى كتابى المعنون « الصفوة والمجتمع » (المنشور فى لندن عام ١٩٦٤) كما ناقشت حالة الهند بصفة خاصة فى المصدر التالى :
" Modern Elite in India " Chapter IX of Toward a Sociology of Culture in India (edited by T. K. N. Unnithan, Indra Deva and Yogendra Singh (New Delhi, 1965).

(٣) R. Aron, " Social Structure and the Ruling class " British Journal of Sociology, Vol. 1, Nos 1 and 2 (March, June, 1950).

جماعات للصفوة : القادة السياسيون ، والمديرون الحكوميون ، والمهيمنون على شئون الاقتصاد (رجال الاعمال والادارة) ، وقـــادة الجمـــاهير (وبصفة خاصة زعماء نقابات العمال ، ٠ وقادة العسكريون٠ وبالتطبيق على الهند نجد ان ليس لكل الجماعات نفس الأهمية ٠ فلم تتطـــور ـ للأســباب التى اوضحهـــا ميزرا Misra فى كتابه الطبقات الوسطى فى الهند ـ طبقة برجوازية حقيقية ؛ وبالرغم من أن رجال الأعمال الافراد وبعض جماعات المصلحة قد يستحوذون على قدر من التأثير السياسى ، فانه لا يبدو فى الوقت الراهن أن هناك صفوة من رجال الاعمال تمارس ذلك النوع من التأثير السياسى والاجتماعى الحاسم الذى يظهر بوضوح فى المجتمعات الغربية ٠ ومثل ذلك يقال عن زعماء نقابات العمال الذين لم يشكلوا بعد صفوة ذات اهمية ، وذلك بسبب النمو البطىء للنقابات والطابع الزراعى والريفى الذى يميز المجتمع الهندى ٠ اما موقف القادة العسكريين فانه اقل وضوحا ٠ فلقد كان بامكاننا القول منذ ســنوات قليلة بأن الدور السياسى للقادة العسكريين فى الهند لا يعتبر دورا هاما على خلاف الكثير من الدول النــامية الاخرى ؛ ولكن الصراعات على الحدود مع الصين وباكستان والانفاق المتزايد على النواحى العسكرية قد ادى الى تغيير الموقف ، واصبح موقف الصفوة العسكرية فى الهنـــد الآن بحاجة الى اعادة نظر ٠

اما جماعتا الصفوة اللتان تحظيان باهمية بالغة فهما : القــادة السياسيون وكبار موظفى الحكومة ٠ فقـــد تحملت هاتان الجماعتـــان المسئولية الاساسية فى التطور الاقتصادى والاجتماعى فى الهند ، ومن المتوقع أن يستمرا فى تحمل هذه المسئولية فى المستقبل القريب ٠ وسوف ينصب جل اهتمامنا هنا على وضع هاتين الجماعتين فى المجتمع الهندى٠ ومع ذلك فهناك جماعة اخرى تستأهل قدرا من الاهتمام : تلك هى جماعة المثقفين ٠ فالمثقفون يحتلون ـ فى كل المجتمعات المتعلمة على اقل تقدير ـ مكانا هاما سواء كانوا كتابا أو خبراء او مفكرين ايديولوجيين ؛ ولقــد اضحى المثقفون فى المجتمعات الصناعية الحديثة اكثر تاثيرا سواء كخبراء فى مجـــال العلـم والتكنولوجيا والادارة الاقتصـــادية ، او كمفكرين ايديولوجيين مسئولين داخل النظم الديمقراطية عن صياغة افكار ومذاهب

اجتماعية والتعبير عنها • غير أنه من المحتمل أن يحتل المثقفون وضعا اكثر أهمية فى البلدان النامية ، فهم من ناحية اقلية تمتلك المعرفة العلمية والفنية ، وهم من ناحية أخرى يعملون ـ كمفكرين ايديولوجيين ـ على دفع الحركات الراديكالية نحو الدعوة الى التغيير الاجتماعى •

وربما يوحى لنا العرض السابق بأنه مادامت لا توجد فى الهند سوى جماعات صفوة قليلة على المستوى القومى ـ أهمها على الاطلاق القادة السياسيون وكبار موظفى الحكومة ـ فانه من المحتمل الا يوجد سوى قدر من المنافسة بين جماعات الصفوة يقل بكثير عن نظيره فى المجتمعات الغربية • ويمكن اشتقاق نفس النتيجة من مجال القيادة السياسية نفسه • فالهند « ليست دولة ذات حزب واحد » ، وانما هى « نظام يسيطر فيه حزب واحد »(٤) فى عدم وجود منافس فعال لحزب المؤتمر الحاكم • وفى مثل هذه الظروف من المحتمل أن تظهر الانقسامات

داخل جماعات الصفوة ذاتها ، ويصبح ذلك أمرا سهلا عندما تكون هناك بالفعل خلافات اجتماعية رئيسية ـ كتلك المتعلقة بالطائفة واللغة ـ تعمل بمثابة أساس تقوم عليه الانقسامات السياسية • ولقد اشار كثير من الدارسين الى مظاهر الانقسام الحاد فى جماعات الصفوة فى الهند المعاصرة • واهتم هؤلاء الدارسون بنوعين من الانقسامات هما : الانقسام بين دعاة التقليد ودعاة التحديث من ناحية ، والانقسامات الاقليمية من ناحية أخرى ؛ وسوف أبدأ بمناقشة هذين الموضوعين •

يذكر التمييز بين التقليد والحداثة دائما عند الحديث عن البلدان النامية ، غير أنه ليس من السهولة بمكان تحديد الخط الفاصل بينها بدقة • وسوف لا يكون هذا التمييز مفيدا اذا ما قصد به فقط المقابلة بين الشكل المستقر القديم وظروف التغير الراهنة ؛ فمثل هذا التمييز لا يعدو أن يكون نوعا من التعارض الكورونولوجى (التتابعى) البسيط •

---

(٤) استخدم هذه العبارة موريس ـ جونز من مؤلفه التالى :
W. H. Morris - Jones, The Government and Politics of India (London, 1964).

وبصفة عامة ، فان التمييز بين التقليد والحداثة يصـــيغ خبرة البلدان الأوربية الغربية فى تحولها من الاقطاع الى الرأسمالية الحديثـــة ، من النظام القديم الى النظام الحديث • ونجد على أحد شقى هذا الانقســام نمطا من المجتمع يسود فيه الفكر الدينى ، ويكون فيه التغير التكنولوجى والاقتصادى بطيئا ، والحركة بين الشرائح الاجتماعية محدودة ، بل أن هذه الشرائح نفسها تكون منفصلة بعضها عن البعض الآخر ؛ ونجد على الشق الآخر نمطا من المجتمع ينتشر فيه التفكير العلمانى ، وتحظى فيه التكنولوجيا والعلم باهمية كبيرة ، ويوجد به قـــدر ملحوظ من الحراك الاجتماعى بين الشرائح الاجتماعية المختلفة • ومن هـــذا المنطلق يمكن أن نجد تعارضا بين النظام التقليدى فى المجتمع الهندى ـ وخاصة المجتمع الهندوسى ـ والنظام الجديد الذى نشأ مع دخول التصنيع والديموقراطية السياسية • والسؤال الذى يترتب على ذلك مباشرة هو : هل توجد الآن أى جماعات صفوة تقليدية مؤثرة ؟ يبدو لنا أن الملاحظة التى قدمهـــا ماكرجى MuKerji تصدق فى هذا المجال حيث ذهب الى القـــول بأن « جماعات الصفوة القديمة قد اختفت فى كل مـكان ، ولكنهـــا ما تزال موجودة هنا ؛ فلا يمكننا التعرف على أى جماعات جديدة باستثنـــاء رجال السـياسة المحترفين والبيروقراطيين فالمحـــافظة على البراهمنية (النظام الهندوسى) Brahminism كمجال اهتمام اجتماعى حاضر فى هذا العالم يعتبر حلما قديما ••• ويمكن لعشرة من الرؤســـاء أن يغسلون اقدام عشرة الاف من أعضاء الطائفة البراهمية غير أن الهيبـــة التى كان يتمتع بها عضو الطائفة البراهمية فى مجال السياسة لا يمكن استعادتها »(٥) • فلم تظهر حركات اجتماعية وسياسية براهمية ذات أهمية ، وحتى أكثر الجماعات الدينية تقليدية قد حولت اهتمامها بشـكل متزايد الى انشطة الرفاهية الاجتماعية ذات الطابع الحديث •

ويعنى غياب أى جماعات صفوة تقليدية متميزة ـ فحتى الأحزاب السياسية القائمة على أساس طائفى لا تعتبر احزابا تقليدية كلية حيثما

---

(٥) D. P. MuKerji, Divesities (New Delhi, 1958). P. 73.

تمتلك قدرا من المقـدرة السـياسية ـ يعنى أن التعارض بين التقليدية والحداثة ـ بالشكل الذى يبدو عليه الآن ـ يجد تعبيرا عن نفسه داخل جماعات الصفوة المسيطرة نفسها • ويمكن تحديد أبعاد هـذا التعارض فى الحياة السياسية ، غير أنه لا يمكن تقييمه بسهولة • فقـد ظهر فى حزب المؤتمر الى حد ما من خلال الخلافات بين نهرو وغاندى ـ ولكن غاندى لم يكن مجرد رجل تقليدى ، كما لم يكن نهرو مجرد رجل من دعاة التحديث • ويظهر هذا التعارض فى الوقت الحاضر من خـلال تعايش أساليب أو مصطلحات مختلفة فى مجال السياسة : السياسة الحديثة ، السياسة التقليدية ، السياسة المقدسة (أو الدينية) اذا ما استخدمنا المصطلحات التى قدمها موريس جونز(٦) • ويمثـل نظـام الديموقراطية البرلمانية والمحاكم والادارة العليا النظم السياسية الحديثة • أما الجوانب التقليدية للسياسة فانها توجد على مسـتوى القرية حيث تلعب كل من الطائفة والقرابة والتعصب دورا هاما • وتتمثـل الجوانب المقـدسة (الدينية) فى السياسة فى مجموعة المثل الدينية القديمة ؛ وقد كانت تشكل أحد عناصر التفكير السياسى لغاندى ، ويعبر عنها بشدة هذه الايام كل من فينوبا بوهاف Vinoba Bhave جـ • ب • ناريان J. P. Narayan

ويشير هذا التباين فى الاساليب السياسية بصورة أولية الى وجود مستويات أو مناطق للممارسة السياسية منغلقة على نفسها الى حـد ما ومستقلة بعضها عن البعض الآخر • ولقد أوضحت هذه النقطة دراسة عن ولاية أوريسا Orissa أجراها ف • جـ • بيلى(٧) F. G. Bailey ، بل أن هذه الدراسة أضافت بعض الملامح الاخرى • فرق الكاتب بين نطاق السياسة الخاص بالصفوة وهو نطاق حـكومة المقاطعة ، وبين نطـاق السياسة على مستوى القرية • فالأول يمثل المستوى الحديث والثـانى يمثل المستوى التقليدى • غير أن هناك أيضا منطقة وسطى تمثلها الدائرة الانتخابية حيث يتقابل كلا الطرفين ويتكيف كل منهما مع الآخر • وذهب

---

(٦) Morris - Jones, oP. cit., P. 52.

(٧) F. G. Bailey, Politics and Social Change : Orissa in 1959 (BerKeley, 1963).

بيلى الى ان الانشطة السياسية للولاية والدوائر الانتخابية تميل أثنــاء هذه العملية الى امتصاص وتحويل (بمعنى تحديث) هذه القرى • وتبدو الصفوة نفسها على انها اقرب الى الترابط (التماسك) ـ من النـــاحية الاجتماعية والسياسية ـ الأمر الذى جعل بيلى يتســاءل عما اذا كان يمكن النظر الى هذه الصفوة كطبقة وسطى « تقف فى مقابل طبقة الفلاحين أو العمال المعدمين فى الريف او عمال الصناعة فى أوربا »(٨) وهــذه فكرة مرفوضة على اساس انه لا توجد جماعة مشتركة Corporate group من الفلاحين والعمال ـ وبالتالى لا يوجد شكل محدد لصفوة مضادة داخل الولاية ـ وايضا على أساس ان وحدة الصفوة يظهر بجلاء فى علاقتهــا بالجماعات الخارجية ، وبالصفوات فى الولايات الاخــرى وبحـكومة دلهى •

ولقد اظهرت دراسة حديثة عن القيــادة الســياسية فى ولاية أوتر برادیش Uttar Pradesh ان حزب المؤتمر يحوى صفوة تنتمى الى الطبقة الوسطى وتعتمد فى قوتها السياسية على حيازة الملكية ؛ حيث كتب يقول :

« نبعت القيادة ومصادر التدعيم السياسى لتنظيمات حزب المؤتمر المحلية فى الأربع مقاطعات الريفية التى درست من كبـــار المزارعين من طائفتى الزامندارس Zamindars والتاليوكدارس TaluKdars ومن صغار ومتوسطى اعضاء الزامندارس السابقين • فالقوة فى الريف تعتمد على ملكية الأرض • وتعتمد قوة حزب المؤتمر على شبكة من العـــلاقات ـ تقـــام من خـــلال قيـادة الحزب وسيطرته على الحكومات الاقليمية والتنظيمات التعاونية ـ مع الجماعات ذات التاثير المحلى فى القرى ، أى مع هؤلاء الذين يملكون الأرض »(٩) •

وتتهدد وحدة هذه القيادة باستمرار من خلال الصراعات الطائفية

---

(٨) Ibid., P. 228.

(٩) P. R. Brass, Factional Politics in an Indian State : The Congress Party in Uttar Pradesh (PerKeley, 1965) P. 229.

وهى أحد الملامح التقليدية فى المجتمع الهندى . والتى ترتبط بعلاقات التابع والمتبوع Patron - Client relationships كالعلاقة بين المالك والمستاجر ، والمحامى وعميله ، والقائد ومجتمعه المحلى (وتتضمن هذه العلاقة الأخيرة مظاهر الولاء الطائفى غير انها تمتد الى اكثر من طائفة واحدة) • ولقد تفاقمت الصراعات الطائفية فى ولاية أوتر براديش لأن السيادة السياسية لحزب المؤتمر لم يواجهها اى مظهر من مظاهر التحدى• وعندما يوجد مثل هذا التحدى ـ كما هو الحال فى أحد المقاطعات التى يسيطر عليها حزب سواتانترا Swatantra Party ـ توحد الجماعة الحاكمة من صفوفها وتنكمش النزعة الطائفية •

اما على المستوى القومى فان على الصفوة السياسية ـ وخاصة حزب المؤتمر الحاكم ـ أن تتعامل مع النمط التقليدى للسياسة فى القرية من ناحية ومع النمط المقدس (الدينى) للسياسة المرتبط بالحركة البوذية من ناحية اخرى • ولكن يبدو هنا ايضا ـ كما فى ولاية اورسا واوتر براديش ـ أن تاثير السياسة الحديثة كما تمارسها الصفوة هو تاثير حاسم ، وفى نفس الوقت لا يوجد دليل قاطع على وجود انقسام داخل الصفوة ذاتها بين دعاة التحديث ودعاة التقليد • فمما لا شك فيه أن هناك بعض قادة حزب المؤتمر ممن يظهرون اهتماما بالغا بحماية الابقار ومنع المشروبات الكحولية ، بينما يهتم البعض الآخر بصناعة الصلب والتزود بالمعدات العسكرية ، ولكن هذه الخلافات لم تخلق أى صراعات اساسية • واذا كان لنا أن نشير الى موضوع واحد من الموضوعات التى تعد مصدرا للانقسام فى الوقت الحاضر ، فاننا نشير الى الاختلافات فى الرأى حول المدى المرغوب فيه من المشروعات العامة فى مقابل المشروعات الخاصة ، او بشكل اكثر عمومية ، الاختلافات حول المزايا المرتبطة بالاشتراكية والراسمالية كصورتين للمجتمع ـ وتعد هذه الخلافات مسالة حديثة بكل المقاييس •

وقلما يظهر التعارض بين التقليد والتحديث فى قطاع كبار الموظفين والقادة العسكريين ، ذلك لأن كلا من الجماعتين تعد حديثة فى تعليمها ،

والانشطة التى تمارسها ، ونظرتها المهنية • اما وضع المثقفين فانه مختلف واكثر تعقيدا • فقد شكل المثقفون فى معظم المجتمعات الحديثة فئة اجتماعية اكثر تحديدا ، ظهرت داخلها جماعات متنوعة تتعايش مع بعضها البعض أو تتنافس مع بعضها البعض • وظهر منذ القرن الثامن عشر وحتى الوقت الحاضر ـ فى المجتمعات الغربية ـ خط اساسى للانقسام يفصل بين المثقفين المحافظين والمثقفين الراديكاليين • ولقد اكتمل هذا التعارض بين المحافظين والراديكاليين ، أو تدعم كما يحلو للبعض أن يقول، من خلال التمييز بين علماء العلوم الطبيعية وعلماء الانسانيات • ومن الممكن أن نجد انقسامات من هذا النوع فى الهند المعاصرة ؛ كأن نرى ـ على سبيل المثال ـ فى رام موهان روى Ram Mohan Roy حدا أعلى لطبقة مثقفة راديكالية وصلت الى اكتمال نضجها أثناء النضال من أجل الاستقلال ، أو أن نلاحظ تشكل طبقة جديدة من المثقفين من خلال ادخال العلم الغربى ونظم الجامعات الغربية الى الهند • غير أن هذه التطورات فى الثقافة الهندية لم تنتج بعد هذا التعارض الدقيق فى المذاهب الفكرية الذى حدث على نطاق واسع فى كثير من البلدان الأوربية • فلم تظهر هناك معارك على اصدار كتب مختلفة ، ولم تظهر جماعة مؤثرة من الفلاسفة ، كما لم يوجد صراع عام بين العلم والدين ويجب أن يفسر ذلك من خلال الحقيقة التى مفادها أن الفكر الغربى قد دخل الى الهند من خلال القوة الاستعمارية الحاكمة ، وتم نشره بلغة أجنبية ؛ الأمر الذى ترتب عليه امكانية النظر الى الاستقلال على أنه يطالب بتأكيد الثقافة التقليدية ، مع تفسيرها بطرق جديدة وادخال بعض العناصر المستعارة من الغرب ، على أن تظل هندية بصفة اساسية • وما يزال هذا التنافس بين التراث الداخلى والتراث الأجنبى مستمرا ، ويتبدى فى المناقشات الدائرة حول استخدام اللغة الانجليزية ، بالرغم من أنه قد فقد حدته التى كان يتميز بها فى الأجيال الأولى : أجيال طاغور ونهرو • ولقد عبر ديساى Desai تعبيرا جيدا عن هذا التنافس عندما كتب يقول :

« ان ما نمتلكه هو ايديولوجية ذات توجيه هندى متأثرة بالغرب وهى الايديولوجية التى تنتمى اليها الجماهير العريضة من المثقفين الجدد •

وبناء عليه ، فليس لدينا – من الناحية الايديولوجية – اكتساب اصيل لصفات الغرب »(١٠) .

ومن الناحية الأخرى فان الديانة البراهمية – والتى تعبر عن الوحدة الثقافية للمجتمع التقليدى – لا تتفق فى جوانب عديدة مع ظروف الحياة فى المجتمع الصناعى النامى ، ولذلك فقد فقدت الكثير من جدواها . ومع ذلك فاننا لا يمكن ان ننكر التاثير الذى ما تزال تمارسه الديانة البراهمية ، فكما لاحظ سيرينفاس Sirinvas فى مناسبات عديدة(١١) ، فان عمليتى اكتساب صفات الغرب Westernization ونشر اللغة السانسيكرتية Sanskritization يسيران جنبا الى جنب فى الهند الحديثة . وبناء عليه فانه فى الوقت الذى يتحول فيه اعضاء الطوائف العليا الى افراد ذوى ثقافة غربية – ليس على نمط الانسان الغربى تماما – يغوص اعضاء الطوائف الدنيا فى النمط التقليدى للمجتمع من خلال تبنى المذاهب البراهمية وكذلك الممارسات العملية المرتبطة بها . والنتيجة هى خليط من الأفكار الحديثة والتقليدية ، اكثر من كونها مواجهة بينهما .

ويبدو هذا الأمر غريبا خاصة حيثما يتوقع ان تسود القيم الحديثة دون منازع ، كما نرى فى مجال العلوم الاجتماعية . فغالبا ما يذهب البعض الى أن الباحث فى علم الاجتماع او الانثروبولوجيا – او حتى علم الاقتصاد – يحتاج اذا كان يعمل فى الهند الى التعرف عن قرب على المجتمع التقليدى ، بصرف النظر عن المادة التى يدرسها . وقد ذهب ماكرجى فى هذا الصدد الى القول بأن :

---

(١٠) I. P. Desai, " The New Elite " in Towards a Sociology of culture in India, op. cit, P. 154.

(١١) انظر على سبيل المثال اعماله التالية :
Caste in Modern India and other essays (Bombay, 1965) Chapter 2, "a Note on Sanskritization and Westernization" and also " changing Institutions and values in Modern India ", in **Towards a Sociology of culture in India** (op. cit).

« الواجب الأول والملح الملقى على عاتق علم الاجتماع الهندى ··· هو دراسة التراث الهندى » . واكثر من هذا « ··· فانه ليس كافيا ان يكون عالم الاجتماع الهندى عالم اجتماع فقط · بل يجب عليه أن يكون هنديا أولا وقبل كل شىء ، فعليه أن يشـــارك فى الطـرق الشـــعبية ، والاعراف ، والعادات الاجتماعية والتقاليد بهدف فهم النسق الاجتماعى وما وراء النسق الاجتمــاعى · ان على الباحث أن يغوص فى التــراث الهندى الاعلى منه والادنى · وبالنسبة للجوانب العليا من التراث فان اللغة السنسكريتية تلعب دورا فائق الأهمية »(١٢) ·

والحقيقة ان مثل هذا الالتزام لم يوجد عند علماء الاقتصاد السياسى وعلماء الاجتماع الاوائل فى الاقطار الاوربية ، فلم يطرح أحد منهم مثل هذا الالتزام ، كما لم يفترض هؤلاء العلماء أن من واجبهم أن ينغمسوا فى ثقافة أوربا الاقطاعية قبل أن يقدموا على بحث المشكلات المترتبة على ظهور الراسمالية · ويكشف الاختلاف بين الموقف فى أوربا والموقف فى الهند عن مدى تاثير الأفكار التقليدية على الفكر الاجتماعى الهندى ذلك التاثير الذى ينتج مركبا لا هو بالتقليدى ولا هو بالحديث ·

وقد يكون من الضرورة بمكان أن ندرس تطور المهن الفكرية وتطور الثقافة الحديثة فى الهند بشكل اكثر دقة(١٣) وذلك قبل أن نصدر حكما على الصورة التى سيكون عليهــا التاليف بين الفكر التقليدى والفـكر الحديث · غير أن هذا التاليف قائم فى الوقت الحاضر ، فلم تعد جماعة المثقفين مشغولة بالصراع بين دعاة التقليد ودعاه التحديث · والخلاف الاكثر ظهورا هو الخلاف بين الثقافات الاقليميــة ، ولذلك فان علينا أن نكشف عمــا يترتب على النـزعات الاقليميــة من آثار · عرض سيليج

---

(١٢) MuKerji, op. cit, P. 232 - 3.

(١٣) من اكثر المجالات شمولا حتى الآن محاولة ادوارد شيلز : انظر
E. Shils, The Intellectual Between Tradition and Modernity : The Indian Situation, (The Hague, 1961).

هاريسون(١٤) Harrison في احد كتبه لما اسماه بمخاطر البلقنة في الهند ويسير رايه على النحو التالي : تشتمل الهند على مناطق ثقافية متعددة تجمعت مع بعضها سويا في الماضي من خلال اللغة السنسكريتية والصفوة البراهمية القومية . ثم بعد ذلك من خلال سيطرة الصفوة الادارية السياسية البريطانية (او ذات التعليم البريطاني) وكذلك انتشار اللغة الانجليزية ٠ ومنذ تحقيق الاستقلال ، لم تعد اللغة الانجليزية لغة قومية ، غير ان المناداة باحلال اللغة الهندية (Hindi) محلها قد لاقت تحديا ومعارضة ؛ في الوقت الذي بدات فيه الثقافات واللغات المحلية تطل براسها من جديد ٠ ومن شان هذه التطورات أن تخلق حدودا قوية بين المناطق اللغوية ، وتعوق عملية الحراك على المستوى القومي ، وتعمق الولاءات المحلية ، وتثير نوازع المطالبة بمزيد من الاستقلال الذاتي الأقليمي ، وفي النهاية فانها قد تؤدي الى زيادة الحركات الانفصالية ٠

وبناء عليه فلا يمكن انكار قوة الولاءات اللغوية المحلية ، كما لا يمكن انكار اهمية الثقافات المحلية ٠ ولقد اتضحت الولاءات الاقليمية من خلال الاصرار الجماهيري على اقامة ولايات محلية يقوم تقسيمها بناء على المناطق اللغوية الأساسية ، الأمر الذي ترتب عليه اقامة ولاية اندهارا Andhra وتقسيم ولاية بومباي الى ولايتي جيجارات Gujarat ومهاراشترا Maharastra واخيرا تقسيم البنجاب الى ولايتين احدهما تتحدث اللغة البنجابية والاخرى تتحدث اللغة الهندية (Hindi) اما اهمية الثقافات المحلية فقد اتضحت من خلال الحقيقة التي مفادها انه بالرغم من أن احدا لم يتحدث عن النهضة الهندية (أو احياء الثقافة الهندية) ، فان النهضة البنغالية (احياء ثقافة البنغال) قد لاقت اعترافا عالميا منذ اوائل هذا القرن ، هذا فضلا عن ان احياء الادب والموسيقى والرقص في الوقت الحاضر يعد ظاهرة محلية اساسا ٠ وبالرغم من ذلك فان نتائج دراسة سيليج هاريسون ـ وخاصة المماثلة التي اقامها بين

(١٤) S. S. Harrison, India : The Most Dangerous Decades, (Princeton, N. J., 1960). especially ch. 111 " The New Regional Elites ".

الموقف فى الهند والموقف فى اوربا الغربية عندما ظهرت الدول البلقانية بعد الحرب العالمية الأولى ـ هذه النتائج ليست معصومة من النقد • فاولا فالوحدة الثقافية فى الهند تعتبر اقدم جذورا من الوحدة الثقافية في امبراطورية هابسبورج • واذا كان الاحساس بهذه الوحدة قد أصبح ـ فى الايام الأخيرة ـ اضعف عن ذى قبل ، فانه مايزال يمثل عنصرا لا يمكن اهماله • ومن الناحية الأخرى ، فانه من الخطأ المبالغة فى الحديث عن درجة الوحدة التى كانت قائمة في الماضى ، واهمال العوامل الجديدة التى أسهمت فى تحقيق الوحدة ، والتى ظهرت فى السنوات الأخيرة • فالوحدة الثقافية فى الهند قبل فترة الحكم البريطانى لم تدعمها ـ لوقت طويل ـ سلطة سياسية وادارية تقوم على اساس علمانى فوق كل الاراضى الهندية • فلم تظهر حكومة مركزية وادارية مركزية فعالتين الا فى الوقت الحاضر • واصبحت الحكومة اكثر قوة فى العقدين الماضيين وبعد أن اقيمت على اساس من الموافقة الشعبية •

ثانيا : يجب أن نتذكر أن الهند تعتبر ـ وبقصد ـ دولة فيدرالية وليست دولة واحدة • وفى نسق سياسى من هذا النوع ، من الطبيعى أن يتم التأكيد على حقوق الولايات التى تشكل الدولة الفيدرالية ، ومن الواضح أن الولايات الهندية أكثر تشددا واكثر الحاحا فى صراعها مع الحكومة الفيدرالية من نظيراتها فى « الولايات المتحدة الامريكية » وكندا على سبيل المثال • ثالثا : من المضلل ان نذهب الى القول بأن الولاءات اللغوية المنتشرة فى الهند تعتبر شيئا استثنائيا ، أو انه يمكن مقارنتها بالولاءات اللغوية التى كانت منتشرة فى أوربا الشرقية منذ نصف قرن مضى • فقد ظهرت خلال السنوات القليلة الماضية صراعات عنيفة فى بلجيكا بين الجماعتين اللغويتين الموجودتين هناك ؛ كما ظهر فى بريطانيا نمو ملحوظ للقومية الويلزية (نسبة الى اقليم ويلز فى بريطانيا) ؛ وتفجرت فى مقاطعة كوبيك Quebec فى كندا حركة قومية قوية على يد اقلية لغوية متمركزة فى هذه المقاطعة ، وشكلت بذلك جناحا انفصاليا نشيطا • وتعطينا حالة كندا مثالا يقف على طرف نقيض من الموقف فى الهند • فالاصول الثقافية للجماعات الفرنسية الكندية والانجليزية الكندية ، تعتبر اصولا اكثر تنوعا فى معظمها من الاصول

الثقافية للجماعات المحلية فى الهند ؛ فأحد هذه الجماعات ذات اصول لاتينية ، واخرى ذات اصول انجلو ـ ساكسونية ، وثالثة ذات اصول كاثوليكية ، ورابعة تدين بالبروتستينية . ومع هذا يجب ان نبرز الحقيقة التى مؤداها ان هناك جماعتين لغويتين ، ومن ثم فان بالامكان تطبيق سياسة للدمج اللغوى والثقافى بين الجماعتين ، بل انها مدعاة للتفاؤل . اما فى الهند فان هناك اربع عشرة جماعة لغوية ، ويبدو ان الحل الوحيد للمشكلة اللغوية ينحصر فى اقامة لغة قومية بجانب اللغات المحلية . ولا يمكن التنبؤ الآن بما اذا كان ذلك اصعب او اسهل من عملية الدمج اللغوى .

ليس هناك شك فى أن وجود مناطق ثقافية مميزة ، وهى المناطق التى تفصل ايضا ـ وبقدر معين ـ الكيانات السياسية ، يؤثر على تركيب وانشطة جماعات الصفوة . بيد أن المسألة التى تحتاج الى فحص دقيق هى الى أى مدى يترك وجود هذه المناطق الثقافية آثارا تفتيتية على المجتمع . فلنحاول ـ أولا ـ أن نلقى الضوء على تأثيراتها على الحياة الفكرية . من المحقق أن تأثير الثقافة الاقليمية على بعض المجالات الفكرية ـ فى الأدب والموسيقى مثلا وحتى فى كتابة التاريخ ـ قد يكون له اهمية كبرى . ومع ذلك يبقى هناك عنصر مشترك يوحد بين الثقافات المختلفة طالما انها تستقى من منبع مشترك يتمثل فى مجموعة من الموضوعات الاساسية المشتقة من الهندوسية . واذا كانت الديانة الهندوسية نفسها سوف تتقلص بسرعة مع تفكك نظام الطوائف ـ كما يفترض الدارسون ـ فليس هناك من مبرر للافتراض بأن التراث الثقافى المتراكم المرتبط بالهندوسية سوف يختفى بشكل مباشر ، بنفس طريقة اختفاء الثقافة التى اذكتها المسيحية فى الأمم الغربية الحديثة التى تتميز بسيطرة العلمانية . وفضلا عن هذا فان هناك كثيرا من مجالات الحياة الثقافية لا تتأثر بشكل حاسم بالثقافة الاقليمية ، فالعلم الطبيعى ليس له طابع قومى او اقليمى ، وحتى العلوم الاجتماعية فانها قابلة للتطور وفق خطوط تجعلها جزءا من هيكل معرفى عالمى ، بالرغم من المحاولات التى تبذل لربطها بالتراث الهندى .

ولا يبدو أن هناك على هذا المستوى اية عقبات امام الحركة الحرة للمثقفين فى كل ارجاء الهند • وسوف يصبح هذا امرا سهلا من خلال استخدام لغة قومية واحدة فى التعليم العالى ؛ كما أن انتشار اللغة الهندية (Hindi) فى المناطق التى لاتتكلم هذه اللغة ، بجانب الاستخدام المستمر للغة الانجليزية ، يؤدى بنا الى القول بأنه مهما تكن المصاعب امام الحركة الحرة للمثقفين فانه يمكن تذليلها • فالثقافة الادبية والفن يعتمدان اعتمادا كبيرا على اللغة المحلية ؛ أما العلم والتكنولوجيا والادارة بصورتيها الاقتصادية والسياسية فلا تعتمد على هذه اللغة • واذا كان لنا أن نحدد مدى الانقسامات الاقليمية بين الصفوة المثقفة فانه من الأهمية بمكان أن نكشف عن درجة الحراك الجغرافى لجماعات مثل أساتذة الجماعات والعلماء والصحفيين وهل تتزايد درجة الحراك هذه أم تتناقص • اشار سرينيفاس Srinivas الى أن الحج الى الأماكن المقدسة (فى الهند) قد ساعد على توحيد المجتمع الهندى : « فالحجاج لا يعبأون بالحواجز اللغوية ، ولا بالفروق فى العادات والأعراف ؛ بل انه يبدو أن هؤلاء الحجاج يستمتعون بالتنوع الثقافى فى الهند »(١٥) ويمكن أن يتدعم هذا العنصر المحقق للوحدة فى الهند الحديثة من خلال حراك المثقفين ؛ فمن الجدير بالملاحظة أن اساتذة الجامعات ـ على سبيل المثال ـ اصبحوا ينادون التأكيد المفرط على الثقافة الاقليمية وخاصة فكرة الاستخدام الشامل للغة المحلية فى التعليم العالى •

اما فى المجال السياسى ، فقد أوضحنا من قبل أن هناك جماعات صفوة اقليمية • غير أن هذه الجماعات تندمج اندماجا كبيرا فى النسق السياسى القومى • فالاحزاب السياسية الرئيسية هى احزاب قومية ، وحتى فى حالة تركز قوتها فى بعض المناطق الاقليمية فى الوقت الحاضر ـ مثل تركز حزب سواتانترا Swatantra فى منطقة جيوجارت Gujart والحزب الشيوعى فى منطقة كيرالا Kerala فلن هذه الأحزاب ماتزال

---

(١٥) Caste in Modern India and other Essays, op. cit., PP. 105 - 6.

تتنافس على حيازة القوة فى كافة أرجاء الهند . وبنـاء عليه فان القادة السياسيين لا يستطيعون الفكاك من الارتبـاط بالسياسة على المسـتوى القومى ، بل أن معظم أعضـاء الصفوة المحلية يتوقون الى ان يصبحوا قادة على مستوى قومى . ويهتم رجـال السياسة على مسـتوى حكومة الولاية اهتماما بالغا بتطور الاقليم الذى ينتمون اليـه ، وهـم يدخلون باستمرار فى صـراع فى حكومة دلهى ، خاصة فيما يتعلق بالمواقع التى تنفذ فيها الخطة الخمسية . ويحـدث نفس الشيء فى الانظمة الفيدرالية الأخـرى حيث لا تنحرف الصفوة الاقليميـة فى انشطتها ومبادراتها عن التمثيـل العـادى للمصالح المحليـة الا فى النـذر اليسير . فالقـادة السياسـيون على مسـتوى الولايات الهنـدية لايصـرون على مطالبهم للمشاركة فى مشروعات التنمية اكثر مما تفعـل الحكومات المحليـة فى كندا ـ مثلا ـ اثنـاء مناقشة توزيع الميزانيـة الفيدرالية الخاصة بتشييد الطرق ، والطـاقة الكهربائيـة أو التعليم العـالى ، ومن الضـرورى أن نؤكد ايضـا أن المناطق المحلية المختلفة تمثـل تمثيلا عادلا فى الحكومة القوميـة وفى الاجهزة المختلفة لهـذه الحكومة ، كما يتم خلق قـدر من التوازن بين جنوب الهند وشمالها فى هـذا المضمار . غير أن لنـا أن نتساءل : هـل يظهر التمييز بين الشـمال والجنوب فى الهند بشكل اكثر حدة مما هو الحال فى الولايات المتحدة الامريكية ، وهـل مسألة التمثيل السيـاسى اكثر حساسية ؟ الاجـابة على هـــذا السؤال واضحة على اى حـال .

ويبـدو لنـا أن الدلائل تشير فى الوقت الحاضـر الى أن تزايد الانقسام فى السياسة الهندية لا يحـدث بين دعاة التقليد ودعاة التحديث او بين المناطق المحلية المختلفة ، وانما يحدث بين الجماعات الايديولوجية ذات الطابع الحديث . حقيقة أن التطـور الايديولوجى قـد تشوه وتعطل من خلال سيطرة حزب المؤتمر الذى يجمع تحت رايته عـددا متنوعا من الآراء السياسية والاجتماعيـة ؛ غير انه ظهـر خـلال السنوات القليلة الماضيـة صـراع عنيف بين المذاهب الفـكرية ، ترتب على نمـو حزب سواتانترا من ناحيـة والحزب الشيوعى من ناحية اخرى . فعنـد قرب

الانتخابات الرابعة فى الهند لم تكن الموضوعات الأساسية التى سيطرت على الحوار السياسى هى الموضوعات الخاصة بالتنمية الاقليمية فى مقابل التنمية القومية ؛ وانما انحصرت هذه الموضوعات فى مشكلات النمو الاقتصادى ، وتوزيع الثروة والدخل ، والتخطيط والمشروعات الحرة . ومن المحتمل ان يؤدى تاثير نمو الأحزاب المعارضة الى مزيد من الوحدة بين الصفوة فى حزب المؤتمر ، والى تطور التنافس بين جماعات الصفوة السياسية التى تتحدد بشكل أدق من خلال أهدافها الاجتماعية والسياسية .

لقد علق أحد المراقبين ذات مرة على مجلس النواب الفرنسى فى الثلاثينات بالقول بأن الاختلاف بين نائبين أحداهما شيوعى والآخر غير شيوعى أقل بكثير من الاختلاف بين اثنين من الشيوعيين أحدهما عضو فى مجلس النواب والآخر ليس عضوا . ويمكن أن تذكر نفس الملاحظة فى سياق الحديث عن «اللوك سبها» Lok Sabha (مجلس الشعب الهندى(*) . فيما يتعلق بالاختلافات المرتبطة بالمنطقة المحلية أو الطائفة بين أعضائه . ويصدق نفس الشىء بالتأكيد على كبار الموظفين فى الجهاز الادارى الهندى ، فالاصول الاجتماعية لهؤلاء تختلف باختلاف المناطق المحلية (بالرغم من أن بعض هذه المناطق تمثل بأكبر مما تستحق) وباختلاف الطائفة (بالرغم من أن سيادة الطوائف العليا ـ بسبب تزايد فرصهم فى التعليم الثانوى والجامعى ـ وبالرغم من وجود بعض الاماكن للطوائف الأخرى)(١٦) . ولكن حدث أن تم الحد من النتائج المفتتة

(*) يتكون البرلمان الهندى من رئيس الجمهورية الذى ينتخب كل خمس سنوات ، ومجلس الولايات (ويطلق عليه راجيا سبها Rajya Sabha) وهو لا يزيد عن ٢٥٠ عضوا يمثلون الولايات ويتم اختيارهم بالانتخاب غير المباشر عن طريق الهيئة التشريعية الخاصة بكل ولاية ، ومجلس الشعب (ويطلق عليه لوك سبها Lok Sabha)ويتكون من ٥٠٠ عضو يتم اختيارهم بالانتخاب المباشر عن طريق الناخبين . ويعتبر مجلس الولايات جمعية دائمة ، يستقيل ثلث أعضائها سنويا لينتخب غيرهم ، أما مجلس الشعب فانه يحل كل خمس سنوات ليعاد انتخابه . المترجم

(١٦) تعتبر المعلومات المتاحة عن الصفوة الادارية أكبر من أى معلومات متاحة عن أى جماعة أخرى . ومن أهم المصادر حول هذا الموضوع :

=

لهذا الاختلاف من خلال وجود بعض العناصر المشتركة : وجـود عـــدد كبير ممن تعلموا فى المدارس العامة ، والتدريب المكثف للمرشحين للقبول فى الاكاديمية القوميــة للادارة ، وروح الجماعة ethos التى تسيطر على صفـوة صغيرة لهـا تراث طويل . فاعضــاء جهاز الادارة الهندى يوزعون على الولايات ، ولــكن ذلك لا يؤدى الى تقسيم الخـدمات وفق خطوط اقليميــة ، وذلك لأن نصف العـدد فى كل ولاية يأتى من خــارج الولاية ، كما أنه يتم انتـداب الموظفين للخدمة لفترات معينة فى الادارة المركزية . وبالرغم من أن جهاز الادارة الهندى له طابــع فيــدرالى الى حد ما ، الا أنه ـ مثله فى ذلك مثـل الاجهزة الكبرى للدولة فى فرنسا أو الطبقة الادارية الخاصة بالخـدمة المهنية فى بريطانيا ـ يشكل صفوة متميزة ومتماسكة وقوية(١٧) .

ولم نذكر شيئا حتى الآن فى هــذا الفصل عن التاثير الحاسم الذى تمارسه الطائفة . وتعتبر المشكلات المرتبطة باهميــة الطائفة والتغيرات التى تخضع لهـا فى الهنــد الحديثة ، مشكلات على درجــة عاليــة من الصعوبة والتعقيد ؛ ولانستطيع فى هذا السياق الا أن نقــدم ـ باختصار شــديد ـ بعض الانطباعات المتصلة بتاثير عضوية الطائفة على تشــكل واستقرار جماعات الصــفوة . من الضرورى أولا أن نفرق بين الطوائف التقليدية (المسماه جاتاى Jati) وهى جماعات محليــة ضيقة النطاق ، وبين الروابط الطائفية الحديثــة التى تسعى الى تعميق الولاءات الطائفية بحيث تجمع فى جماعة واحــدة « هــذه الطوائف (المسماه جاتاى) والتى تكون فئة واحدة بحكم اشتراكها فى اسم واحــد ، ومهنة تقليدية واحدة ، ومكانة مشتركة تقريبا فى نظمها الطائفية المتتالية »(١٨) وتمتد التجمعات

R. K. Trivedi and D. N. Rao, " Regular Recruits to the I. A. S - A Study " Journal of the National Accadmy of Adminstration, Mussaurie, Vol. V., No. 3; a forthcoming study by V. Subramanian; and Morris - Jones; op. cit PP. 121 - 3.

(١٧) ويمكن تقديم ملاحظات شبيهة فيما يتعلق بجهاز الخارجية الهندية .

(١٨) Bailey, op. cit, P. 130.

الطائفية فى المنطقة المحلية او الولاية التى تشترك فى لغة واحدة ، وتمتد فى بعض الاحيان بحيث تغطى الهند برمتها · وتختلف درجة تنظيم هذه التجمعات ودرجة تاثيرها اختلافا ظاهرا فى الاجزاء المختلفة فى الهند ، من جمعية خدمات ناير Nair Service Society القوية والمنظمة تنظيما دقيقا فى ولاية كيرالا Kerala الى رابطة Orissa Oilmen-Vaisys التى ماتزال ـ وفقا لما ذهب اليه بيلى ـ فى مرحلة التكوين وليس لها سوى تاثير سياسى طفيف ·

اما التاثير الذى يمكن ان يمارسه تجمع طائفى على نطاق قومى فقد اتضح من خلال التفسير الذى قدمه راو M. S. A. Rao لرابطة اليادافاس(١٩) Yadavas والتى تضم عددا من الطوائف المتحالفة ـ ادهيرس Adhirs وجوبالس Gopals وجولاس Gollas وغيرها ـ والتى تشترك جميعا فى العمل بالمهن المرتبطة بتربية الابقار وبيع اللبن فى ارجاء الهند المختلفة : وان كانت تدعى ايضا بين اعضائها عددا من اسباط سلالات كانت تحكم فيما مضى · اما رابطة يادافا ماها سابها العامة all-India Yadav. Maha Sabha والتى تشكلت فى عام ١٩٢٤ فقد كانت تنشط بصفة خاصة فى الضغط من اجل تشكيل لواء خاص بها فى الجيش الهندى ، وذهب راو Rao الى ان اعضاء مجلس الشعب الهندى من رابطة يادافا يعملون سويا فى الاشراف على الانشطة الطائفية للرابطة ·

وهناك رابطة قومية اخرى لها نشاط مؤثر هى رابطة مارواريس Marwaris (ورابطة مارواريس العامة all - India Marwari Federation) ولقد اشار سيليج هاريسون S. Harrison ـ فى وصفة للتكتلات الطائفية الجديدة(٢٠) ـ اشار الى الماروارييس والى جماعة الاماويس وغيرهما ·

=

ولقد وصف بلى بوضوح تام الفروق بين الطوائف والتجمعات الطائفية على الصفحات من ١٢٢ ـ ١٣٥ ·

(١٩) M. S. Rao, " Caste and the Indian Aramy " Economic Weekly, Vol. XVI, No. 35, (29 August 1964). PP. 1439 - 43.

(٢٠) Harrison, op. cit, Ch. IV.

ولاحظ بالنسبة لهاتين الجماعتين أنهما قد تحالفتا فى ولاية أوتربراديش Uttar Pradesh مع طائفة جاتس Jats وبعض الطوائف الأخرى لكى تشكل تكتلا مؤثرا ؛ غير أن بول براس Paul Brass قد انتقدا هذا الرأى عندما لاحظ أنه بالرغم من أن التأثير السياسى للطائفة فى منطقة ميربوت Meerut الواقعة فى ولاية اوتربراديش يعتبر تأثيرا قويا الا أن كل الوظائف تقوم فى تركيبها على التعدد الطائفى ؛ وأن تنوع الطوائف « ٠٠ يجعل من المستحيل أن تحصر جماعة سياسية معينة تتوق الى الوصول الى القوة عضويتها فى جماعات بعينها »(٢١)٠ ولقد أوضحت سلسلة من تسع دراسات عن الانتخابات العامة الثالثة نشرت فى مجلة Economic Weekly فى الفترة من يوليو الى سبتمبر ١٩٦٢ ،(٢٢) أوضحت أن تأثير الانتماء الطائفى على الانتخاب يختلف اختلافا بينا من مكان الى اخر ؛ وانه ليس التأثير الوحيد على الاطلاق بل أنه يرتبط بالمصلحة الاقتصادية ، والالتزام الايديولوجى والتعلق بالقيادة الفردية وغير ذلك من العوامل ؛ وأن الانتماء الطائفى لايعد عادة عاملا حاسما ٠

وليس هناك من شك فى أن الولاءات الطائفية قوية فى الكثير من المناطق ، غير أنه من المحتمل أن تظهر بأقصى درجات تأثيرها فى القرى وتصبح أضعف فى التجمعات الطائفية الاكبر النشيطة فى ممارسة السياسة على مستوى الولاية وعلى المستوى القومى ٠ ولا يمكن تأكيد هذه النقطة الا من خلال دراسات مفصلة عن الروابط (التجمعات) الطائفية نفسها وعلاقتها بجماعات الصفوة السياسية فى الولايات أو فى الحكومة المركزية ــ وهى دراسات لم تجر بعد ٠ وبالرغم من أن بعض دارسى السياسة فى الهند يتنبأون بأن تلعب الروابط الطائفية دورا هاما ومتزايدا فى المستقبل القريب ، فانه لا يبدو أنها تلعب دورا

---

(٢١) P. Baras, op. cit., P. 148.

(٢٢) نشرت فى نشرة بعنوان :
The Third General Elections : Studies in Voting Behaviour, Bombay Economic Society.

رئيسيا فى الوقت الحاضر فى انتخاب القادة السياسيين أو فى خلق مظاهر الانقسام السياسى · حقيقة انها ربما تدعم الانقسامات المحلية الى حد معين ، غير أن هذه التجمعات لاتنظم كلها على اساس محلى ، بل أن بعضها ــ كما هو الحال فى رابطة مروارى على سبيل المثال ــ يعارض النزعة الاقليمية ·

وتشارك التجمعات الطائفية ــ طالما ان لها نشاطا سياسيا ــ فى ممارسة السياسة على مستوى الولاية وعلى المستوى القومى ، وربما تستطيع من خلال هذا الطريق ان تؤثر على تركيب الصفوة السياسية واسلوبها السياسى · اما الطوائف التقليدية (المسماه جاتاى) فانها تنشغل اساسا بممارسة السياسة على مستوى القرية ، ومن ثم فانها لا تهمنا فى هذا السياق · ومع ذلك فانه من الجدير بالذكر انه حتى على مستوى السياسة فى القرية حيث يظهر تاثير التنظيم الاجتماعى التقليدى على اشده ، فليس من الواضح تماما عما اذا كانت الولاءات الطائفية تمارس تاثيرا حاسما فى كل الأحوال · فقد اشرف سومجى A. H. Somjee على تحرير سلسلة من الدراسات القروية فى ولاية جوجارات Gujarat اوضحت انه بالرغم من وجود صراع اساسى فى بعض الاحيان بين طائفتى باتيدارس Patidars وبارياس Barias الا ان هذا الصراع يخفف من خلال التعارض الذى يظهر داخل كل صفوة على حدة بين جماعات القرابة او بين الاجيال ، او من خلال تكوين تحالفات بين الطوائف على أساس المصالح الاقتصادية(٢٣) ، كما استخلص اندرية بيتيل Andre Beteille من دراسة على قرية تانجور Tanjore ان القوة السياسية قد انفصلت الى حد ما عن الطائفة ، وأن توازن القوة يتميز بعدم الاستقرار ، وأن هناك « عوامل خلاف الطائفة تلعب دورا هاما فى المحافظة على القوة أو تغييرها يوما بعد يوم »(٢٤) ·

---

(٢٣) A. H. Somjee (ed). **Politics of Perturban Community in India**, (Bombay, 1964).

(٢٤) A. Beteille, **Cast, class and Power : Changing Pattern of stratification in Tanjore Village** (BerKeley 1965) P. 200.

واذا كانت أهمية الطائفة محل شك في المجال السياسي فانها محل شك أكبر فيما يتعلق بجماعات الصفوة الأخرى ـ المديرون والقادة العسكريون والمثقفون ـ وذلك لأن هذه الجماعات تتشكل على أساس التميز الفردي والانجاز الفردي • فهي لاترتبط ـ كما يرتبط القادة السياسيون ـ بتمثيل الجماعات المحلية المختلفة والمصالح المختلفة في المجتمع • ولهذا فان الانقسامات الطائفية لا تلعب سوى دور طفيف في هذه الجماعات • ولقد كانت الخلافات المتصلة بالانتماء المحلي واللغة من أظهر الخلافات بين كبار الموظفين غير ان هذه الخلافات قد تلاشت ـ كما أشرنا من قبل ـ من خلال تزايد معدل الحراك الجغرافي وتأثير المعايير التي خلقتها الجماعة المهنية نفسها • ويبدو أن الولاءات الطائفية ـ التي قد توجد بدرجات متفاوتة بين موظفي الادارة العليا أو صفوة المثقفين ـ قد تضاءلت أن لم تكن قد تلاشت من خلال التزام هذه الجماعات بأهداف عامة • ويساعد على هذه العملية حقيقة أن وظائف المديرين والمثقفين (على الأقل هؤلاء الذين يعملون في الجامعات) تعد وظائف حديثة وذات طابع غربي ، الأمر الذي يجعلها لا تتفق مع تقليدية الطائفة • أما في حالة الجيش فقد قيل أن الفروق الطائفية أكثر ظهورا ، وهي من رواسب الحكم البريطاني بمفهومة عن الاجناس ذات القدرات العسكرية • وحتى لو كان هذا القول صادقا على مستوى الوحدات العسكرية ، فانه من المشكوك فيه ما اذا كان لهذه الخلافات من تأثير على المستويات العليا في التدرج العسكري • فالقادة العسكريون يتلقون تدريبهم ـ مثلهم في ذلك مثل كبار الموظفين ـ وفق اسس غربية ومن المحتمل أن تكون أوجه الشبه بين القادة العسكريين وكبار الموظفين أكثر من أوجه الشبه بين أعضاء هاتين الجماعتين وجماعاتهم الطائفية •

ومن الأمور التي تساعد على تماسك جماعات الصفوة ـ السياسية والمثقفة والادارية والعسكرية ـ اعتماد التوافد الى هذه الجماعات الى حد كبير على حيازه الملكية ، أو المؤهلات العلمية أو كليهما ويأتي

اعضـاء هـــذه الجمـاعات ـ اساسا ـ من بيئـات تنتمى الى الطبقـة الوسطى ، كما ان لهم خبرات تعليمية مشتركة ، وهم يتعاملون مع بعضهم البعض كطبقة وسطى وكاعضـاء ينتمون الى نفس المهنـة · ومن الممكن ان تفوق هـذه العناصر المشتركة اى خلافات تتعلق بالطائفة او اللغـة ؛ بل ان الادلة تشير ـ خاصة بالنسبة لكبـار الموظفين ـ الى انهـا تتفوق بالفعـل ·

وبامكاننا الآن ان نلخص العناصر التى تحقق الوحـدة او عـدم الوحدة بين جماعات الصفوة فى الهنـد · تتأكد الوحدة من خلال انتماء اعضـاء الصفوة الى الطبقـة الوسطى ، ومن خـلال خبراتهم التعليمية المشتركة ، وبرامج التدريب الخاصة التى يمرون بها ، والتراث المشترك المرتبط بالمهنـة فى حـالة المديرين والقـادة العسكريين والمثقفين · أما بالنسبة للقـادة السياسيين ، فان الخلفيات التعليميـة ليست ذات اهمية وانما تتحقق الوحدة أولا وقبـل كل شيء من خـلال أيديولوجية حزب المؤتمر واسلوب تنظميه والأفضليـة التى يتمتع بهـا ، وكذلك الذكريات التى يحملهـا عن دوره فى حركة الاستقلال · أما عن العوامل التى تسبب الخـلاف فهى تلك العوامل المتصلة بالاقليـم واللغـة وجمـاعة القرابة والعصبة والطائفة والايديولوجية · ولا تحتل هـــذه الاشياء ـ نسبيا ـ اهمية فى الوقت الحاضر بالنسبة للصفوة الادارية والصفوة العسكرية · امـا بين جمـاعة المثقفين فان هنـــاك بعض الانقسامات الناتجـة عن الاختلاف فى الانتمـاء الاقليمى وعن الاختلاف بين دعاة التجديد ودعاة التقليد ، غير أن هذه الانقسامات ليست حادة على أى حال ·

اما القـادة السياسيون فانهم ينقسمون وفق خطوط مختلفة ـ هى تلك المرتبطـة بالطائفـة والانتمـاء الاقليمى وجمـاعة القرابة والمذهب الاجتماعى (التقليدى فى مقابل الحديث والمحافظ فى مقابل الراديكالى) ـ غير أن حكم حزب المؤتمر للهند طيلة عقـدين عصيبين لم يتعرض خلالهما سوى لنكسات جزئية يعد مؤشرا على أن قوى الوحـدة ماتزال منتشرة

---

(٢٥) انظر مقال روا Roa السابق الاشارة اليه ·

حتى الآن والحقيقـة أن وجـود خطـوط عديدة للانقسام تتقاطع بعضها مع البعض الآخـر هو الذى يفسر ـ جزئيـا ـ وجـود قدر من التماسك فى الصفوة السياسية • فقـد يتحالف أحـد أعضاء الصفوة فى مناسبة معينـة مع طائفتـه ، ويتحالف فى مناسبة أخرى مع أعضـاء جماعتـه المحلية ، وفى مناسبة ثالثـة مع عصبته السياسية أو مع جماعة تتقارب فلسفتها الاجتماعية من فلسفته ؛ ويعمل هـذا التنوع فى مظاهر التحالف والمجتمع السياسى على التقليـل من امكانيـة حـدوث شقاق أسـاسى لا رجعة فيـه • ومايزال هناك عامل آخـر ينمى الآن من مظاهر الوحدة بين الصـفوة السياسيـة ، ونعنى به ظهـور أحزاب معارضة قوية على مسـتوى الهنـد كلها • وقـد أوضحت دراسـات عديدة كيف أن حزب المؤتمر قادر على التغلب على الخلافات الحزبية عنـدما تتحـداه أى جماعات سياسية معـادية ، وعلى الحزب أن يقلل فى الانتخابات العـامة الرابعة ـ وبشكل أكثر تكثيفا ـ من معارضة حزب سواتانترا والحزب الشيوعى •

ومن المحتمل جـدا أن تأخذ الصراعات داخل المجتمع الهندى فى العقـد القـادم طابعا ايديولوجيا ، وتصبح أكثر قربا من الصـراعات الموجودة فى الامم الحديثة الأخرى • وسوف تزيد الانقسامات الطائفية والاقليمية من درجة تعقد هذه الصراعات ، غير أننـا لا نعتقـد أن تلعب هـذه الانقسامات دورا حاسـما • ومن المحتمـل أن تكون أهم المسائل جميعـا فى المستقبل هى تلك المتعلقـة بأى من جماعات الصفوة ، أو أى توليفـة منهـا ـ الأحزاب السياسية ، الموظفون ، القـادة العسكريون ، المثقفون وأى جمـاعات تظهـر ـ سـتكون قادرة على تأسيس نفسهـا كطبقة حاكمة ؛ ويعتمد هـذا أولا وقبل كل شىء على قدرة صفوة معينـة على أن تؤكد التنمية الاقتصادية للهنـد وعلى أن تعبر بكفاءة عن تطلعات الجماهير العريضـة من الشعب • ومايزال حزب المؤتمر يتمتع بتفـوق واضح فى هـذا الصدد ، ذلك لأنه دفع التقـدم الاقتصـادى ووجهه فى العقدين الماضيين ، وأخذ زمام المبادرة ـ من خلال مخطط بانشاياتى راج Panchayati Raj ـ فى نشر أصيل للحكم الديموقراطى الأمر الذى جعله أكثر احتكاكا بالجماهير •

الباب الثالث

الحركات الاجتماعية والعمل السياسى

الفصل الحادى عشر : الصراع والتغير الاجتماعى ٠

الفصل الثانى عشر : الاطار السياسى للتكنولوجيا ٠

الفصل الثالث عشر : تأملات فى الحركة الطلابية ٠

الفصل الرابع عشر : مستقبل الراديكالية ٠

الفصل الحادي عشر

الصراع والتغير الاجتماعي (١)

ان صياغة نظرية سوسيولوجية تتناول الصراع مازالت تمثل هدفا بعيد المنال • ولقد اشار عدد من الدارسين الى قلة الاهتمام بهذا الموضوع منذ مطلع هذا القرن وحتى العقد الماضي • فعلى سبيل المثال نجد لويس كوزر Coser في مقدمة كتابه « وظائف الصراع الاجتماعي »(٢) The Functions of Social Conflit يذهب الى انه برغم اهتمام علماء الاجتماع الأمريكيين الأوائل (وعلى الأخص سمول Small وكولى Cooley) بقضية الصراع الاجتماعي ، الا ان علماء الاجتماع المحدثين الذين كتبوا خلال خمسينيات القرن العشرين لم يولوا هذه القضية اهتماما يذكر ؛ بل انهم حينما اضطروا لمناقشة الصراع نظروا اليه على انه ظاهرة مرتبطة دائما بالتفكك الاجتماعي • والواقع ان ذلك يتسق ـ الى حد كبير ـ مع التصور الوظيفي الشائع عن طبيعة المجتمعات الانسانية • ولقد اشار عالم آخر هو الاستير بوكان Buchan في معرض مناقشته للصراعات الدولية الى ان « دراسة الحرب والسلام لم تنل حتى وقت قريب الا اهتماما محدودا ، خاصة اذا ما قورنت بدراسة المشكلات الاقتصادية ••• وانتا مازلنا نفتقد حتى الآن نظرية شاملة في هذا المجال برغم المبررات القوية التي تدافع عن هذا الموقف ••• »(٣) •

لكن ذلك لايعني بطبيعة الحال انعدام الاهتمام بظواهر الصراع

(١) Reprinted from John C. McKinney and Edward A. Tiryakian (eds), Theoretical Sociology (New York, 1970)

(٢) (New York, 1956).

(٣) Wars in Modern Society :-An Introduction (London, 1966), P. XII.

الاجتماعى وعلى الأخص خلال الفترة اللاحقة على ظهور الدراسات الهامة التى قام بها مؤسسو علم الاجتماع الكلاسيكيون خلال القرن التاسع عشر . فلقد عالجت الماركسية ــ التى تعد النظرية الاجتماعية الأساسية خلال القرن الأخير ــ الصراع وعلى الأخص الصراع الطبقى بوصفه خاصية اساسية تميز المجتمع الانسانى . وبرغم ذلك فان الدراسة الفعلية للصراع الاجتماعى لم تتقدم كثيرا ، كما أن البحوث التى تناولت مختلف صور الصراع الطبقى ، فضلا عن الحربين العالميتين ، ماتزال محدودة للغاية . والواقع أنه منذ منتصف خمسينيات هذا القرن بدأ العلماء الاجتماعيون يكتشفون ــ وبشكل جدى ــ أهمية الصراع . ان ذلك يمثل اهتماما متأخرا نسبيا بالطابع الذى يميز القرن العشرين . ففيه نشبت الحربان العالميتان ، واشتدت المواجهة الايديولوجية ، وظهرت الى حيز الوجود ديكتاتوريات قوية وحركات ثورية وحروب قومية ، فضلا عن امتلاك وسائل التدمير الجماعى من خلال الحرب النووية . وهكذا بدأ بعض علماء الاجتماع يتحولون عن النظرة الجزئية للمجتمعات بوصفها بناءات على قدر كبير من التجانس والتكامل لاتصيبها الا انحرافات ضئيلة ومحددة ، ليتبنوا نظرة أكثر اكتمالا تقوم على وجود تعايش بين العناصر المحدثة للتكامل وتلك المؤدية الى التفكك كوسيلة لفهم التطورات التاريخية التى تمر بها المجتمعات والعلاقات التى تنشأ بينها . والواقع أن هذه النظرة الأخيرة تقترب الى حد كبير من تلك التى أشار اليها زيمل Simmel قبل أكثر من نصف قرن من الزمان حين قال : « لاتوجد وحدة اجتماعية تنعزل فيها التيارات التى تعمل على تماسك الأفراد عن تلك التى تؤدى الى تباعدهم . ان تصور وجود جماعة جاذبة متجانسة تماما هو تصور بعيد عن الواقع ، كما أنه لا يعبر عن طبيعة الحياة الاجتماعية ... ولكى يكتسب المجتمع أيضا طابعه المميز ، فانه بحاجة الى توافر قدر من الانسجام والتنافر ، والتقارب والتباعد ، والتأييد والرفض »(٤) .

---

(٤) From Georg Simmel's essay Der Streit, First published as Chapter 4 of his Soziologie (Leipzig, 1908).

=

بيد أن هذا الاعتراف بالأهمية الاجتماعية للصــراع ليس كافيا من وجهة نظر علم الاجتماع · ان أى انسان يعيش فترة ستنيات هــذا القرن يستطيع أن يدرك ـ بشكل مباشر أو من خلال وسائل الاتصال الجماهيرى ـ وجود صور مختلفة من الكفاح المسلح فى اسيا وافريقيا اللاتينية ، واشكال مختلفة من تمرد الزنوج داخل المدن الأمريكية ، فضــلا عن الاضرابات والاحتجاجات التى يعبر عنهــا الطلبة فى دول مختلفة · ان مثــل هذه الظواهر جــديرة بأن تلفت نظر الانســـان العــادى (وكذلك العـــالم الاجتماعى) الى اهميــة الصراع والدور الذى يلعبــه فى تشكيل الواقع الاجتمــاعى · ومن الطبيعى أن نتوقع من العالم الاجتمــاعى شيئا يفوق مجرد اقرار الحقائق القائمة · فماذا نتوقع من عالم الاجتمــاع ـ بصفة خاصة ـ القيام به فى هــذا المجال ؟ لا شك اننا نتوقع منه الكثير ؛ ونعنى بذلك الاهتمــام بالمشكلات الأساسية للنظرية السوسيولوجية التى تتناول الصراع · ومن بين هــذه المشــكلات تسجيل مختلف اشكال الصراع ، وتحديد معدلات نشوب الصراع ومــداه ، واكتشاف نمــط التوازن بين الانقسام والصراع من ناحيــة والتكامل والانسجام من ناحية اخــرى ، ودراسة اســباب الصــــراع (وتتبع الدور الذى يمكن أن تلعبــه العوامل الاجتماعيــة والسيكولوجية والبيولوجية فى هـــذا المجــال) ، واخيرا النتائج المترتبة على الصراع ·

انمــاط الصراع

اهتم علمــاء الاجتماع خــلال القرن التاسع عشر بمناقشة بعض المشكلات السابقة ، كما نلمس اهتماما حديثا بها خلال السنوات الأخيرة، ولنتناول اولا ما اسهم به العلماء الأوائل من افكار يمكن أن تشكل بدايات

ويلاحظ ان اقتباسنا هنا وكذلك اقتباساتنا التالية تعتمد على الترجمة الانجليزية التى قام بها كورت وولف Wolff تحت عنوان « الصراع » Conflict ، نيويورك ، ١٩٥٥ · هذا وقد قام البيون سمول Small بنشر ترجمة بعض اجزاء كتاب زيمل فى المجلة الدولية لعلم الاجتماع American Journal of Sociology (1904) · ولقد اهتم سمول اهتماما كبيرا بمشكلة الصراع وتأثر فى ذلك ـ وبشكل مباشر ـ بنظريات ماركس Marx وجمبلوفتش Gumplowicz وزيمل Simmel

نظرية اجتماعية فى الصراع فمن الملاحظ ان بعض هؤلاء العلماء قد فرقوا ـ وبطريقة رسمية ـ بين أنماط الصراع ، وان كنا نجد تأكيداً على التفرقة بين الصراع الدولى (الحروب بين الأمم او الامبراطوريات او الجماعات القبلية) والصراع الداخلى (الكفاح الثورى والحروب الأهلية) اما الأهمية النسبية لهذين النمطين من الصراع فقد خضعت لوجهات نظر مختلفة • فعلى سبيل المثال نجد كونت Comte وسبنسر Spencer قد اهتما اهتماما كبيرا بالصراعات الدولية (وعلى الأخص بين ما يسمى بالمجتمعات العسكرية والصناعية) ، كما نجد بعد ذلك مناقشات هامة لدور هذه الصراعات فى كتابات كل من جمبلوفتش Gumplowicz واوبنهايمر Oppenheimer اما ماركس فقد ابرز اهمية الصراع الداخلى (أى الصراع الطبقى) بحيث لاتتضمن نظريته الاجتماعية ؛ اشارات تذكر للدور الذى يلعبه الصراع الدولى • بيد أن هناك محاولات ماركسية لاحقة سعت الى اقامة نظرية فى الامبريالية والحرب تمثلها كتابات لينين Lenin وهيلفردنج Hilferding وروزا لوكسمبورج Rosa Luxemburg واخرون ومع ذلك فان الطابع الأساسى الذى يميز هذه الكتابات هو تأكيدها للصراع بين الطبقات •

وعلى الرغم من اهمية التفرقة بين الصراع الداخلى والخارجى ، الا أن ذلك لا يعد أمرا كافيا(٥) • اذ ان هناك فروقا فى مدى شدة الصراع ومدى اعتماده على التهديد باستخدام القوة وغير ذلك من مظاهر نوعية • ولقد فرق زيمل Simmel بين الصراع والمنافسة ، ذاهبا الى أن الأخيرة (أى المنافسة) تمثل شكلا غير مباشر للصراع حيث يقول : « نستخدم مصطلح الصراع للاشارة الى تلك الجهود المتوازية التى قد يبذلها طرفان متنافسان للحصول على شىء واحد »(٦) الا ان زيمل Simmel قد حاول بعد ذلك تحديد بعض الملامح المميزة للمنافسة وعلى

---

(٥) ويمكن ان نعمم ذلك على كل الجماعات الاجتماعية ، وبالتالى يمكن التمييز بين الصراعات الداخلية والصراعات الخارجية التى تنشأ داخل الجماعات او بينها • ولقد استخدم كوزر Coser هذه المصطلحات فى مناقشته • انظر كتابه السالف الاشارة اليه •

(٦) مقتبس من الفصل الثانى من كتاب « الصراع » صص ٥٧ ـ ٨٦ •

الأخص تلك التي لا تحدد نتيجتها الهدف النهائي ، بحيث أن كل متنافس يسعى الى تحقيق الهدف دون استخدام قوته او البدء بابراز العداوة . وفي اطار الصراع المباشر (الداخلي والعالمي على السواء) تظهر اساليب مختلفة تبدأ بالتأثير الفكري ، وتوسيع الدعاية ، وممارسة الضغوط الاقتصادية والسياسية لتنتهي باللجوء الى العنف والتدخل المسلح . ويعد الصراع الصناعي احد السمات المميزة للمجتمعات الحديثة ، كما انه يتميز بخصائص معينة . ففي بداية مرحلة التصنيع في المجتمعات الغربية ، كان الصراع الصناعي يحدث على فترات مختلفة كما انه كان عنيفاً في معظم الأحيان (وعلى الأخص في الولايات المتحدة الأمريكية) . اما في المجتمعات الصناعية المتقدمة الآن فان مثل هذا الصراع قد أصبح اكثر حدوثا وادق تنظيما لكنه اقل ميلا للعنف . ولم يعد الصراع الصناعي الحديث مقصورا على أمور صناعية او اقتصادية خالصة بسبب تعقد الحياة الاجتماعية المعاصرة . ولقد اشارت نظرية ماركس الى أن مدى الصراع الصناعي قد يتسع ليشمل المجال السياسي بما في ذلك تكوين طبقة عاملة ثورية . وعلى الرغم من أن مجرى الأحداث الفعلية لم يؤيد بدقة تنبؤات ماركس (وخاصة فيما يتعلق بنمو الحركة الثورية) ، الا انه قد اتاح الفرصة لاثارة تساؤلات تتعلق بمدى الصراع الصناعي وطابعه المميز . فمن الواضح الآن أن التهديد باستخدام القوة لم يعد بعيدا عن اى صراع صناعي خطير حتى ولو تم ذلك في ظروف تتميز بقدر كبير من السلام الاجتماعي .

ان هذه المحاولات الرامية الى تصنيف صور الصراع الاجتماعي تهدف في نهاية الأمر الى تيسير دراسة هذه المشكلة واخضاعها للبحث الدقيق . ومن الطبيعي أن تفترض هذه المحاولات وجود خصائص عامة تميز كل اشكال الصراع الاجتماعي وتربط فيما بينها . أن الصراع قد ينشأ نتيجة لوجود عنصر مشترك يميز الطبيعة الانسانية كما أشار زيمل Simmel حين قال : « من المستحيل انكار وجود غريزة القتال التي تتخذ باستمرار وجودا سابقا »(٧) . ولقد اشار الى هذه النقطة

---

(٧) Simmel, op. cit; P. 29.

عدد من العلماء المعاصرين الذين سنتناولهم فى مواضع لاحقة · ويمكن القول ان هناك خصائص عامة تميز البناءات الاجتمـــاعية وتؤدى ـ بالضرورة ـ الى حدوث الصراع · ولسوف انتقل على الفور لمناقشة هذه القضايا ·

قيـــاس الصراع

لعل التصنيف الأولى الذى ناقشناه قبل قليل يمكننا من الانتقـال الى مرحلة متقدمة من الدراسة النظرية ؛ واعنى بها الكشف عن مـــدى انتظام الصراع الاجتماعى فضلا عن شدته ودوامه · ويتطلب ذلك وجود قدر كبير من الشواهد التاريخية الكمية المتعلقة بمختلف انماط الصراع · والمشكلة التى تواجهنا فى هذا المجال هى ان الدراسات التى تعنينـــا ما تزال قليلة ومتناثرة · ولقد اشرنا من قبل الى ان الحرب والصراع الصناعى يمثلان اهم اشكال الصراع على الأقل من وجهة نظرنا الخاصة · ومن بين الرعيل الأول من علماء الاجتماع نجد كونت Comte وسبنسر Spencer يناقشان اهمية الحرب · بيد ان النتائج التى توصلا اليها لم تستند الى مقارنات كمية خاصة عندما ابرزا الدور التدميرى الذى تؤديه الحروب بالنسبة للمجتمعات الصناعية · ويمكننا توجيه انتقادات مماثلة الى معظم الدراسات السوسيولوجية التى تناولت الحرب · ومن اقدم الدراسات الشاملة التى تناولت معدلات نشوب الحروب خـلال الفترات المختلفة تلك التى ضمنها بيتريم سوروكين Sorokin المجـلد الثالث من كتابه « الدنياميات الاجتماعية والثقافية(٨) Social and Cultural Dynamics بيد ان المقاييس التى استخدمها لم تكن دقيقة بما فيه الكفاية مما افقـــد استنتاجاته قدرا كبيرا من الصدق والواقعية · وبعد مرور عدة سنوات · نشر كوينسى رايت Wright دراسة تاريخية شاملة عن الحرب تحت عنوان « دراسة فى الحرب » A Study of War (٩) تضمنت قدرا كبيرا من البيانات الكمية · اما اكثر الدراسات الكمية دقة وصدقا فهى تلك التى

---

(٨) (Cincinnatai, 1937).

(٩) (Chicago, 1942), 2nd ed., 1965.

قام بها ريتشاردسون Richardson ونشرها تحت عنوان « احصـــاء النزاعات المميتة »(١٠) ، وهى دراسة تضم كمية هائلة من البيانات ، برغم أنها تغطى فترة محدودة (فيمـــا بين سنتى ١٨٢٠ و ١٩٤٩) . وفضلا عن ذلك فالدراسة تحاول الكشف عن مصاحبات الحروب ؛ أى الأحداث الاجتماعية الأخرى التى ارتبطت بنشوبها . وعلى الرغم من ان الدراسة لم تتوصل الى وجود ارتباطات موجبة ذات دلالة ، الا انها اثارت الشكوك فى بعض التعميمات السطحية التى تتناول اسباب الحـــروب وظروف السلام وان كانت ـ مع ذلك ـ قد توصلت الى ان القرن العشرين يشهد انخفاضا فى معدل نشوب الحروب مقارنا بمعدل زيادة السـكان . ولا شك ان اجراء مثل هذه الدراسات على فترات تاريخية اخرى سيمكننا من التعرف على التحولات البعيدة المدى التى تطرأ على الحروب .

اما دراسات الصراع فى المجال الصناعى فهى أيضا مخيبة للآمال وعلى الأخص فى مجال المقارنات الكمية الدقيقة ، وذلك على الرغم من ان كثيرا من الدول تنشر الآن احصاءات تتضمن معدلات حدوث الصراع الصناعى فضلا عن شدته ودوامه . وربما كانت اكثر الدراسات دقة فى هذا المجال تلك التى قام بها نويلز Knowles ونشرها تحت عنـوان : « الاضرابات : دراسة فى الصراع الصناعى »(١١) Strikes A Study of Industrial Conflict ، وهى دراسة تتناول المملكة المتحدة فيما بين سنتى ١٩١١ و ١٩٤٥ وتحاول ربط الاضرابات بالظواهر الاجتماعية الأخرى . والواقع أننا لا نجد دراسة مشابهة لدراسة نويلز Knowles فى الدول الصناعية الاخرى ، كما أن المحاولات التى تهدف الى المقارنة بين الدول أو بين الفترات التاريخية لا تزال قليلة للغاية . وفى هـــذا المجـــال نجـــد دراستين موجزتين : الأولى قام بهـــا كلارك كير Kerr وابراهـــام سيجـــل Siegel ونشرت تحت عنوان « الميل الى الاضراب

---

(١٠) (Pittsburg, 1960).

(١١) (New York, 1952).

داخل الصناعة : مقارنة دولية »(١٢) ، والثـــانية اجراها آرثر روس Ross وبول هارتمان Hartman وتناولت « الأنماط المتغيرة للصراع الصناعى »(١٣) • وتتضمن هاتان الدراستان بيانات كميـــة يمكن أن تشكل أساسا لعقــد مقارنات بين الدول الغربيــة فيما يتعلق بالصراع الصناعى • وتحــاول الدراســـة الأولى التعرف على مبررات وجـــود الاستعداد للاضرابات فى بعض الصناعات ، وتلك نقطة ناقشهـــا نويلز Knowles فى دراسته السالفة الذكر • أما الدراسة الثانية فتميز بين مختلف أنماط الاضراب الذى تقوم به جماعات مختلفة ، فضلا عن الاتجاهات البعيدة المدىلهذه الظاهرة •ولقد توصلالدارسان الى أن ثمة ميلا لانخفاض معدلات الاضراب ، كما سجلا تغيرا طرأ على طابعه يتمثل فى اللجوء الى الاجتماع المتقطع بدلا من تطوير أساليب المساومة ، وتلك نقطة تمثـــل تغيرا فعليا قصير المدى •

وحينما ننظر الى الصعوبات التى تنشأ عند قياس بعض الظـــواهر كالحروب والاضرابات (برغم انها قد تبدو خاضعة للتعريف والقياس) ، ثم نجد أن الدراسات التى تناولت هذه الظواهر ما تزال قليلة للغـــاية ، حينئذ لن نندهش كثيرا اذا ما اكتشفنا أن الأنماط الأخرى من الصـــراع الاجتماعى ما تزال مستعصية على التحليل السوسيولوجى • ويمكننا أن نثير فى هذا المجال عددا من التساؤلات • كيف يمكننا قياس مدى الصراع الطبقى فى المجتمع ؟ كيف نستطيع تحديد درجة المنافسة داخل المجتمع وقياس تقلباتهـــا عبر الزمن ؟ كيف نتعرف على التوازن بين القـــوى المؤدية الى التوازن وتلك المفضية الى الصراع داخل مجتمعات بعينها ؟ كيف نتمكن من عقد مقارنات بين مجتمعات فى هذا المجال ؟ واخيرا كيف يمكن الربط بين هذه الظواهر وغيرها من الأحداث الاجتماعية ؟ الواقع اننا لا نجد اجابات واضحة على هذه التساؤلات • واقصى ما يمكن قوله

---

(١٢) C. Kerr; A. Siegel " The Interindustry Propensity to Strike : An International Comparison "; in Arthur Kornhauser, Robert Dubin, and Arthur M. Ross : Industrial Conflict (New York, 1954),PP. 189 — 212.

(١٣) Arthur M. Ross and PaulT. Hartman, Changing Patterns of Industrial Conflict, (New York, 1960).

هو أنه فى حالات عديدة يجب الاعتماد على مجموعة من المقاييس غير المباشرة واستخدام مصطلحات غير دقيقة مثل « اكثر » « وأقل » • ففى دراسة الصراع الطبقى ـ مثلا ـ من المهم أن ناخذ فى الاعتبـــار بعض العوامل الهامة مثل تكوين نقابات العمال ، واتحادات أصحاب العمـل ، ومدى حدوث الصراع بأشكاله المختلفة وعلى الأخص العنف ، والتعبير عن الاتجاهات في شكل منشورات أو صحف أو وسائل اتصال جماهيرى، وظهور الحركات السياسية ، وصياغة مذاهب سياسية متصارعة • ومن الممكن قياس بعض هذه الظواهر بدرجة كبيرة من الدقة ، بينما لا نستطيع تحقيق ذلك بالنسبة للبعض الآخر • ومع أن بعض هذه الصعوبات قـد يعود الى المشكلات النظرية التى يمكن أن تواجهنا عند دراسة ظـواهر كالطبقة والايديولوجية ، الا اننى اعتقد أن بالامكان عقـــد مقارنات بين مجتمعات مختلفة وفترات زمنية متباينة ، حينما نستطيــع تحـــديد كل المحكات اللازمة لذلك • واذا لم يتحقق ذلك ، فاننا سنضطر الى التسليمبأن نظريات الصراع لا يمكن اخضاعها للاختبار شأنها فى ذلك شأن النظريات الوظيفية (أو العضوية ان شئنا تعبيرا آخر) •

اسباب الصراع

ان عدم القدرة على تحديد انماط حدوث مختلف أشكال الصراع لم يحل دون ظهور نظريات تزعم امكانية تقديم تفسيرات سببية للصراع (وعلى الأخص الحرب) وذلك بربطه بظواهر اخرى • ففى حالة الحرب ـ مثلا ـ يمكن دراسة تاثير الامبريالية ، وزيادة عدد الســكان ، والخصــائص القومية • والواقع أن مثل هذه النظريات لم تحقق نجاحا يذكر ، وان كنا لا نستطيع استبعاد فكرة التفسير السببى ذاتها • واذا ما نحينا جانبــا فكرة البحث النظرى المنظم لأشكال الصراع وتقلباته ، يتبقى لنا اتجاهان اشرنا اليهما من قبل ، لكنهما ما يزالان بحاجة الى الدراسة •

اما الاتجاه الأول فيبحث عن اســباب الصراع داخـــل الطبيعة الانسانية ؛ أى انه يفتش عما أطلق عليه زيمــــل Simmel « غريزة القتال » • وفى خطابات متبـــادلة بين اينشتاين Einstein وفرويد Freud حول كيفية منع الحرب ، نجد الأخير يؤكد وجــــود غريزة

تدميرية أو عدوانية لدى الكائنات البشرية ، عزيزة لا يمكن كبحها ، على الرغم من انها تواجه دائما عزيزة أخرى هى عزيزة التعاطف او الحب(١٤) وتميل الدراسات البيولوجية والانثروبولوجية الحديثة الى تأييد فكرة وجود غريزة العدوان التى تنجم عن عملية الانتخاب الطبيعى ، تلك العملية التى تنتشر بين الفقاريات Vertebrates ، كما توجد لدى الرئيسيات Primates بما فى ذلك الانسان · ويذهب وشببرن Washburn الى أن الناس « يرثون الجانب البيولوجى من العدوان » ، وانه ينمو بفضل العادات والتقاليد · وفى ظل عالمنا الحديث المزدحم الذى يخضع للسيطرة الانسانية ، فان الرجل ـ على وجه الخصوص ـ يسعى الى تحقيق السيطرة ومن ثم العدوان(١٥) · وبالمثل نجد كونراد لورنز Lorenz فى كتابه له بعنوان « فى العدوان » On Aggression ينظر الى العدوان على انه يمثل « خاصية القتال لدى الحيوان والانسان على السواء ، ذلك القتال الذى ينشب بين أفراد الفصيلة الواحدة » ، ويترتب عليه اعادة تقسيم المناطق ، والانتخاب الجنسى ، واقامة نظام للمراتب والمكانات الاجتماعية ·

ومن الواضح أننا لا نستطيع تفسير الصراعات الفعلية تفسيرا كاملا فى ضوء الأفكار السابقة · ان اقامة نظرية تحاول تفسير غريزة العدوان لا يعنى أنها (أى النظرية) قادرة على تفسير دورات الصراع أو ظروف السلام ؛ أى الحالة التى يختفى فيها الصراع · وكل ما يمكن ان تفعله

---

(١٤) نشر خطاب فرويد فى أعمال المعهد الدولى للتعاون الفكرى التابع لعصبة الأمم · ثم أعيد نشره فى كتاب فرويد Collected Papers (1959) · وأيضا فى كتاب برامسون Bramson وجوثالس Goethals بعنوان : الحرب : دراسات فى علم النفس وعلم الاجتماع والأنثربولوجيا
War : Studies from Psychology, Sociology, Anthropology (New York, 1964). · ويضم الكتاب الأخير أهم الكتابات التى تناولت الحرب وعلى الأخص كتابات دى توكفيل De Tocqueville ووليام جيمس James وسمنر Sumner وبارك Park وسبنسر Spencer ومالينوفسكى Malinowski وفرويد Freud وريمون آرون Aron وآخرين ·

(١٥) S. L. Washburn, " Conflict in Primate Society ", in Anthony de Reuck and Julie Knight (eds), Conflict in Society (London, 1966), PP. 11 - 12.

مثـل هـذه النظرية هو لفت الانظـار للاستعداد الكامن للقيـام بسلوك عدوانى ، وابراز أهمية الأساس البيولوجى لمثل هذا الاستعداد . فلكى نفسر الصراعات الفعلية ، علينا أن نحدد ـ بالاضافة الى هـذا الشرط العام المتمثل فى الغريزة ـ أسبابا اكثر نوعية وخصوصية . ويمكن تحقيق ذلك اذا ما تبينا نظرية « المصـالح » interests . فالصراع ينشـأ حينما تتعرض منطقة معينـة لغزو خارجى ، او يتعرض الصغار لتهديد اجنبى ، أو يواجه نظام المكانة تحـديات معينة (ومن الملاحظ ان النقطة الأخيرة تقترب الى حد كبير من النظرية الماركسية فى الصراع الطبقى) . وفى المجتمعات الانسانية نجد المصالح ذات الطابع البيولوجى تكتسب فى مرحلة لاحقة اهمية اجتماعية ، وتلك نقطة اكدها لورنز Lorenz حينما استخدم مصطلح « الحماس العسكرى » لوصف الصورة الانسانية للعدوان البيولوجى فى ضوء المصالح .

وتدفعنا هذه الاعتبارات الى مناقشة الأبعاد السوسيولوجية لمشكلة العدوان . فلو افترضنا وجود الاستعداد للعدوان ، فهل نستطيع ـ حينئذ ـ تفسير الصراعات الفعلية باستخدام نظرية المصالح ـ او تضارب المصالح ان شئنا الدقة ـ فى ضوء التصورات الماركسية عموما ؟ . الواقع أن نظرية ماركس تتميز عموما بقـدرة تفسيرية اصيلة . فتصوره لعمومية الصراع الطبقى يمثل فى حقيقة الأمر نموذجا عاما . أما الجانب الأكثر اهمية فى نظريته فهو ذلك الذى يتناول الطبقات فى المجتمع الصـناعى ، والذى يؤكد ان التباعد المتزايد بين مصالح البرجوازية ومصالح البروليتاريا (مع نمو وعى متزايد بهذا التباعد) سوف يؤدى الى زيادة الصراع بين الطرفين . ولنفترض هنا انه قد أمكن دحض وجهة نظر ماركس ، واستطاع البعض البرهنة على أن الصراع الطبقى قد اختفى من المجتمعات الصناعية المتقدمة (وهو ما يعتقده كثير من علماء الاجتماع) برغم عـدم توافر مقاييس دقيقة للحكم على مدى الصراع الطبقى ؛ اذا ما افترضنا ذلك كله فان علينا الآن تفسير اختفاء الصراع الطبقى فى ضوء القضية الذاهبة الى ان تباعد المصالح لا يرتبط ارتباطا وثيقا بالصراع ، او أن تبـاعد مصالح الطبقات قد قل الى حد كبير ، او أن هناك عاملا آخر قد أثر على

درجة الصراع . وربما أشرنا فى هذا المجال الى دراستنا الوصفية التى تناولنا فيها الدور الذى تلعبه القومية فى تخفيف حدة الصراع الداخلى(١٦) كذلك نجد رالف دارندورف Dahrendorf يقدم وجهة نظر معارضة لنظرية ماركس(١٧) ، ذاهبا الى ان شدة الصراع الطبقى فى المجتمعات الراسمالية خلال القرن التاسع عشر تعود الى سيطرة الصراع السياسى على الصراع الصناعى . « اذ أن طرفى الصناعة وهما : راس المال والعمل قد واجها بعضهما مرة اخرى ، ولكن فى شكل برجوازية وبروليتارية . ولقد تمت هذه المواجهة فى الميدان السياسى ... »(١٨) ويذهب دارندورف الى ان « مجتمعات ما بعد الراسمالية » تشهد انفصالا بين الصراعات الصناعية والصراعات السياسية ؛ ذلك ان الصراع بصورة المختلفة قد اخذ يتقاطع تقاطعا عرضيا مع مختلف النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية(١٩) وانطلاقا من هذا النقد لنظرية ماركس يشرع دارندورف فى صياغة نظرية فى الصراع اكثر شمولا ؛ نظرية تنهض على قضية مؤداها ؛ ان الصراع يمثل عنصرا ضروريا فى كل التنظيمات القائمة على الارتباط الملزم(٢٠) . واذا كان صحيحا ان هذه التنظيمات القائمة على الارتباط الملزم تعد احد الملامح الأساسية للمجتمع الانسانى ، فسيترتب على ذلك ان الصراع يعد ضرورة عامة . والواقع ان هذا النموذج النظرى ـ الذى لا يشير بطبيعة الحال الى الصراع بين المجتمعات ـ يعبر عن النظرية البيولوجية للعدوان ، وذلك حينما يؤكد حدوث الصراع الداخلى عموما دون ان يقدم تفسيرا لشدة الصراع ونطاقه وتكراره . ولكى

---

(١٦) In: Classes in Modern Society (New York, 1966; and London, (1965).

ويلاحظ ان وجهة نظرنا هذه تنطلق من تحليل زيمل Simmel لاثار الصراع الخارجى على التماسك الداخلى للجماعة الاجتماعية .

(١٧) See Class and Class Conflict in Industrial Societies (Stanford, 1959).

(١٨) Ibid; P. 268.

(١٩) يعكس ذلك ـ وفى اطار خاص ـ ملاحظة زيمل التى طورها من بعده كوزر Coser فى مؤلفه « وظائف الصراع الاجتماعى » ، وهى ان تقاطع الصراعات قد يحول دون تفكك الجماعة من خلال نمط رئيسى من الانقسام .

(٢٠) « ... ان توزيع السلطة فى الهيئات والروابط هى « الشرط » النهائى لتكوين جماعات متصارعة » Dahrendorf, op. cit; P. 172

نتمكن من معالجة هذه القضايا فاننا ما نزال بحـاجة (بالاضـافة الى الدراسات السوسيوجرافية والاحصائية التى اشرنا اليها من قبل) الى دراسة مدى اختلاف الجماعات فيما يتعلق ببناءاتها (وكذلك نظام العلاقات الدولية الذى يضم مجتمعات بأسرها) ، تلك البناءات التى قد تشـجع على الصراع او تحول دون حدوثه ٠

وتتضمن دراسـة زيمـل Simmel بعض التأملات حول الاختلافات البنائية ، مما شجع بعض الدارسين المعاصرين من امثال كوزر Coser وفان دورن Doorn على تطويرها وتنقيحها(٢١) ٠ فلقد ذهب زيمل الى أن الصراع قد يزداد حدة داخل الجماعات المستندة الى العـلاقات الوثيقة (كجماعات القرابة أو الفرق الدينية) او بين الجماعات التى تعبر عن قضايا اكثر مما تعبر عن مصالح ٠ بيد أن ملاحظات زيمل لا تعدو أن تكون مؤشرات دالة ؛ اذ انها لا تصل الى درجة الاستنتاجات المحققة ٠ ولقد طور كوزر Coser القضايا التى اثارها زيمل وعالجها معـالجة تحليلية ، لكنه لم يحاول صياغة تعميمات تتناول معدلات حدوث الصراع فى ظل الظروف المختلفـة للبناءات الاجتماعية واهدافهـا ٠ وبالمثل نجد فان دورن Doorn متـأثرا بزيمـل ــ يميـز بين التنظيم الذى يأخـذ شكل الائتلاف ، وذلك الذى يستند الى العقيدة او المذهب ، ذاهبا الى أن التوترات التى تطرأ على التنظيم الأخير قـد تؤدى الى صـراع داخلى متطرف ٠ والواقع أن الشواهد الامبيريقية التى تدعم هذه القضية نادرة وسطحية الى حد بعيد ٠ هل نعلم تماما أن شدة الصراع تختلف اختـلافا كبيرا طبقا لنمط التنظيم ، او انها تختلف ايضا باختلاف جماعات المصالح ذات الايديولوجية الواحدة ؟ وهل من الممكن القول أن اختلاف انمـاط الصراع وشدته ترتبط بمدى قوة التنظيمات القائمة على الارتباط الملزم ؟ ان من العسير الاجابة على مثل هذه التساؤلات (حتى ولو سلمنا بصحة

---

(٢١) Coser, op. cit; A. A. Van Doorn, " Conflict in Formal Organisations ", in Conflict in Society, op. cit, PP. 111 - 32.

صياغتها) دون الالمام بالتاريخ الطبيعى للصراع ، وهو أمر لا يزال بعيد المنال ·

نتائج الصراع

ربما كانت دراسة أسباب الصراع أيسر من دراسة نتائجه ، على الرغم من أن الدراستين تواجهان نفس المشكلات والثغرات · ولعل التلخيص الذى قدمه لويس كوزر Coser عن وظائف الصراع الاجتماعى يكشف عن الاتجاه الأساسى فى الدراسات السوسيولوجية « ··· لقد ناقشنا مجموعة القضايا التى لفتت الانتباه لدراسة الظروف المختلفة التى فى ظلها يمكن ان يسهم الصراع الاجتماعى فى المحافظة على العلاقات الاجتماعية والبناء الاجتماعى وما يتطلبه ذلك من تكيف ومواءمه »(٢٢) ويمكن التعبير عن هذه « الوظائف الايجابية » للصراع ـ كما اشار زيمل الى ذلك ـ على النحو التالى : اذا ما ظل الصراع داخل الجماعة محصورا فى نطاق معين ، فانه قد يسهم فى تدعيم وحدة الجماعة : اما بأن يكون (أى الصراع) بمثابة صمام أمن أو بقدرته على اعادة الوحدة داخل الجماعة مرة أخرى أما الصراع بين الجماعات فانه قد يساعد على تعيين حدودها الاقليمية، كما انه قد يدعم النسق الاجتماعى باكمله وذلك من خلال الحفاظ على ميزان القوى بين الجماعات المختلفة ، فضلا عن انه (أى الصراع) يسهم فى تقوية الوحدة الداخلية بين الجماعات المتصارعة · ولقد اشار زيمل ـ على وجه الخصوص ـ الى الطريقة التى من خلالها تأسست الدول المركزية الحديثة نتيجة للحروب ، كما ألمح ايضا الى أن الاقطاعيات والطبقات قد تظهر وتتكون نتيجة للصراع · ومن المعروف أن ماركس كان قد أشار فى وقت سابق الى فكرة مشابهة حينما اكد أن الطبقات تدخل فى الصراع ، لكنها تعد ايضا نتاجا له بوصفها جماعات واعية · وفى حدود الأمثلة السابقة نجد زيمل يذهب الى ان الصراع يلعب دورا كبيرا فى احداث التغير الاجتماعى وتعجيله ، مؤكدا أن الجماعة ألتى لا تعرف الصراع تفتقد « اهم عمليات الحياة » والملاحظ أن الدراسات الحديثة

---

(٢٢) Coser, op. cit; P. 151.

لا تميل الى تأكيد مثل هذه العلاقة الوثيقة بين الصراع والتغير الاجتماعي. وربما يعود ذلك الى أن هذه العلاقة تعد أحد الملامح الأساسية للنظرية الماركسية . وتزداد هذه النقطة وضوحا اذا ما أدركنا عزوف علماء الاجتماع عن دراسة الحركات الثورية خلال القرن العشرين ، الا اذا استثنينا منهم الذين تستعين بهم الحكومات لمواجهة الانتفاضات والثورات . ان الثورة ـ شأنها شأن الحرب وربما بدرجة أكبر ـ تثير بعض الاعتبارات الأخلاقية التي تتداخل مع أي تصور يمكن خلعه أو ربطه بالصراع ، وتلك قضية لم تنل نصيبها الضروري من الدراسة . ومع ذلك كله فاننا نستطيع ادراك التأثير الذي بدأت تحدثه الحركات الثورية على الفكر الاجتماعي الحديث اذا ما تأملنا التصورات الحديثة لظاهرة الثورة(٢٣) ، وزيادة الاهتمام بالتراث النظري الذي تركه الثوار المعاصرون من أمثال ماوتسي تونج Mao Tse - tung وشي جيفارا Che Guevara وفرانتز فانون Fanon وريجيس دبيراي Debray .

وقبل مناقشة هذه القضية يتعين علينا مناقشة بعض الجوانب الأخرى للعلاقة بين الصراع من ناحية والمحافظة على طابع الحياة الاجتماعية أو تغيرها من ناحية أخرى . لقد اهتم زيمل ـ شأنه في ذلك شأن الرعيل الأول من علماء الاجتماع ـ بتوضيح المفاهيم ، وابراز العلاقات الممكنة أكثر من اهتمامه بتأكيد الارتباطات بين الظواهر . فعلى سبيل المثال نجد زيمل يذهب الى أن الصراع بين الجماعات يؤدي ـ في معظم الأحيان ـ الى تدعيم التماسك الداخلي لهذه الجماعات ، لكنه (أي زيمل) يشير الى أن ذلك لا يحدث دائما . ولنستشهد على ذلك بمثال معاصر : من الواضح أن الحرب التي شنتها الولايات المتحدة في فيتنام لم تسهم في زيادة الوحدة بين أفراد المجتمع الأمريكي ، بل على العكس من ذلك أحدثت انقساما داخل المجتمع وصل الى درجة الصراع الحاد . ويمكننا أن نثير

---

(٢٣) Ralf Dahrendorf, " Uber einige Probleme der Soziologischen Theorie der Revolution, " European Journal of Sociology, Vol. 2 (1961); Hannah Arendt, On Revolution (New York, 1963); Carl J. Friedrich (ed)., " Revolution ", NOMOS, Vol. 8 (1967).

نقطة عامة فى هذا المجال تتعلق بمدى تأثير الهزيمة فى صراع خارجى على تماسك المجتمع عموما • فمن الملاحظ خلال القرن العشرين أن الثورات قد أتت بعد هزائم عسكرية فادحة • وهنا يبدو الارتباط غير دائم الحدوث: ذلك أن هناك هزائم عسكرية لم تعقبها ثورات ، كما أن هناك ثورات لم تقم نتيجة لهزائم عسكرية خارجية • ومن المعروف أن الثورة الصينية قد قامت بعد تحقيق نصر عسكرى • وهكذا يبدو صعوبة التوصل الى ارتباطات قوية بين وجود الصراع الخارجى ونتائجه من ناحية ، ودرجة التماسك الداخلى من ناحية أخرى • لذلك فنحن ما زلنا بحاجة الى صياغة النماذج النظرية التى قد تمكننا من التوصل الى احكام امبيريقية اكثر دقة تتعلق بتأثير مختلف انماط الصراع الخارجى على مختلف أنماط الجماعات الاجتماعية •

والواقع ان العلاقة العامة بين الصراع والتغير الاجتماعى ما تزال بحاجة الى مزيد من الدراسة الدقيقة • فالصراع بين الجماعات او داخلها قد يؤدى الى تغير أو يسهم فى خلق استعداد للتغير من خلال اهتزاز اساليب الحياة السائدة • ولقد قال زيمل : « ••• خلال المراحل الأولى للحضارة الانسانية كانت الحرب هى الطريقة الوحيدة التى من خلالها يحدث اتصال او احتكاك بالجماعات الأجنبية »(٢٤) كذلك فاننا نجد كثيرا من علماء الاجتماع يذهبون الى أن الحروب قد أسهمت فى توسيع نطاق المجتمعات القديمة ، كما أدت (أى الحروب) فى عالمنا المعاصر الى ظهور الدول بمعناها الحديث • ويعتقد بعض العلماء أن الحروب قد أثرت تأثيرا كبيرا على تطور التكنولوجيا ، وأسهمت ـ بالتالى ـ فى احداث تغييرات عميقة على المجتمعات • أما الحروب الحديثة التى تؤثر على أكبر عدد ممكن من سكان المجتمعات (والتى تعد الحرب العالمية الأولى بداية لها) فانها تؤدى الى نتائج سياسية هامة ابتداء من تحرر المرأة حتى توسيع مجال التشريعات الاجتماعية • وبنفس الكيفية يمكن القول ان الصراع الداخلى يؤدى الى حدوث تغيرات اجتماعية هامة • لقد تبنى ماركس ـ وكما

---

(٢٤) Simmel, op. cit; P. 33.

قال هو نفسه ـ وجهة نظر المؤرخين البرجوازيين الذاهبة الى ان أوربا الحديثة تعد نتاجا للصراعات الطبقية ، وأن المجال ما يزال مفتوحا لظهور صراعات طبقية جديدة تؤدى الى مزيد من التغيرات الأساسية فى المجتمعات الأوربية . ونحن لا نستطيع تجـاهل الحقيقة الذاهبة الى أن الحركات السياسية الماركسية فى كثير من الأقطار قد احدثت تحولات عميقة على البناءات الاجتماعية . كذلك فاننا لا نستطيع تجاهل الفكرة التى مؤداها : أن الصراع بين الاحزاب السياسية المنظمة فى الدول الصناعية وكذلك فى بعض الدول النامية ، مثل هذا الصراع كان بمثابة دافع لاقرار حقوق الأفراد فى الاجتماع والنقد والمعارضة .

ومن اشكال الصراع التى اهتم بها زيمل ، نجد المنافسة التى لم تحظ الا بالقدر اليسير من الاهتمام . وتختلف وجهة نظره مع وجهة نظر الاشتراكين ، وبعض الليبراليين من امثال جون سيتوارت ميل J. S. Mill الذاهبة الى ان المنافسة تؤدى ـ عموما ـ الى نتائج ضارة . ولقد اكد زيمل الدور الذى تلعبه المنافسة وهو « اكساب الأفراد الروح الجمـاعية وعناصر الحضارة » . حيث يقول : « توصف المنافسة الحديثة بأنهـا حرب الجميع ضد الجميع ، لكنها ـ فى نفس الوقت ـ حرب من اجـل الجميع » ويمكن أن تنطبق هذه العبارة على المنافسة الاقتصادية التى تهدف الى تحقيق أعلى معدلات الانتاج بأقل التكاليف الممكنة . « واذا ما اخذنا فى الاعتبار مبلغ كبر حجم المجتمع وتغلغل الروح الفردية فيه ، استطعنا تحديد اشكال المصالح التى تسهم فى تقوية الجماعات من خلال ارتباط افرادها بها . مما قـد تتضح نتائجه عنـد مواجهـة الصراعات والتوترات »(٢٥) ويمكن القول ان المنافسة والاقتصاد الحر اللذين سيطرا على راسمالية القرن التاسع عشر قد اسهما فى زيادة معدلات النمـو الاقتصادى . وفضلا عن ذلك فان التقدم السريع الذى حققه الاقتصـاد الأمريكية . لكننا لا نستطيع ـ برغم ذلك ـ التوصل الى ارتباطات دقيقة الامريكى يمـكن تفسيره فى ضـوء اتسـاع نطـاق المنافسـة بين مدى المنافسـة او شـدة الروح التنافسية من ناحيـة ، ومعـدل التقـو

---

(٢٥) Ibid; PP. 63 - 4.

الاقتصادى فى المجتمعات المختلفة من ناحية اخرى · ونستطيع بعد ذلك اثارة قضية مختلفة عن القضايا السابقة مؤداها : أن المنافسة قد تؤدى الى بعض النتائج الضارة · فاذا كانت تؤدى دورا حضاريا ـ كما يقول زيمـل وكما يعتقـد دوركايم DurKheim بانها قادرة على خلق شبكة من الالتزامات المتبادلة ـ الا انها (اى المنافسة) قـــد تسهم فى زيادة معدلات الامراض العقلية والجرائم · لكننا ـ برغم ذلك ـ ما نزال بحاجة الى الكشف عن مدى الصدق الامبيريقى لهذه القضية ·

والواقع أن زيمل ومن اتى من بعده (من امثال كوزر) قد اهتموا اهتماما كبيرا بتأكيد الوظائف الايجابية (بمعنى النتائج المفيدة) للصـراع· ومن بين هذه الوظائف الايجابية ان الصراع يؤدى الى حدوث تغيرات توصف بانها مفيدة عموما · وبغض النظر عن الحقيقة التى مؤداها : ان الصراع قد يؤدى الى حدوث تغيرات قد ينظر اليها على انها ضارة ، الا أن هناك جوانب اخرى للعلاقة بين الصراع والتغير يجب دراستهـــا دراسة متأنية · اننا لا نستطيع البرهنة على أن كل اشكال التغير تحدث نتيجة للصراع ، على الرغم من تردد هذه الفكرة فى فلسفة التاريخ عنـــد هيجل ، وفى نظرية ماركس الاجتماعية (مع بعض التحفظات) ، وبعض الأطر النظرية المشتقة منهما · فهناك تغيرات تحدث دون صراع ـ كتراكم المعرفة العلمية ـ ثم تثير بعد ذلك صراعا كما هو الحال فى الصراع بين العلم والدين ، وكذلك الصراع بين جماعات المصالح التى تأثرت بظهور التكنولوجيا الحديثة · كذلك فاننا لا نملك الدليل القوى على أن كل اشكال الصراع تؤدى الى تغير · فثمة صراعات ـ كما يقول زيمل ـ تسهم فى تقوية وتدعيم الحياة الاجتماعية القـــائمة المستقرة ـ ففى المجتمعات القبلية نجد الصراعات التى تأخذ طابعا طقوسيا من شانها تدعيم التضامن الاجتماعى والمحافظة على النظم القائمة(٢٦) وفضلا عما سبق فان من

---

(٢٦) On this see Max GlucKman, Custom and Conflict in Africa (Oxford, 1955; New York, 1964) and Subsequently Politics, Law and Ritual in Tribal Societies (Chicago, 1965).

الصعب الحصول على أمثلة توضح ان الصراع الحاد داخل الجماعة قد يؤدى الى معضلة تعوق أو تحول دون ظهورت تغيرات بدات بالفعل ·

المستقبل

سيطرت الاعتبارات العملية على الاهتمام الجديد بدراسة الصراع· ومن بين هذه الاعتبارات الرغبة فى أيجاد وسائل لتجنب الحرب النووية أو على الأقل التحكم فيها أو الحد منها · ولقد شجع ذلك على ظهـور ميدان جديد للبحث يطلق عليه « الدراسات الاستراتيجية » ، وهو ميدان يهتم بالظروف والمواقف المؤدية للحروب من ناحية وبنتائج الحروب من ناحية أخرى · ويعتبر مؤلف ريمون أرون Aron « الحرب والسلام : نظرية فى العلاقات الدولية »(٢٧) Peace and War : A Theory of International Relations أفضل المؤلفـات تعبيرا عن هـذه الاتجاهات الجديدة ، فضلا عن تنوع وتعدد مناهج البحث المستخدمة فيه · ويبدأ أرون Aron كتابه بمناقشة المفاهيم والتصنيفات التى تتطلبها دراسة الحرب والسلام والقوة والنظام الدولى وانماط الحروب والسـلام ، ثم ينتقل بعد ذلك ـ فى البابين الثالث والرابع ـ لتقديم تحليل تاريخى للنظام الدولى فى ظل العصر النووى ، ومناقشـة بعض التقويمات الأخـلاقية للحروب ونتائجهـا السـياسية والاستراتيجية · والواقع ان كثيرا من القضايا التي اثارها أرون فى الباب الأخير من كتابه قد خضعت لمناقشات عديدة · ومن بين هذه القضايا تاثير مستوى التسليح (أو الاستعداد العسكرى عموما) على احتمالات الحرب · ولقد صـاغ ريتشاردسون Richardson (الذى اشـرنا فى موضع سابق الى دراسته عن أسباب الحروب) بعض النماذج الرياضية التى تتناول سـباق التسلح(٢٨) ، مطبقا احـداها على الفترتين اللتين سبقتا الحربين العالميتين · وقبـل وفاته مباشرة كان ريتشاردسون يدرس سباق التسلح الثالث الذى بدأ ـ فى اعتقاده ـ عام ١٩٤٨ ؛ لكنه لم يتوصل الى نتائج محددة حـول

---

٢٧) (New York, 1966). Originally published in French as Paix et Guerre entre Les Nations (Paris, 1962).

(٢٨) L. F. Richardson, Arms and Insecurity (Pittsburgh,1960).

نتائج هذا السباق · والواقع ان من الصعب التوصـــل الى استنتاجات محددة حول احتمالات سباق التسلح المؤدى للحرب بالاعتماد على مؤلف ريتشاردسون ؛ لكنه من المعقول القول بان ثبات او تخفيض معدل التسليح من شـأنه تقليل احتمـالات نشوب الحـروب ؛ لأن ذلك يعـد ـ أولا ـ دليلا على وجود اتفاق بين الأمم المتصارعة ، ولأنه قد يؤثر ـ ثانيـا ـ على المزاج العام السائد فى هذه الأمم · ولا شك ان ريتشاردسون قـد منح النقطة الأخيرة اهمية بالغة ·

وهناك قضية اخرى اثارها أرون تتمثل فى وجود بديل للحـــرب بوصفها وسيلة لتنظيم العلاقات بين الأمم الساعية لتحقيق مصالحهـــا القومية · وهنا يطرح أرون احتمالين : الأول هو السلام خلال القانون ، والثـــانى هـو السـلام من خــــلال الامبراطورية · وينطـوى كل من الاحتمالين على تضحيات متفاوتة من وجهــة نظر الســيادة الوطنية · فالسلام من خلال القانون يمكن اعتباره توسيعا لنطاق الاتفاقيات الدولية القائمة ، لكن تحقيقه كاملا يتطلب ايجاد اجهزة تشريعية وتنفيذية وادارية عالمية تتخطى حواجز القوميات · اما السلام من خـــلال الامبراطورية فانه يعنى التضحية باستقلال الأمم الداخلة فى نطاقه ، وهو الأمر الذى يستحيل تحقيقه فى الوقت الراهن ، طالمـــا أن كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى لا يقبل باقامة امبراطورية عالمية · وبالاضافة الى الاحتمالين السابقين هناك احتمال ثالث هو : السلام من خلال توازن القوى كما هو الحال فى عالمنا المعاصر · لكن النقطة التى يجب ان تثار هنا تتعلق بامكانية تحقيق توازن مستقر ودائم بين القـــوى المختلفة ، فضلا عن نوعية الظروف التى تسمح بايجاد هذا التوازن(٢٩) ·

اما آخر القضايا التى اثارتها الدراسات الحديثة التى اشرنا اليها فتتعلق بالدور الذى تلعبه الحروب فى السياسات الوطنية · هــــل يمكن اعتبار الحرب اداة رشيدة لتحقيق اهداف سياسية بالمعنى الذى يقصده

(٢٩) الا ان اهم المشكلات المرتبطة بهذا الموضوع تتمثل فى التأثير الذى يمارسه التقدم التكنولوجى السريع وانتشار الأسلحة النووية ·

كلاوزفيتز Clausewitz ؟ الواقع اننا مضطرون هنا للتمييز بين اشكال مختلفة من الحروب • فهناك حروب التحرر الوطني ، وحروب الثـورة المضادة ، فضلا عن حروب محدودة اعتمدت على ما يمكن ان نطلق عليه « الاسلحة التقليدية » ، ومن الممكن القول بأن هذه الحروب رشيدة ، بمعنى أن المكاسب التى تحققها تفوق الخسائر المترتبة عليها • ولكن ماذا يمكن قوله عن الحرب النووية بين القوى الكبرى ؟ تتجه معظم الآراء فى مختلف أنحـاء العالم الى التسليم بان حربا من هـذا النوع لن تكون رشيدة ؛ لأنها تعنى تدميرا متبـادلا ، ان لم نقل القضـاء على الجنس البشرى • ومع ذلك نجـد هيرمان كان Kahn فى مؤلفـه « حـول الحرب النووية الحرارية »(٣٠) On Thermonuclear War يذهب الى ان التدمير الشامل الذى يمكن أن تخلفه مثل هـذه الحرب قـد لا يكون عائقا يحول دون حدوثها • والملاحظ أن هذه الدراسات قـد بدات تستعين بنماذج « نظرية اللعب » Game Theory بهدف تحديد نوعيـة الاستراتيجية • وبرغم ما تنطوى عليه هذه النماذج من جاذبية بالنسبة للعلماء الاجتماعيين وصناع السياسات ، الا انها قد تعرضت لانتقادات عديدة • ولقـد توصل أرون فى دراسته عن « الحرب والسلام » الى نتيجـة مستندة الى نقد عنيف للواقعية المفرطة التى تتميز بها هـذه النماذج ، كما طالب بالاهتمام بما اطلق عليـه « السياسـة المتزنة » لا « الاستراتيجية الرشـيدة »(٣١) أما اناتول رابوبوت Rapoport فقـد ابدى تأييـده « لنظرية اللعب »(٣٢) ، لكنه ما لبث أن قـدم اطارا تصوريا(٣٣) يمكن من خـلاله تحديد القياس الاستراتيجى لمواقف الصراع(٣٤) ، مشيرا الى القيـود المفروضة على النظرية خاصة حينما يصعب تحديد الاختيار الرشيد •

(Princeton, 1960).

(٣٠) Aron, op. cit; Final Note.

(٣١) A. Rapoport; Fights, Games and Debates, (Ann Arbor, 1960).

(٣٢) A. Rapoport; " Models of Conflict : Cataclysmic and Strategic ", in Conflict in Society, op. cit; PP. 259 - 87

(٣٣) Ibid; P, 277.

(٣٤)

ومن بين العوامل التى أدت الى النمو السريع فى الدراسات الاستراتيجية ، ازدياد الرغبة فى السيطرة على الحرب فى ظل العصر النووى ، وذلك استنادا لاعتبارات عقلية واخلاقية(٣٥) والواقع اننا لا نلمس مثل هذه السيطرة (أو حتى الالتزام الأخلاقى) بالنسبة للأشكال الأخرى من الصراع الاجتماعى · ومن النتائج المترتبة على ذلك عزوف عدد كبير من علماء الاجتماع عن دراسة الثورات والصراعات الصناعية والعرقية ، وخلو النماذج النظرية للانساق الاجتماعية من اية اشارة للدور الذى يمكن أن تلعبه التغيرات العنيفة ؛ مما خلق مشكلات عديدة عند دراسة ظاهرة الصراع · ان الثورات ـ بحكم طبيعتها ـ لا تتسق مع النماذج النظرية التى تقوم علىالفكرة الذاهبة الى أن الوظائفالايجابية للصراع تعمل على المحافظة (مع تعديلات طفيفة) على نسق اجتماعى معين · وطبقا للنظرية الوظيفية فان اقصى ما يمكن أن يقال هو أن فشل الثورة يعنى استمرار النظام القائم وتدعيمه ، وأن نجاحها يعنى تحولا يطرأ على المجتمع ولما كان علماء الاجتماع ـ شأنهم شأن الناس العاديين ـ لا يزعمون عموما فى نشوب الحروب ، ثم يجدون بعد ذلك دراساتهم تتضمن هدفا عمليا هو الحد منها (أى الحروب) أو التحكم فيها ، فانهم قد يتخذون موقفا مؤيداً أو معارضا من الثورة (والأشكال الأخرى من الصراع الداخلى) · وهكذا نجدهم يدركون فجاة سيطرة الاتجاهات والالتزامات الأخلاقية على دراساتهم · لذلك نجد علماء الاجتماع يدرسون الثورات بدرجات مختلفة من التعاطف أو الرفض ، وقد يعملون كمستشارين للقادة الثوريين ، وان كانوا يقدمون ـ غالبا ـ النصح والمشورة للمؤسسات التى تتولى مواجهة التمرد والعصيان · على أن ذلك لا يمنع علماء الاجتماع من دراسة هذه القضايا الدقيقة التى تنطوى على قدر كبير من الحساسية ، كما لا يحول بينهم وبين

---

(٣٥) ربما كان لذلك بعض الاستثناءات القليلة · ففى مؤلف :
L. Lewin; Report from : Iron Mountain (ed)., New York, 1967.
نجد وجهة نظر تذهب الى أن بعض بنوك المعلومات والدوائر الأخرى فى الولايات المتحدة قد ابدت مزيدا من الاهتمام بمخاطر السلام ؛ أى مشكلة ايجاد بدائل ملائمة لما اطلق عليه الوظائف الحيوية للحرب فى المجالات الاقتصادية والسياسية والسوسيولوجية والديموجرافية والثقافية ·

التعبير عن وجهـة النظر التي تنطلق منهـا بحوثهم وكتاباتهم ، مما قد يمنح دراسـاتهم طابعـا انسانيـا(٣٦) والواقع ان مفهـوم « الوظائف الايجابية للصراع » قد يكون أقل تعرضا للنقد ، اذا ما استخدم للاشارة للتحولات الثورية تماما كما يستخدم للاشارة الى التغيرات التدريجية او الحفاظ على النظـام الاجتماعي القـائم ، واذا ما تمكنـا من تحديد الوظائف السلبية المقابلة ومنحناها اهميتهـا الضرورية · وباستطاعتنا بعد ذلك توجيه انتقادات عديدة لوجهـة النظر الذاهبة الى ان التعاطف مع الحـركات السياسيـة والثورات يحمـل مضمونا ايديولوجيا ، وأن ذلك تهديد للموضوعية السوسيولوجية ، بينمـا لا يبـدو هـذا التهديد واضحا في حالة الدفاع عن الأوضـاع القائمة · وبعبارة اخـرى فان وجهة النظر هـذه تؤكد ان دراسة النظام الاجتمـاعي تستند الى دعائم علمية اقوى من تلك التي تستند اليهـا دراسـة الصراع الاجتمـاعي · والواقع اننا لا نجد مبررا واحدا للدفاع عن هذه النقطة ·

ولقد اشرت في مطلع هـذا الفصل الى اننا مانزال نفتقد حتى الآن وجـود نظرية سوسيولوجية متكاملة في الصراع · بيـد ان الدراسات الحديثـة التي تتناول الصراع تقـدم اسهامات هامة على الأقل بالنسبة للنظرية السوسيولوجية بمعناها الواسع · فلقد بدأت دراسات الحرب ـ وهي من اكثـر الدراسـات تقـدما في الوقت الحـالي ـ تهتم بجمـع الشواهد التاريخية والاحصائية اللازمـة لاجراء اي تحليل سببي ، كما امـكن الافادة منهـا (أي الشواهد) في صياغة نمـاذج للصـراع ، تلك النماذج التي اسهمت في تقدم البحث برغم الثغرات التي مازالت تنطوي عليها · واذا كانت هذه الدراسات لم تتوصل حتى الآن لصياغة نظرية

---

(٣٦) يشير « مشروع كاميلوت » السيء الحظ الى بعض هذه القضايا ، ويمكننا ان نجد تحليلا اضافيا لأهم نتائجه في :

Irving L. Horowitz, " The Life and Death of : Project Camelot ", Transaction, Vol. 3 (1965); and by Ralf Dahrendorf, Essays in the Theory of Society (Stanford, 1968).

وقد يتضح الجانب الحاسم في هذا المشروع ، اذا ما افترضنا ان الحكومة الكوبية قد تبنت ومولت مشروعا آخر بهدف اجراء دراسات منظمة تتناول انتفاضات الزنوج في المدن الامريكية وذلك بهدف مساعدتهم .

عامة للحرب ، الا أنهـا (أى الدراسات) قد القت الضوء على مدى تعقد هـذه الظاهرة ، وتوصلت الى بعض الأسباب التقريبية مما قـد يساعد على التحكم فى مثل هذا النمط من الصراع · ويجب أن يظهر جهد فكرى مماثل فى دراسة انمـاط الصراع الأخرى كالصراع الطبقى والحركات الثورية والصـراع الصنـاعى والصـراع العرقى ، على الرغم من أن دراسة هذه الظواهر قد تنطوى على صعوبات أكبر بسبب غموض الهدف من القيـام بها وعـدم الرغبة القوية فى الافادة من نتائجها · والواقع أن بالامكان الافادة من مناهج دراسة الصراع الدولى عنـد تناول العلاقات بين الجماعات والقطاعات المختلفة داخل المجتمع الواحـد ، طالما أخذنا فى اعتبـارنا الصعوبات المرتبطة بوصف أشـكال الصراع بالايجابيـة أو السلبية ·

وربما كان أوضح الانجازات التى حققتهـا الدراسات الحديثة فى الصراع تغير تصوراتنا العـامة عن طبيعة النسق الاجتمـاعى · فلم يعد ممكنـا الآن قبـول المبالغـة فى مظاهر الانسجام الاجتمـاعى والتكامل والتوازن ، وتبنى نظرة استاتيكية للبنـاء الاجتماعى كما حدث خـلال العقود الثلاث الماضيـة تحت تأثير النزعة البنائية الوظيفية · والواقع أن مصطلح الانحراف Deviance (وهو من أسـوأ المصطلحات السائدة فى علم الاجتماع) لم يعد يستطيع التعبير عن مختلف صـور الاشـياء والصـراع والتمرد والكبح التى تحـدث فى كل المجتمعات ، تلك الصور التى لا نستطيع استيعابها دون فهـم الأبعـاد الكثيـرة التى تتضمنهـا المجتمعـات السـريعة التغير خـلال القرن العشـرين · اذن الصـراع يمثـل جانبا أصيلا فى الحيـاة الاجتماعية ؛ لأنه قـد يؤدى الى تقوية الجمـاعات الاجتماعيـة أو تعديلهـا أو الاطاحة بهـا · ومن ثم فاننـا لا نستطيع معالجة الصراع معالجة دقيقة اذا ما نظرنا اليه على أنه سمة ضئيلة واستثنائية تميز العلاقات الاجتماعية كما كانت تفعـل نظـرية التضامن الاجتماعى حينما كانت تشير اليه بطريقة اعتذارية · وسـواء شئنا أم أبينا ، فان علينا توجيه مزيد من الاهتمام لدراسة صراع المصالح والمذاهب الفكرية ، والكشف عن دور العنف فى تدعيم النسق الاجتماعى أو الاطاحة به ؛ وذلك اذا ما أردنا تقديم تفسير مقنع للأحداث وتوضيح

الوسائل والأساليب التي من خلالها يختار الناس مجريات افعالهم من بين البدائل المختلفة • وفضلا عما سبق فاننا بحاجة الى تحرير الفكر الاجتماعى من بقايا ما يمكن أن نطلق عليه « ايديولوجية الاتفاق او الانصهار » التى تفترض امكان حل مشكلات التفاوت فى الثروة والسلطة والاستمتاع دون احداث اية تغيرات اساسية على بناء المجتمع •

الفصل الثاني عشر

الاطار السياسي للتكنولوجيا (١)

حقق الانسان خلال العقود القليلة الماضية ـ وبنجاح كبير ـ هدفا طالما تمناه وسعى اليه · فقد أصبح الانسان بتعبير ديكارت Descartes « سيد الطبيعة ومالكها » · فالثورة العلمية والتكنولوجية ـ التى استمرت فى سرعتها ـ قد حلت محل المعلومات المتعلقة بالعمل الفيزيقى كقوة اساسية فى عملية الانتاج ؛ بحيث يمكن القول اننا نعيش فى ظل الظروف التى اعتقد ماركس قبل قرن من الزمان انها الحصيلة النهائية للانتاج الرأسمالى « اذ أن عملية الانتاج لم تعد متوقفة فقط على العمل ··· ان انتاج الثروة قد أصبح معتمدا بدرجة كبيرة على القوى المنتجة التى يمتلكها الانسان وفهمه للطبيعة وقدرته على السيطرة عليها » (٢) ·

بيد أن هذه الانجازات قد اتخذت ـ وبشكل متزايد ـ طابعا محيرا : فمن ناحية نجد الثورة فى الانتاج ـ على خلاف توقعات ماركس والاشتراكيين من بعده ـ لم ترتبط بثورة اجتماعية ، بل حدثت ـ اساسا ـ فى اطار مجتمع رأسمالى · ومن ناحية أخرى نجد ان العلم والتكنولوجيا ـ بعد أن ظلت النظرة اليهما طوال ثلاثة قرون تؤكد قدرتهما على حل المشكلات الانسانية (وهو ما يبدو واضحا فى نظريات التقدم التى ظهرت

---

(١) مقتبس مع تعديلات طفيفة من :
New York Review of Books, XvII (7) (November 1971:

(٢) Karl Marx, in the Preparatory manuscripts for Capital, which were first published in 1939 - 41 under the title Grundrisse der Kritik der politischen Oekonomie (Rohentwurf).

وهناك الآن طبعة انجليزية من المخطوطات ترجمها وحررها مارتن نيكولاس Nicolaus تحت عنوان : Marx,s Grundrisse (Harmondsworth, 1973):

خلال القرن التاسع عشر والتى يعد ماركس نفسه احد أصحابها) ـ قد أصبحا فى نظر كثير من الناس مصدرين أساسيين لمشاكل لا يستطيعان حلها · ان تقدم العلم والتكنولوجيا قد خلق قدرا من القلق ـ وربما الخوف ـ لا يقل عما حققه من اشباع · ومن الطبيعى أن تتخذ هذه المشاعر صورة حركات نقد ومعارضة · وهكذا نجد الثقافة المضادة ، تبدو وكأنها بمثابة نقيض للحضارة العلمية ·

ومن الواضح أنه خلال فترة مبكرة نشأت معارضة لكل من العلم والتكنولوجيا (وحصيلتهما النهائية المتمثلة فى التصنيع) ، عبرت عنها فى بداية الأمر القيم الارستقراطية والدينية ؛ كما أن الاعتقاد الغربى الراسخ فى التقدم من خلال العلم قد بدأ يهتز منذ نهاية القرن الماضى · أما ردود الأفعال التى نلمسها فى عصرنا الحالى ازاء العلم والتكنولوجيا فهى من نطاق مختلف ، وتتعلق بأخطار محددة · ولا شك أن اكتشاف الاسلحة النووية واستخدامها قد أديا الى زيادة الشك فى القضية الذاهبة الى ان تقدم المعرفة العلمية يؤدى الى مزيد من السعادة الانسانية · كذلك فان التهديد بنشوب الحرب النووية قد ساعد على بقاء هذا الشك حيا ، بل وازداد دعما بسبب النتائج الجانبية السلبية للتقدم التكنولوجى (كالانفجار السكانى وتلوث البيئة) ، والتى يصورها البعض على أنها من علامات « يوم القيامة »(٢) ·

والواقع أن عدم الثقة بالعلم والتكنولوجيا لم يعد من الأمور التى تميز الجماعات الاجتماعية التقليدية التى قد تناضل من أجل الدفاع عن وضع اجتماعى مستقر أو أسلوب حياة معين · كذلك فان هذه القضية لم تعد تشير الى مجرد وجود صراع عام بين « ثقافتين » ؛ اذ اننا نلمس تطورا ملحوظا فيما يمكن ان نطلق عليه « النقد الذاتى فى مجال العلم » ·

---

(٢) Eugene S. Schwartz, Overskill: The Decline of Technology in Modern Civilisation (Chicago, 1971).

وعندما قام دينيس جابور Gabor بمسح شامل لمسار التطور التكنولوجى واعبائه ، اشار الى ما اطلق عليه « التجديد القهرى » « وادمان النمو » ، مستحثا أولئك الذين يعيشون فى الدول الصناعية على التفكير فى ايجاد تحول نحو « مرحلة حضارية جديدة ، يمكن أن تكون بمثابة « أمل دون نمو مادى »(٤) وبالمثل نجد أنطونى اوتنجر Oettinger فى دراسة نقدية لاستخدام التكنولوجيا فى التربية يشير الى ما أطلق عليه « مدارس تعلم الاختراعات »(٥) ويميل كثير من العلماء الآن الى القيام بمشروعات بحوث مشتركة فى هذا المجال كما هو الحال بالنسبة لمؤتمرات بيجواش Pegwash أو منشورات « جمعية المسئولية الاجتماعية للعلم » ؛ وهى جمعية تحاول ايجاد حلول لبعض المشكلات المترتبة على التقدم التكنولوجى .

بيد أن هذه المحاولات العلمية تثير بدورها مشكلات جديدة . فمن الأمور المألوفة الآن (وان لم يكن على نطاق عالمى) أن العلم والتكنولوجيا يجب أن يخضعا لرقابة صارمة . ولكن كيف يمكن ممارسة هذه الرقابة ، ومن الذى يتولاها ؟ والواقع ان المناقشات التى تناولت هذا التساؤل متنوعة وغير مقنعة فى معظمها . وينطبق ذلك أيضا على الدراسات العلمية المنظمة التى تتناول العلاقة بين التكنولوجيا والمجتمع ، كما ينطبق بالتالى على التقارير والتعليقات الصحفية ولا شك أن نقطة الضعف الأساسية التى تميز هذه الدراسات والتقارير تتمثل – من ناحية – فى افتقاد نظرية شاملة عن المجتمع يمكن أن تعد اطارا لدراسة العلم والتكنولوجيا كظاهرتين اجتماعيتين ،ومن ناحية أخرى فى عدم توافر تصور اهداف اجتماعية للمجتمع الانسانى المرغوب فيه بحيث يتعين على العلم

---

(٤) Dennis Gabor, **Innovations : Scientific, Technological and Social** (London, 1970).

(٥) Anthony G. Oettinger with Sema Marks, Run, Computer. **Run : The Mythology of Educational Innovation** (Cambridge, Mass; 1969).

والتكنولوجيا الاسهام فى تحقيقها · ولذلك فان من العبث توجيه اللوم للمخططين المصريين والهيئات التنفيذية (العامة والخاصة) والبيروقراطيين بسبب فشل تصرفاتهم ، حينما لا يتوافر وعى سياسى من خلاله يمكن تحديد شكل الحياة الاجتماعية التى نطمح فى تحقيقها(٦) ·

ولقد بدت هذه الصعوبات والمشكلات واضـــحة فى مشروعين من مشروعات البحوث الكبرى التى تمت خلال العقود القليلة الماضية : الأول هو برنامج جامعة هارفارد حول التكنولوجيا والمجتمع باشراف ايمانيول ميثين(٧) Mesthene ، والثانى يمثله فريق البحث التابع للأكاديمية التشيكوسلوفاكية للعلـــوم باشراف رادوفان ريختا(٨) Richta · والملاحظ أن كتاب ميثين(٩) Mesthene ــ الذى يفترض فيه أن يكون انعكاسا للاتجاه الفكرى الذى انطلق منه برنامج هارفارد ــ لم يعرض لأية افكار نظرية حول البناء الاجتماعى والتغير الاجتماعى · ولقد اتخذ هذا الكتاب شكل تقرير وصفى عن اثر التكنولوجيا ، متجنبا اتخاذ موقف متطرف سواء فيما يتعلق بتأييد التكنولوجيا أو معارضتها ، ومتبنيــــا موقفا وسطا من خلاله يمكن تقويم الأضرار والمزايا المترتبة على التقـــدم التكنولوجى ، ثم ينتهى الى ضرورة احداث بعض التعديلات الاجتماعية الضرورية التى تحد من الاضرار وتزيد من المزايا · ومن الواضح أن هذه

---

(٦) تعتبر هذه النقطة ــ والتى ساعود الى مناقشتها فى موضوع لاحق ـ هى القضية الأساسية التى تبناها هابيرماس Habermes فى مؤلفه « نحـو مجتمع رشيـد » Toward a Rational Society (Boston, 1970) · وفى هذا الكتاب يشير الى « مشكلة تحويل المعرفة الفنية الى وعى حقيقى ، أى الى وعى عام يمكن ان يستخدم المفاهيم الأخلاقية والسياسية فى صياغة افكار وبرامج اجتماعية ·

(٧) بدأ برنامج هارفارد فى سنة ١٩٦٤ · ويمكننا ان نجد استعراضا لأعماله فى التقرير السنوى السادس ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠ · ومن بين الدراسات التى نشرت تلك التى قام بها ميثين Mesthene واوتنجر Oettinger وستن Westin ·

(٨) بـــدأ المشروع التشيكوسلوفاكى فى ســـنة ١٩٦٥ ، ثم نشرت اولى دراســـاته فى سنة ١٩٦٦ · وبعد مناقشة العلماء والقادة السياسيين لهذه الدراسة نشرت فى طبعة منقحة فى سنة ١٩٦٨ حيث اشرف عليها ريختا Richta وضمنها مؤلفا بعنوان « الحضارة فى مفترق الطرق » Civilisation at the Crossroads · هذا وقد ظهرت الطبعـــة الانجليزية للكتاب فى سنة ١٩٦٩ ·

Emmanuel G. Mesthene, Technological Change : Its Impact on Man and Society (Cambridge, Mass; 1970).

الاحكام تستند الى وجهة نظر محددة عبر عنها أصحاب مدرسة « نهاية الايديولوجيا » · ويفترض ميثين Mesthene وجود اتفاق عام حول الاهداف الاجتماعية يتجسد فى النظم القائمة ، ثم ما يلبث أن يستبعد (أى ميثين) أى احتمال لحدوث صراع اجتماعى ، متجاهلا بذلك حركات السخط والاستياء التى ظهرت ونمت خلال العقد الأخير · وفى ضوء هذه الافتراضات يمكن القول ان ميثين Mesthene قد تجاهل الاطار الاجتماعى باكمله ، ونظر الى التكنولوجيا على انها شىء مجرد يحدد القوة ، وذلك برغم اشاراته المبكرة فى كتابه الى أن التكنولوجيا ليست مستقلة بذاتها وليست بمعزل عن المجتمع · وهكذا نجد ميثين يتجنب مناقشة اهم القضايا واخطرها واعنى بها مدى استقلال او تبعية التكنولوجيا وايديولوجيات الجماعات الأخرى فى المجتمع ·

ويبدو تصور ميثين Mesthene عن التكنولوجيا اوضح ما يكون فى الباب الذى خصصه لمناقشة القيم · وتتميز هذه المناقشة بعدد من الملامح الهامة · فالملاحظ ان المؤلف لم يناقش الا القيم الدينية ، وهو موقف ينطوى على شىء من الغرابة اذا ما علمنا اننا نعيش فى عصر تزداد فيه العلمانية ، كما أن علماء الدين قد بدأوا يحولون تعبيراتهم من الطابع الدينى الى الطابع الدنيوى · والشىء الاكثر اهمية هو تلك العلاقة المفترضة بين التكنولوجيا والدين · فنحن ندرك فقط تأثير التكنولوجيا على الدين بينما لا نعرف شيئا عن تأثير الدين على التكنولوجيا · وفى هذا المجال يقول ميثين Mesthene : « ··· يتعين علينا البحث عن صياغة دينية جديدة ··· نستطيع من خلالها التوصل الى رموز تعبر عن الحقيقة التكنولوجية ··· ويجب قطع شوط كبير نحو ايجاد نسق معتقدات دينية يتلاءم مع واقع العصر التكنولوجى واحتياجاته » · وتقترب وجهة النظر هذه من وجهة النظر الماركسية فى صورتها الأولية ، تلك التى تذهب الى أن الأساس التكنولوجى يحدد طابع البناء الفوقى الدينى · ولكن اذا كانت هذه العلاقة بين التكنولوجيا والدين هى العلاقة التى يدافع عنها ميثين Mesthene فلماذا لا نواصل تتبع وجهة النظر الماركسية حتى نهايتها ، ثم نستنتج أن القيم الدينية ـ كافيون للشعوب ـ سوف تختفى ، أو انها ستفقد مضمونها بينما تحتفظ

يشبكلها مع تقدم المجتمع التكنولوجى · لماذا لاندرس ـ وبقدر كبير من الدقة ـ الطابع العلمانى لثقافتنا بما فى ذلك علمانية المعتقدات الدينية ذاتها ، ثم النتائج المترتبة على ذلك ؟ واذا لم نكن نقصد القول بأن القيم الدينية ذات طابع ايديولوجى ، فان علاقتها بالتكنولوجيا يجب أن تنطوى على قدر كبير من الحساسية لا مجرد أن تكون (أى القيم الدينية) بمثابة أساس شرعى للنظام التكنولوجى على نحو ما يذهب ميثين Mesthene ·

ومن النتائج المرتبطة بزيادة الاهتمام بربط التكنولوجيا بالقيم الدينية ، اهمال القيم السياسية والاجتماعية ، على الرغم من أن القيم الأخيرة تبدو أكثر ارتباطا بالتغير الاجتماعى(١٠) · فعلى سبيل المثال نجد حركة الطلاب ـ التى كانت أحد المنابع الهامة لقيم اجتماعية جديدة خلال فترة الستينات ـ لاتحظى الا باشارات عابرة فى التقرير الموجز الذى يتناول « انتفاضة الشباب » · ويعتقد ميثين Mesthene أن هذه الانتفاضة هى نتيجة حتمية للتنشئة الاجتماعية القاصرة ؛ اذ أن الجيل الجديد ـ كما يقول ميثين ـ قد أصبح واعيا من خلال وسائل الاعلام الجماهيرى بامكانية الابتعاد عن أفكار المجتمع ومعاييره ، دون أن تظهر محاولات لتدعيم القيم التى تعكسها هذه الأفكار والمعايير · وهكذا أصبح الجيل الجديد أكثر عرضة لانتهاك القيم دون وعى كبير بمبررات هذا الانتهاك · وهنا نلمس فى الاتجاه الفكرى الذى تبناه ميثين Mesthene رفضا لمعالجة الاستياء أو الرفض السياسى ، ومقاومة للفكرة التى مؤداها ؛ أن قيما سياسية بديلة قد تظهر نتيجة للصراع السياسى ·

والواقع أن الاتجاه الفكرى الذى تبناه ميثين Mesthene (والذى يفترض أن كل القضايا السياسية الأساسية قد أمكن تسويتها فى المجتمع

(١٠) من الواضح أن برنامج هارفارد قد تجاهل تماما ميدان السياسة ،فمن بين اثنان وأربعين مشروعا (طبقا لتقرير ١٩٦٩/١٩٧٠) لانجد واحدا منها يعالج بشكل مباشر الحركات والأيديولوجيات السياسية · وفى التقارير التى تناولت بحوث برنامج هارفارد لانجد سوى واحد منها (صيف ١٩٦٩) يتضمن اشارة للعلاقة بين التكنولوجيا والسياسة ، وذلك فى اطار مناقشة للافتراضات التقليدية التى تستند اليها « الديموقراطية المستنيرة » فى الولايات المتحدة الأمريكية ·

الأمريكى) قــد اثبت قصوره حينمـا حاول (أى ميثين) مناقشـة بعض التساؤلات المتعلقـة بتأثير التكنولوجيا على السياسة · ويعتقـد ميثين Mesthene أن هذا التأثير يتطلب احـداث تغييرات أو تعديلات طفيفة على النظم القائمـة حتى تتلاءم مع احتياجات التكنولوجيا المتطـورة · واقصى ما وصل اليه ميثين Mesthene هو تأكيـد أهمية « القطاع العام فى المجتمع » · غير أن هـذا التأكيـد لا يشير الى جوهر القضية · اننا لانجد صعوبة فى ادراك أن العـلم الحديث والتكنولوجيا المتقـدمة (جنبا الى جنب الاحتياجات العسكرية) قد أجبرا الحكومة على التدخل السافر فى مجال الاقتصاد (وكذلك فى مجال التنظيم العـام للحياة الاجتماعية) وبشكل لم يكن من المقصود حدوثه فى ظل عصر تسيطر عليه الرأسمالية الليبراليـة · وبغض النظر عما اذا كان تدخـل الدولة شيئا مرغوبا فيه أم لا ، فان ميثين Mesthene لم يذكر لنا شيئا فى مضمون هذا التدخل أو نمو القطاع العـام من حيث انمـاطه وأهدافه ، خاصة واننـا نعرف انماطا نازية وستالينية من المجتمعات ، تماما كما نعرف انظمة ديموقراطية متباينة الى حد كبير ·

ومن الانصاف القـول بأن المشكلات السياسية الحقيقية قد تتحطم فى بعض الأحيـان على عتبـة التأملات المجردة · فعنـدما ناقش ميثين Mesthene « الحاجة لاعادة بنـاء نظمنا السياسية » ، أشار الى « قوة الامتيازات الخاصة والمصـالح الشخصية التى قـد تقف عقبة فى هـذا المجـال » · بيد أن هـذا التعليق من الغموض بحيث لا يشير الى ما اذا كان المؤلف يشير الى وجود صراع حقيقى بين المصالح والقيم السياسية · فاذا كان يقصد ذلك فما هى طبيعة هــذه المصالح والقيـم · ويخصص ميثين Mesthene عددا قليلا من الصفحات لمناقشة قصيرة تناول فيها التعارض بين اتساع اختصاصات صناع القرارات (من خلال التكنولوجيا) وبعض القيم التقليدية المتعلقة بالديموقراطية · غير أن مقترحاته بصدد معالجة هذه المشكلة ، لم تتجاوز الدفاع عن احداث بعض تعديلات طفيفة على النظـم والاجـراءات حتى تكون اكثـر « ملاءمـة لواقع المجتمـع التكنولوجى الحـديث » ، وعلى نحـو يضمن المحافظـة على طابـع ديموقراطيتنا :

والملاحظ ان الاتجاه نحو التكنولوجيا (كما اشرنا اليه هنا وكما تبدى بوضوح فى برنامج هارفارد) لا يتجاوز ضرورة « الاستجابة » « لآثارها » او نتائجها · فنحن لا نلمس اشارة واحدة الى ان التكنولوجيا بصورها المختلفة يمكن ان تمثل اساسا لتفكير سياسى خلاق (سواء كان نقديا او ايجابيا) يهتم فوق كل شىء بكيفية تحقيق الديموقراطية ، وتدعيم المساواة ، وتوسيع مجال الاستمتاع الانسانى · ويبدو ضيق هذه النظرة اوضح ما يكون فى المناقشات التى تتناول دور التكنولوجيا فى مجال المعلومات · فالمشكلة تبدو فى معظم جوانبها وكأنها محاولة للتوفيق بين متطلبات الادارة الفنية ومستوى المشاركة السياسية الفعلية ، كما تبدو مرة اخرى وكأنها محاولة لسد الهوة المتسعة فى المعرفة بين « الخبراء » من ناحية « والجمهور » من ناحية اخرى · والواقع ان هذا التصور ذاته قد ظهر نتيجة لزيادة الاهتمام بعملية انتقال المعلومات بين الخبراء والمتخصصين · ويمكننا الاستشهاد على ذلك بالكتابات التى تضمنها مؤلف الان فيستن Westin بعنوان « تكنولوجيا المعلومات فى نظام ديموقراطى » (وقد ظهر كاحد منشورات برنامج هارفادر) ، وهو مؤلف يهتم اهتماما اساسيا بتقويم المديرين للأساليب الجديدة المتبعة فى الحصول على البيانات وعرضها وتحليلها ، والتى من شأنها زيادة فعالية عملية « اتخاذ القرارات فى التنظيمات » · ومن النتائج المترتبة على هذا الاتجاه تجاهل الامكانيات المتاحة لزيادة حجم المعرفة العامة وتقليل فرص مناقشة ظروف المجتمع · والواقع ان العلماء الاجتماعيين يسهمون بدورهم فى تدعيم هذا الموقف ، وذلك حينما يعتقدون أن مهمتهم الاساسية تتمثل فى تدريب اجيال جديدة من الخبراء لا التنوير العام للجمهور · لذلك يتعين زيادة الاهتمام بنشر المعلومات المتعلقة بالظروف الاجتماعية ما امكن ذلك ثم عرضها للمناقشة العامة · ولاشك ان كثيرا من الدراسات التى تتناول « المؤشرات الاجتماعية » يمكن ان تكون من الموضوعات الجيدة التى يجب ان تخضع لمناقشات نقدية بعد عرضها فى وسائل الاعلام المختلفة كالراديو والتلفزيون(١١) · ان اى انجاز يمكن ان يتحقق فى هذا السبيل سيتوقف

(١١) See, for example, Toward a Social Report (Washinton, =

ـ من غير شك ـ على مدى تطور الأفكار السياسية والحركات السياسية التى تسع الى توسيع نطاق الديموقراطية ليشمل كل مجالات الحيـاة ٠ وفى نفس الوقف فاننـا ما نزال نعتقد ان من المفيـد توضيح كيف تسهم التكنولوجيا فى احداث تحول فى الحيـاة الاجتماعية : اذ اننا لن نحقق شيئا اذا ما ظللنـا ننظر الى التكنولوجيا على انهـا قفص حديدى نبرز وجودنا داخلة ما استطعنا الى ذلك سبيلا ٠

ويمكننا أن نجـد تطويرا لبعض هـذه المجالات والأفكار فى دراسة رادوفان ريختـا Richta وزملائه ، والتى تبدو للوهلة الأولى ذات اتجاه فكرى مختلف تماما عن ذلك الذى تبناه برنامج هارفارد ٠ فدراسة ريختا Richta تنطلق اولا من نظرية شاملة عن المجتمع هى الماركسية ؛ نظرية يمكن أن تمثـل اطارا لبحث منظم يتناول العلاقة بين التكنولوجيا والبناء الاجتمـاعى ٠ والدراسة ثانيا تضع الثورة العلميـة والتكنولوجية فى اطـار نمط معين من المجتمعات هو ذلك الذى تطـور فى ضـوء مبادىء الاقتصـاد الاشتراكى ٠ واخيـرا فالدراسة تعالج كل هـذه القضايا فى ضـوء « مثـل اجتماعيـة » تتجلى فى صـورة مجتمع المستقبل الذى سيجاوز المجتمع الحـالى ٠ ويعتقـد ريختا أن مفهوم المجتمع المتجانس تماما هـو أقرب الى اساطير العصـر الصناعى ٠ فحضـارة المستقبل ستتميز ـ كما يقول ريختا ـ « بمزيد من الصراعات الحادة » ، وبظهور خبرات مهنية مختلفة وأساليب حيـاة متباينة تميز الجماعات الاجتماعية بأشكالها العديدة ٠ ومن خـلال التعارض والصـراع بين الاجيال سيظهر مزيد من الاستقطاب بين الاتجاهات التقدميـة من ناحيـة والمحافظـة من ناحية اخرى ، كما ستزداد حدة صراع الأفكار ٠

وبرغم الاختلافات الواضحة بين برنامج هارفارد ودراسـة ريختا

=

D. C; 1969); the new British publication Social Trends (London, 1970); and Same of the Papers in the Annals of the American Academy of Political and Social Science (January 1971). " Social Information for Developing Countries "

الا أن هناك تماثلا ملحوظا بينهما · فلقد تبنى ريختا منذ البداية تفسيرا للماركسية يقوم على تأكيد التأثير الهائل الذى تمارسه التكنولوجيا ، ويستند استنادا أساسيا الى الأجزاء التى عالج فيها ماركس تطور المجتمع الرأسمالى الصناعى حتى وصوله الى مرحلة الانتاج الآلى التى تتميز بسيطرة العلم بوصفه قوة منتجة أساسية · ولقد تتبع ريختا أفكار ماركس (مع بعض الاضافات) ، حيث ميز بين مراحل مختلفة من تطور النظم الاقتصادية الحديثة ابتداء من ادخال الآلات البسيطة ، ثم استخدام البخار وما يرتبط به من تركز للآلات والعمال ، وأخيرا استغلال الطاقة الكهربائية وما أدت اليه من زيادة فى التركز · وفى نهاية هذه المراحل يظهر نظام الانتاج الكبير الذى يعتمد على أعداد كبيرة من العمال الصناعيين ·

أما المرحلة التالية فى الثورة العلمية والتكنولوجية فتتضمن بعض العمليات السابقة ولكن على نطاق أكبر · ومن ذلك ادخال أشكال جديدة من الطاقة وآلات ومعدات أكثر تعقيدا ، ولكن ذلك قد يقلب خط التطور على الأقل فيما يتعلق بجانب هام هو تخفيض عدد العمال الصناعيين وظهور بناء مهنى جديد · ولقد لخص ريختا هذا التغير الكيفى حينما قابل بين نمط النمو الاقتصادى « الصناعى » أو « الممتد » extensive من ناحية (ويشير الى بناء المصانع الجديدة ، وتحسين الآلات ، ونمو عدد العمال الصناعيين) ونمط نمو « ما بعد الصناعة » أو « المكثف » intensive (بما فى ذلك اكتشاف واستغلال القوى الانتاجية ذات الكفاءة العالية وتحويل الموارد لخدمة البحث العلمى والتنمية) من ناحية أخرى · ويتوصل ريختا الى نتيجة هامة هى أن هذا النمط الجديد من الاقتصاد يتطلب ايجاد شكل جديد من المجتمعات · اذ أن الثورة العلمية والتكنولوجية يمكن أن تجد مجالها الطبيعى وتحقق فوائدها العديدة فى ظل مجتمع اشتراكى أو شيوعى ·

وهكذا نجد ريختا Richta يؤكد دور التكنولوجيا بوصفها القوة المحددة فى عملية التطور الاجتماعى(١٢) ، وأنه ـ شأنه فى ذلك شأن

---

(١٢) لا يبدو ذلك واضحا فقط فى غرضه للقضية ، بل أيضا فى التطبيقات المزيدة التى =

ميثين Mesthene — يميل الى تجاهل الحركات السياسية . بيد أن القضية الأساسية التى بسطها ريختا تنطوى على بعض الملامح المتناقضة .فبينما نجده يذهب الى أن الاشتراكية هى الاطار الاجتماعى الذى يمكن أن يتلاءم مع نظام الانتاج المستند الى العلم المتقدم والتكنولوجيا المتطورة ، الا انه يعود فيقرر أن الثورة العلمية والتكنولوجية قد ظهرت بشكل النمط الذى أطلق عليه « التطور الاقتصادى الممتد » . والحق أن احد القضايا الأساسية التى اكدها كتاب ريختا هى الحاجة (فى تشيكوسلوفاكيا) الى صناعة متطورة نسبيا ؛ صناعة تستطيع احداث تغير هام فى مجال السياسة الاقتصادية حتى يمكن التحول من النمو « المكثف » . والسؤال الذى يمكن أن يثار فى هذه الحالة هو : كيف تمارس التكنولوجيا تأثيرها الحاسم ؟ ان الدولة الرأسمالية قد ولجت « مرحلة ما بعد الصناعة » دون أن تتعرض لتغيرات اساسية فى انساقها الاجتماعية . اما تشيكوسلوفاكيا فقد حدث عكس ذلك ؛ اذ ظهر النمط الاشتراكى فى غيبة الأساس التكنولوجى الملائم .

والواقع أن هذه المشكلات التاريخية ـ والتى تتطلب تحليلا للقوى السياسية الفاعلة فى المجتمع ـ لم تكن هى الوحيدة التى ناقشها ريختا Richta فى كتابه . فهناك ايضا مشكلة حدوث التغيرات المستقبلية . والملاحظ ان ريختا يوحى لنا بانطباع مؤداه : أن التغير التكنولوجى ينطوى ـ بالضرورة ـ على تهديد للمجتمع السليم الذى وصف أبعاده بطريقة جذابة . ولكن اذا كانت الثورة العلمية والتكنولوجية قد تركت النسق الاجتماعى للرأسمالية الغربية سليما الى حد كبير ، فلماذا اذن نفترض أن هذه الثورة سوف تحدث تحولا اجتماعيا فى تشيكوسلوفاكيا ؟ ان تفسير ذلك يكمن فى النظرة التفاؤلية الحماسية التى سيطرت على

= اوردها . فعلى سبيل المثال نجده يستشهد باقتباسات من كتاب ديبولد Diebold « الوظائف والناس والآلات : مشكلات التقنية »
J. Diebold in Jobs, Men and Machines : Problems of Automation (London, 1964).
وخاصة ما تعلق منها بتصور الماركسية اللينينية للتكنولوجيا بوصفها عاملا محدودا للتغير الاجتماعى ، وأن هذه الفكرة تتطابق مع خبراتنا بالتغيرات الحالية فى أساليب حياتنا .

كتاب ريختا ، والتى كان احـد مصادرها الأفكار والحركات السياسية الجـديدة التى ظهرت الى حيز الوجـود فى تشيكوسلوفاكيا فيمـا بين سنتى ١٩٦٥ و ١٩٦٨ · ومن المعروف ان هذا النمط من التطور الاجتماعى السياسى الذى شهدته تشيكوسلوفاكيا قد اجهض نتيجـة للاحتـلال العسكرى لأراضيها فى اغسطس من عام ١٩٦٨ ·

وفيمـا يتعلق بامكانيـة حـدوث التغير الاجتمـاعى فى الدول الراسمالية ، فان ريختا يشير اليـه اشارة عابرة ، كما أن نظريتـه فى تطور القـوة المنتجة تثير مرة اخرى عـددا من المشـكلات والانتقادات المألوفة · فاذا كانت الثورة العلميـة والتكنولوجية قـد حدثت بالفعل ، وتعرضت قوة الطبقـة العاملة الصناعيـة لمزيد من الضعف والتـآكل ، فاننا قد لا نتوقع ظهور قوى اجتماعيـة (طبقـا لنظرية ماركس) تستطيع تثوير المجتمع الراسمالى · كذلك يمكن ان نثير تسـاؤلا مؤداه : ما هى القـوة الاجتماعيـة المؤثرة الآن فى المجتمـع الراسـمالى التى تستطيع تثويره اذا ما سلمنا بضعف موقف الطبقة العاملة ؟ ان الأزمة المعاصرة فى الفـكر الاجتماعى الراديكالى تتمثل ـ اساسا ـ فى عدم قدرته على الاجابة على هذا التساؤل ·

ومن اليسير التعرف على أسـباب تأكيـد بعض العلماء ـ امثال ميثين Mesthene وريختا Richta ـ للتأثير الهـائل الذى يمارسه العلم والتكنولوجيا ، وتجذبهم ـ بالتالى ـ معالجة القوى الأخرى فى المجتمعات الحديثة ، تلك القوى التى قـد تسهم فى حدوث التغير أو تحـول دونه · ان التأثير الذى يمارسه العلماء والتكنولوجيون قـد اصبح بالغ الوضوح والأهميـة ؛ فهم يشكلون جماعات مصالح قوية ، كمـا انهم يستطيعون كسب تأييـد الجماعات الأخـرى لأن نشاطاتهم قـد اصبحت اساسية بالنسبة لأهـداف النمـو الاقتصـادى والقـوة العسكرية · وفى نفس الوقت انتشرت النظرة العلميـة والتكنولوجية انتشارا كبيرا حتى وصلت الى حد السيطرة على الثقـافة فى المجتمعات الصناعية · ولقد أدى ذلك الى ظهـور الموقف التالى : بينما يعتقـد البعض ان السلطات السياسية تتولى عموما توجية التقدم التكنولوجى (من خـلال تمويل البحوث مثلا) ،

فان هـــذه السلطات ذاتها تميـل الى اتخاذ قراراتها فى اطـار عقلية تكنولوجية تستند الى نصائح « الخبراء » وارائهم ·

ومن الجوانب الهامة فى هذا الموقف غلبة الطابع العلمى والتكنولوجى على العلوم الاجتماعيـة · فمنذ نهـاية الحرب العالميـة الثانية ازدادت العلوم الاجتماعية التطبيقية اهميـة · وبرغم الانتقادات الحديثـة التى وجهت الى هـذه العلوم ، فان البحوث التى تجرى فى اطارها تأخـذ ـ وبشكل متزايد ـ الطابع الكمى وتخضع لسيطرة النزعة التطبيقية بهدف الوصول الى حلول فنيـة للمشكلات الاجتماعيـة · ومن الأمثلة المعبرة على ذلـك ما يطلق عليـــه « قانون فورستر »(١٣) Forrester's Law اذ يذهب فورستر ـ مستخدما مفهـوم المناطق الحضـرية الفقيرة ـ الى ان كثيرا من برامج الاصلاح التى يتم تنفيذها قـــد تؤدى فى واقع الأمر الى تعقيد الظروف التى من اجلها صممت هـــذه البرامج ؛ ذلك لأنهـا لا تأخـذ فى اعتبارها عـــددا كبيرا من المتغيرات التى تسهم فى تشكيل هـذه الظروف · وفى حالة التدهور الحضرى نجـد فورستر يذهب الى ان المناطق الحضرية تضم اعدادا كبيرة من الوحدات السكنية الشعبية ، وان زيادة هذه الوحدات قـد يجذب السكان الفقراء بحيث تزداد اعدادهم عن اعـداد الوحدات السكنية ، وبالتالى تبـدا علامات التدهور متمثلة فى انخفـاض مستوى الاسكان ونقص الخـدمات الاجتماعية · والعلاج الذى يقترحه فورستر لهـــذه المشكلة وغيرها من المشكلات هـو تصميم برامج حسابية اليـة لدراسة الانساق الاجتماعيـة ؛ برامج تتمكن من حصر اكبر عدد ممكن من العوامل ، والكشف عن علاقاتها المتبـادلة ، ثم التنبؤ بدقة بنتائج تدخـل عامل او اكبر فى الموقف ككل · والملاحـظ ان فورستر قـد وضع مشكلة التدهور الحضـرى فى اطـار نموذج طموح يتناول التفاعل (على نطـاق عالمى) بين عناصر مختلفـة هى : السكان ، والتصنيع ، واستنزاف الموارد الطبيعيـة ، والزراعة ، وتلوث البيئـة ·

---

(١٣) هذا هو عنوان المقال المنشور فى صحيفة نيويورك تايمز (١٤ يونيو ١٩٧١) ·
اما المقال الذى كتبه فورستر فقد حمل عنوان :
" Counterintuitive Behavior of Social Systems ", appears in Technology Review, Vol. 73, No. 3 (January 1971).

والواقع اننى بعيد عن اتخاذ موقف الادانة من مثل هذا الاتجاه · اذ اننا نفضل أن تكون سياستنا الاجتماعية مستندة الى تناول مستفيض ودقيق لمختلف عناصر الموقف الاجتماعى · اما استخدام نماذج الحاسبات الآلية فيواجه مشكلات وحدودا قد تقلل من حماسنا · اذ أن من اليسير تحديد كل المتغيرات المرتبطة بالموقف او تعيين اهميتها النسبية وذلك على نحو ما فعل علماء السكان فى محاولاتهم اقامة نماذج تتناول التغيرات التى تطرأ على الخصوبة البشرية · والنقطة التى تبدو اكثر اهمية بالنسبة لى فى هذا المجال هى : أن كل برنامج للاصلاح الاجتماعى (وحتى ولو كان داخل منطقة محددة كالاسكان أو الفقر أو التفرقة العنصرية) هو جزء من تقويمات الجماعة الاجتماعية التى تسعى الى المحافظة (أو استبدال) على شكل معين للحياة الاجتماعية · فمصالح سكان الحى المتخلف قد تتعارض مع مصالح ملاك الأرض داخل هذا الحى ، تماما كما تتعارض مصالح الأغنياء مع مصالح الفقراء · وقد يتخذ هذا التعارض فى المصالح ـ وبدرجات مختلفة من الوضوح والحدة ـ صورة المعتقدات السياسية والعمل السياسى ومن هنا يبدو قصور الحلول الفنية للمشاكل الاجتماعية ، اذ انها تفترض وجود سياسة عملية اكتسبت معناها من ارتباطها ببعض التقويمات التى تحدد معايير المجتمع السليم ، وأن الحكم على هذه السياسة يتحدد فى ضوء النتائج التى قد يسفر عنها النضال السياسى ·

والمؤكد ان الأهمية التى اكتسبها كل من العلم والتكنولوجيا قد ازدادت تدعيما من خلال الضعف النسبى للفكر السياسى ؛ ذلك الفكر الذى يواجه مشكلات معاصرة على درجة عالية من التنوع والتعقيد · يضاف الى ذلك صعوبة حل هذه المشكلات وافتقاد الأحكام السياسية للصدق والوضوح · ان اى ناقد قد يجد سهولة كبيرة حينما يهتم بدراسة أحد النتائج السلبية للتقدم التكنولوجى (وغالبا ما يطالب بمزيد من التكنولوجيا لمواجهة هذه النتائج) ، بينما قد يواجه صعوبة بالغة حينما يحاول التوصل الى وجهة نظر سياسية شاملة · ويحق لنا أن نتساءل هل هناك اطار للفكر الاجتماعى يستطيع تناول المشكلات المعاصرة ويتوصل الى حل لها كالحروب النووية والبيولوجية والانفجار

السكانى وتلوث البيئة واستنزاف الموارد الطبيعية والتهديد باحتكار بنوك المعلومات ؟

وتبدو الاجابة على هذا التساؤل اكثر صعوبة اذا ما علمنا ان كل مشكلة من هذه المشكلات تنطوى على ابعاد قد يستحيل حلها على نحو فردى • فمن المعروف ان دولة بمفردها لا تستطيع القضاء على مشكلة تلوث البيئة ؛ اذ أن هواءها وماءها قد يتلوثان من جانب دولة أخرى • واذن فالمشكلة عالمية فى نطاقها • ومثل هذا عن النمو السكانى يقال • اذ ان دولة واحدة (أو حتى مجموعة قليلة من الدول مجتمعة) لا تستطيع ان تؤثر تاثيرا كبيرا على معدل زيادة سكان العالم • واذا ما حاولنا رسم سياسة سكانية عالمية ، فستظهر مشكلات كثيرة ، لقد اشار بعض علماء السكان البارزين الى ان دراسة التحكم فى عدد السكان لا تزال بعيدة عن الدقة • فنحن لا نملك القدر الكافى من المعرفة الذى يمكننا من التعرف على عوامل الخصوبة حتى نستطيع التخطيط الدقيق لسياسة سكانية وعلى الأخص فيما يتعلق بالحجم • وحتى لو نجحنا فى ذلك ، فستظهر مشكلات اخرى يتعين مواجهتها : فحجم السكان مرتبط ارتباطا وثيقا باعتبارات تتعلق بالمصلحة الوطنية والقوة القومية ، مما قد يجعل الاتفاق على تحديد عدد السكان امرا أكثر صعوبة من الاتفاق على تحديد تسليح الجيوش • وفضلا عن ذلك فان محاولة الوصول الى اتفاقيات وقواعد دولية فى هذا المجال والمجالات الاخرى ، ستؤدى الى ظهور مشاكل جديدة • اذ ان ايجاد سلطة دولية ذات تاثير فعلى يتطلب نظما للحكم تبعد عن الفردية وتعتمد اعتمادا كبيرا على البيروقراطية بما تستند اليه من اعتبارات موضوعية •

وفى مواجهة هذه المشكلات الحادة بدا موقف الفكر السياسى ضعيفا للغاية ؛ اذ ان كثيرا من الناس لايزالون يتشككون فى مدى الاعتماد عليه ، ان العلم والتكنولوجيا يزودان الانسان بنوع معين من المعرفة ويرتبطان بالفعل الانسانى ارتباطا وثيقا • وعلى النقيض من ذلك نجد التقويمات والأحكام السياسية تبدو غير يقينية وتخمينية • فمن اليسير دحضها خاصة اذا ما اتخذت صورة النقد لمجتمع مستقر •

ويبـــدو ذلك واضحا فى عـــدد من الدراسات النقـــدية التى تتناول التكنولوجيا · فعلى سبيل المثال نجـد دينيس جابور Gabor يطالب ـ وبعبارات غامضة ـ بضرورة التحول الى « مرحلة حضـارية جديدة » ، بينما نجـد ايوجين شفارتز Schwartz يعرض لتصـــورات سحرية عن الطبيعـة · أما الراديكاليون فانهم يتبنون مفـــاهيم « كالاشتراكيــة » « والثورة » بدلا من محاولة الوصول الى مذاهب سياسية جديدة »(١٤) ·

وبرغم كل ما سبق ، فاننــا نلمس الآن بدايات للتغيــر ، ظهــرت معالمها مع أحــداث سنة ١٩٦٨ · لقــد ازداد الاستياء السياسى وتعقدت المصالح السياسية الجديدة · ومن الصعب أن نجد الآن أحــدا يعتقد بأن النمو الاقتصادى والتقدم التكنولوجى يمثلان هدفين واضحين بذاتهما · ان الطريق قـد أصبح مفتوحا الآن لعقـد مناقشات عامة للاختيــارات المتاحة الآن أمام النــاس ، مع تسليمنا ـ بطبيعة الحــال ـ بالدور الذى يلعبه العلم والتكنولوجيا فى تحديد الشكل المستقبلى للحياة الاجتماعية · ويتعين على هــذه المناقشات أن تتجـاوز التأملات التى يقدمها علمــاء عـلم المستقبل والانتقادات الفردية ، وأن تعقد هــذه المناقشات فى أطار الأحزاب راديكالية ، تلك التى تبنت منذ وقت مبكر النظرة التكنولوجية الخالصــة · ان ذلك كله يخلق لدينــا الأمل بأننا قـد اتخذنا الخطوات الأولى فى عصر يتسم بالجدل والنشاط السياسيين ·

---

(١٤) ومن الأمثلة الجيدة على ذلك (وان كانت من مجال مختلف) كتاب تريزا هايتر Hayter بعنـــوان « المســـاعدة كامبرياليـــة » Aid as Imperialism (Harmondsworth, 1971) بعد تحليل دقيق لأسباب فشل المساعدات الاقتصادية الغربية فى مساعدة الدول النامية نجد المؤلفة تتوصل الى نتيجة مؤداها ، أن تقويمها السلبى لهـذه المساعدات يستند الى ملاحظة النسق الاجتماعى ـ الاقتصادى : « ففى ظل الاشتراكية بما تفرضه من مبادىء للتضامن الدولى ، فان الأمور تتخذ شكلا مختلفا » · والواقع أن هذه العبارة ليست مقنعة فى حد ذاتها · أولا لأن هناك مشكلات واضحة فى العلاقات القائمة بين الدول الاشتراكية المعاصرة · وثانيا لأن الاشتراكية لا يمكن أن تكون حلا حاسما ، الا اذا قدمنا الدليل على أن النظم والاجراءات الاشتراكية سوف تؤدى الى أمور مختلفة بالفعل ·

الفصل الثالث عشر

تأملات فى الحركة الطلابية (١)

تمثل الحركة الطلابية منذ أواخر ستينات القرن العشرين ظاهرة عالمية تبعث على الاهتمام بوصفها أحد أشكال العمل السياسى • ففى كثير من الدول عبرت هذه الحركة عن معارضتها للماضى : فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث لا نجد تقاليد تاريخية راسخة للنشاط السياسى للطلاب ، وفى بعض الدول الأوربية حيث نجد النشاط السياسى للطلاب يرتبط منذ فترة مبكرة بأهداف الحركات الراديكالية ومذاهبها • وهناك سمتان هامتان تميزان الحركة الطلابية المعاصرة : الأولى دعواها بأنها حركة سياسية مستقلة ، وهذا ما يبدو واضحا فى لغتها وأفكارها وعلاقاتها الوثيقة بمختلف قطاعات الحركة الراديكالية • أما السمة الثانية فهى اهتمامها (أى حركة الطلاب) ببناء وديناميات الجامعة ذاتها • ولقد دفعت هاتان السمتان بعض العلماء الى مناقشة فكرة وجود « وعى طلابى » يمكن أن يشبه من وجوه عديدة « الوعى الطبقى » لدى العمال الصناعيين خلال القرن التاسع عشر • ولقد ذهب عالم الاجتماع الفرنسى آلان تورين Touraine الى أن هناك تماثلا واضحا بين الطلاب والعمال • ففى الجامعات الفرنسية الكبيرة الحجم ـ وفى جامعة كجامعة نانتير Nanterre حيث تواجه عزلة اجتماعية ـ أصبح الطلاب يشكلون جماعة متميزة تشبه فى بعض الوجوه العمال الصناعيين فى المصانع الرأسمالية المبكرة ، فضلا عن أن ثمة تشابها بين المعتقدات التى يؤمن بها الطلبة الآن والتصورات اليوتوبية التى آمن بها الاشتراكيون الأوائل • ويواصل تورين Touraine

---

(١) Reprinted with minor revisions, from the Universities Quarterly, 22 (4) (September 1968).

تدعيم وجهة نظره . ذاهبا الى أن الجامعـــات فى كل الدول المتقـــدمة تكنولوجيا قد اصبحت احدى « القوى الأساسية فى عملية الانتـــاج » ، بحيث يمكن القول ـ فى ضوء هذا التصور شبه الماركسى ـ ان الطلاب قد ورثوا الدور الذى كانت تلعبه البروليتاريا(٢) · وباستطاعتنا أن نجـــد افكارا مماثلة ـ ولكن من منظـور مختلف ـ عنـــد هيربرت ماركيـــوز Marcuse الذى تاثر الى حد كبير برايت ميلز Mills فى تاكيده أن الطبقة العاملة الصناعية ـ وخاصة فى مجتمع الاســـتهلاك والوفره كالولايات المتحدة ـ قد فقدت رغبتها وقدرتهـــا على احـــداث تغييرات راديكالية ، وأن دورها الثورى القديم قد وقع الآن على كاهل المثقفين الشباب الذين يمثلون عموما طلبة الجامعات · وفى مقال حديث يحاول ماركيوز توضيح وجهة نظره قائلا : انه لا يعتقد بان الحركة الطلابيـة المعاصرة تمثل قوة ثورية ، ولكنها (أى الحركة) تعد عنصرا ـ داخل المجتمع الأمريكى ـ قد يتحول الى قوة ثورية بالتحالف مع الجماعات المسحوقة وعلى الأخص الزنوج(٣) ·

والواقع أن الخبرة الأمريكية والتفسيرات التى قدمهـــا المفكرون الأمريكيون لها كانت احد العوامل الهامة التى أدت الى ظهور تصـــور جديد للدور السياسى للطلاب · اما فى أوربا فان الحركة الطلابية قـــد نشات ونمت من خلال اليسار الجديد ، بمعنى انها تطورت من خـــلال عملية احياء الراديكالية التقليدية التى تشكلت فى سنة ١٩٥٦ نتيجـــة لمعارضة العدوان الثلاثى على مصر ، وتمرد العمال البولنديين والمجريين، ومعارضة المثقفين لنمط الحكم الستالينى · وفى نفس الوقت ظلت الحركة الطلابية حريصة على العلاقات القوية التى اقامتها مع الحركات العمالية والاشتراكية ذات التقاليد الراسخة · اما فى الولايات المتحدة فان الطلاب

---

(٢) Alain Touraine, " Naissance d'un mouvement étudiant?", Le Monde, 7 and 8 March 1968.

The May Movement : Revolt and Reform (New York, 1971).

(٣) Herbert Marcuse, " Das Problem der Gewalt in der Opposition ", in Psychanalyse und Politile, PP. 546.

هم الذين أسهموا الاسهام الأكبر فى تشكيل اليسار للجديد ، والمشاركة في حركة الحقوق المدنية ، والدفاع عن الثورة الكوبية ، ومعارضة الحرب الفيتنامية · والملاحظ أن الحركة الطلابية فى الولايات المتحدة قد اكتسبت ثقتها بنفسها ــ فكريا وسياسيا ــ من خلال عملية النقد الرأديكالى للمجتمع الامريكى ، ذلك النقد الذى شنه الجيل السابق من المفكرين خلال فترة المكارثية · ويتعين علينا توضيح هـذا الموقف بشىء من التفصيـــل : فالولايات المتحدة لم تشهد منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حركة عمالية سياسية ، ولم تعرف حزبا راديكاليا شعبيا يمكن أن يكون مصدرا لحركة راديكالية جديدة · ويصدق ذلك أيضا على الفترة التى أحس فيها كثير من الأمريكيين بعدم الارتياح لسياسة حكوماتهم الداخلية والخارجية · وكنتيجة لذلك بـدأ الطلاب الجامعيون يقومون بدور بارز فى التعبير عن عدم الرضا عن السياسة الحكومية ، ثم المعارضة فيما بعد · ولقد ظل الطلاب الجامعيون يشكلون عنصرا هاما فى الحركة الراديكالية (حتى بعد ظهور حركة الزنوج المسلحة) ، ومصـــدرا للأفكار النقدية · وفضلا عن ذلك نجدهم يتولون قيادة المظاهرات الجماهيرية ويلعبون دورا أساسيا فى التأثير على السياسة القومية من خـــلال تأييدهم لمرشحى المعارضة وخاصة خلال حملة رئاسة السيناتور ايوجين مكارثى **McCarthy** .

ويمكننا تفسير التأثير العـــالمى الذى تمارسه الحركة الطـــلابية الأمريكية فى ضوء الدور السـياسى الذى تلعبه فى الولايات المتحدة ، فضلا عن أن الطلاب الأمريكيين كانوا أول طرف متصارع داخل الجامعة ذاتها كما يتمثل ذلك فى « حركة الخطابة الحرة فى بيركلى » التى تأسست فى سنة ١٩٦٤ · بيد أن هذا التأثير لم يكن ليظهر الى حيز الوجود لو لم توجد عناصر مشتركة فى موقف الطلاب فى معظم الدول الصناعية · فمن ناحية نجد ظروفا سياسية عامة : النتائج العالمية لحرب فيتنام ، والصراع بين الأجناس كما يتجلى فى الولايات المتحدة وكمـا يوجـــد فى الدول الصناعية الأخرى وعلى الصعيد الدولى متمثلا فى العلاقة بين الدول الغنية البيضاء والدول الفقيرة الملونة ، فضلا عن ظهور مواقف سياسية

تحول دون التعبير عن الامتياء الجماعى وعلى الأخص فى بعض الجامعات ذاتها : النمو المضطرد فى أعداد الطلاب ، وكبر حجم الجامعات ، وظهور جيل جديد اكثر ميلا للنقد والتذمر ، فضلا عن استمرار الادارة الجامعية التسلطية او الأبوية على الاقل بالنسبة لبعض الدول الأوربية ٠

ولو افترضنا قبول الآراء التى تميل الى تاكيد المضمون السياسى للحركة الطلابية فى الولايات المتحدة ، ووجود ظروف عديدة تدعم موقف الحركات الطلابية فى بعض الدول الصناعية ، فاننا لن نستطيع بسهولة قبول الفكرة الذاهبة الى ان الحركة الطلابية ـ على المستوى العالمى ـ تمثلالوريث او الابن التاريخى للحركةالعمالية ٠ اذ ان هناك اختلافاتكبيرة بين الحركة العمالية (المبكرة والحديثة) والحركة الطلابية ٠ فمن ناحية نجد الطلاب لا يشكلون جماعة مقهورة او مستغلة داخل المجتمع ٠ حقا قد يوجد فى بعض الدول او الجامعات قدر من الامتياء نتيجة للظروف الاقتصادية السيئة للطلاب ، وقلة الخدمات التى تقدم لهم ، وعدم الرضا عن علاقاتهم بالاساتذة والاداريين ، فضـلا عن عـدم ارتباطهم لطبيعة النظام الجامعى ذاته ٠ لكننا اذا ما وضعنا الطلاب الجامعيين فى اطار المجتمع ككل ، وجدناهم يشكلون جماعة متميزة ٠ فهم يأتون ـ بصفة عامة ـ من اسر تنتمى الى الطبقتين الوسطى والعليا ، وبعد تخرجهم من الجامعة يستطيعون الالتحاق بمهن تحقق لهم دخولا اقتصادية عالية نسبيا ٠ اما الضغوط التى قد يخضعون لها داخل الجامعة فهى ـ فى اسوا حالاتها ـ ضغوط هينة اذا ما قارناها بتلك التى يخضع لها العمال داخل المصانع ٠ واذن فموقف الطلاب افضل بكثير اذا ما قارناه بموقف العمال الصناعيين، والزنوج فى احيائهم الحضرية المتخلفة ، والفلاحين فى الدول النامية ؛ وان من العبث تصور عكس ذلك ٠ ومن ناحية اخرى نجد الطلاب لا يشكلون غالبية السكان ٠ وهكذا نجد ان تصور ماركس والاشتراكيين الأوائل عن « ثورة الغالبية الساحقة » لايكاد ينطبق على الطلاب ٠ وكاقلية صـغيرة لا يتوقع الطلاب ان يقوموا بما هو اكثر من مجرد التشخيص الراديكالى لظروف المجتمع ؛ بعبارة اخرى ان ينفذوا الوظيفة التقليدية التى يقوم بها المثقفون الراديكاليون؛ او ان يتحالفوا مع الجماعاتالاجتماعية الأخرى فى

اطار حركة اجتماعية أوسع · وفى كثير من الدول حاولت الحركة الطلابية اقامة تحالف اتخذ أشكالا عديدة : ففى الولايات المتحدة تحالفت الحركة الطلابية مع الزنوج والجماعات الفقيرة ، وفى فرنسا والمانيا الغربيةتحالفت مع نقابات العمال ؛ وان لم يحقق التحالف الأخير نجاحا يذكر · ولا يمكن تفسير هذا الفشل فى ضوء عدم توافق أو الانسجام الايديولوجى بقدر ما يمكن تفسيره فى ضوء المواقف الاجتماعية المتباينة للجماعات المختلفة · فالزنوج والعمال الصناعيون يشكلون جماعتين تعبران عن مصالح معينة وتمارسان بالفعل نضالا يوميا ؛ أما الحركة الطلابية فهى تمثل ـ أساسا ـ تعبيرا عن حركة نقدية فكرية أخلاقية للمجتمع · أن هـــذه النشاطات المتميزة (أى النقد الراديكالى والصراع حول المصالح المادية) قد ارتبطت فيما بينها وتبادلت التأثير والتأثر كما يوضح ذلك بجلاء تاريخ الحركة العمالية من ناحية والنظرية الماركسية من ناحية أخرى · بيد أن العنصر الأساسى فى كل الحركات الراديكالية الدائمة يتمثل فى الخبرات الواقعية المعيشية التى تحياها الطبقات المقهورة أو المستغلة · واخيرا فان الطلاب ـ على خلاف كل من العمال والفلاحين وأفراد الجمـــاعات العرقية ـ يفتقرون الى العضوية المستقرة والدائمة · اذ أن فترة الدراسة الجامعية تبلغ فى المتوسط أربع سنوات ومعنى ذلك أن الطالب يشغل وضعا مؤقتا ولايحتل مكانة دائمة داخل المجتمع · ولكل هذه الاعتبارات فان من الصعب أعتبار الحركة الطلابية المعاصرة حركة راديكالية ذات دعائم مستقرة ·

وبرغم كل ما سبق فان بالامكان تفهم المصالح الاجتماعية المتميزة التى تمثلها الحركة الطلابية اذا ما أخذنا فى اعتبارنا نقطتين هامتين · أما النقطة الأولى فهى أن الطلاب يعبرون بوضوح شديد عن إســتياء وطموح الشباب ككل ؛ أى أنهم (أى الطلاب) يمثلون « طليعة » حزب « شبابى » ان جاز لنا استخدام هذا التعبير · ولدينا حـول هذه النقطة شواهد عديدة من مصادر مختلفة · فالحركة الطلابية ـ وعلى الأخص فى الولايات المتحدة ـ تبدو وكأنها استمرار ـ ولو بشكل جزئى ـ للتمرد غير السياسى الذى قام به الشباب خلال الخمسينات ؛ ذلك التمرد الذى تجسد فى أفلام وحياة جيمس دين James Dean · أما النقطة الثانية فهى

أن هناك دلائل تشير الى وجود ثقافة معاصرة خاصة تميز الشباب ؛ وهى ثقافة تتجاوز حدود الحركة الطلابية سواء داخل الدولة الواحدة أو على مستوى عالمى وذلك بفضل تكنولوجيا وسائل الاتصال ٠ أما أسباب الاختلاف أو الصراع بين الأجيال فهى ليست واضحة تماما ، على الرغم من أن هناك عوامل عامة تؤثر فى هذا المجال مثل سرعة التغير التكنولوجى ، وارتفاع مستوى المعيشة ، وزيادة نسبة الشباب داخل الهرم السكانى بالنسبة لبعض الدول ٠ وعلى أية حال فان بالامكان القول ان ثمة روحا جديدة تنتشر فى مختلف أنحاء العالم ٠٠ لكن هذه الروح تختلف عن تلك التى ظهرت خلال فترة مضطربة من التاريخ الأمريكى فيما قبل الحرب العالمية الأولى ، والتى أشار اليها راندولف بورن Bourne فى مقالاته عن « الشباب والحياة Youth and Life حيث عبر عن احساسه بزيادة التناقض بين الامكانيات الجديدة للسعادة الانسانية من ناحية ، والتهديد بالحروب التدميرية من ناحية أخرى ٠ ويبدو هذا التناقض أوضح ما يكون الآن : ذلك أن انجازاتنا التكنولوجية قد تخلع عن اليوتوبيا طابعها الخيالى (كما أشار الى ذلك ماركيوز Marcuse)(٤) ، فى الوقت الذى تجعل الدمار الشامل أمرا ممكنا ٠ ولقد عبر الشباب من خلال الحركة الطلابية عن احساسهم العميق بهذا التناقض ، وبدا ذلك واضحا تماما فى شعاراتهم التى تطالب « بممارسة الحب لا شن الحروب » ٠

ويمكننا التعرف على العلاقة الوثيقة بين الحركة الطلابية من ناحية وثقافة الشباب بمعناها الواسع من ناحية أخرى من خلال بعض المواقف

---

(٤) " Das Ende der Utopie ", in Psychanalyse und Politik, PP. 69 - 78.

والواقع أن وجهة نظر ماركيوز Marcuse تعد – من زاوية أخرى – يوتوبية فعلى الرغم من أن اليوتوبيا قابلة للتحقيق تكنولوجيا واقتصاديا ، الا أن الشىء غير المؤكد هو ما اذا كان يجب تطوير العلاقات الاجتماعية الضرورية للمحافظة عليها فالمجتمع القائم على المساواة قد يؤكد أهمية الخصائص الانسانية التى قد تكون « متخلفة » ان جاز استخدام هذه الكلمة كما هو الحال بالنسبة لخاصيتى التعقل والاعتدال ٠ وفضلا عن ذلك فاننا ما نزال نفتقر الى المعرفة الدقيقة للظروف التى من خلالها تستقر العلاقات الاجتماعية الجديدة كما هو الحال بالنسبة لنظام « التسيير الذاتى » فى المصانع اليوغوسلافية ٠

الخاصة · فخلال تمرد مايو ١٩٦٨ فى فرنسا ـ مثلا ـ نجح الطلاب فى جذب العمال الصناعيين الشباب الى حركتهم ، بينما ظلت نقابات العمال بعيدة عن الموقف ككل · وأعتقد أن من الخطأ القول هنا بأن الهوة بين الأجيال قد تؤدى الى ظهور اية توجيهات سياسية جديدة ، أو ان من المحتمل ظهور حزب سياسى يعبر عن الشباب فى مقابل حزب اخر يمثل الفئة الأكبر سنا · ان مرحلة الشباب مرحلة مؤقته ـ شأنها شأن مرحلة التعليم الجامعى ـ بحيث لا تشكل ظرفا كافيا لتشكيل حركة سياسية دائمة · وهناك شواهد عديدة تشير الى أن عدم ارتباط الأفراد بالتنظيمات السياسية المستقرة فى بعض الدول الصناعية قد يتخذ شكل التعاطف مع الحركات والأحزاب السياسية الجديدة المستندة الى الروابط العرقية واللغوية والثقافية ، وذلك من خلال احياء نزعات قومية مختلفة كما هو الحال بالنسبة للزنوج الأمريكيين ، والناطقين بالفرنسية فى كندا · ومن الطبيعى أن تكون الروابط بين ذوى القومية الواحدة أقوى من تلك التى توحد ذوى الجيل الواحد ·

وتعتبر الجامعة هى المجال الوحيد الذى تتوقع فيه ظهور وعى ذاتى بين الطلاب بوصفهم جماعة اجتماعية متميزة · ولقد اتخذ هذا الوعى الذاتى ـ فى أشد صوره تطرفا ـ وجودا واقعيا من خلال الشعار الذى رفعه الطلاب مؤخرا وهو « القوة الطلابية » وفى الحالات التى كانت فيها الجامعة طرفا اساسيا ، لوحظ أن احتجاجات الطلاب كانت أكثر شمولا وتناولت قضايا سياسية عامة كما هو الحال فى جامعات بيركلى بأمريكا ، وكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بلندن ، ووست برلين بالمانيا ، ووارسو ببولندا ونانتير بفرنسا · وعلى الرغم من وجود اختلافات ملحوظة بين هذه الدول ، الا أن حيوية الحركة الطلابية فى كل مكان تعتمد ـ الى حد كبير ـ على قدرتها على التعبير عن الاستياء الوطنى الذى لا يجد له متنفسا آخر · ويبدو ذلك أوضح ما يكون فى الولايات المتحدة ، حيث نجد الطلاب يقودون مظاهرات ضد الحرب الفيتنامية والفقر واستغلال الزنوج · وفى تشيكوسلوفاكيا وبولندا نجد الطلاب أيضا يلعبون دورا هاما فى عملية النضال من أجل مزيد من الحرية السياسية والثقافية ؛ ثم نجدنهم فى

فرنسا يتمردون ـ وعلى نحو جماعى ـ ضد التسلطية التى استند اليها نظام شارل ديجول ٠

ان قدرة جماعة راديكالية على قيادة اعداد كبيرة من الطلاب للقيام بحملات من أجل بعض القضايا السياسية الوطنية ، تتوقف بدورها على قدرة تأثير هـذه الجماعة داخـل الحرم الجامعى وما يرتبـط بذلك من مشكلات تتعلق ببناء الجامعات واساليب ادراتها ٠ ويعـود النجاح الذى حققه الطلاب فى هـذا المجال الى أنهم قـد طالبوا بايجـاد ضـرب من المساواة أو المشاركة قـد يبدو ملائما تماما للجامعة كمؤسسة علميـة ٠ ويمكننا أن نجد ترديدا لهذه الأفكار داخل حركة « القوة الطلابية » (وهى تسميـة تعبر عن مطامح متنوعة) ، كما أن درجة المشـاعر التى تثيرها (أى الأفـكار) يتوقف ـ بطبيعة الحـال ـ على طبيعة البنـاء الجامعى الذى يوجهـه الطلاب ٠ ففى امريكا الشمالية (سواء الولايات المتحـدة أو كندا) نجـد مجالس ادارات الجامعات تضم ـ فى معظمها ـ عـددا كبيرا من الأعضـاء غير الأكاديمين ، وتلك نقطة اشار اليهـا ثورشتاين فيبلن Veblen فى سخرية وازدراء قبـل نصف قرن من الزمان فى معرض كتابة عن «التعليم العالى فى امريكا» The Higher Learning in America. ولقد طالب الطلاب وهيئات التدريس بضرورة احـداث تغييرات فى هذا المجال على نحـو يحقق مزيدا من الاستقلال الاكاديمى والادارة الذاتيـة٠ وتحاول بعض القيادات الطلابيـة الراديكالية مناقشة هـذه القضايا من زاوية أكثر تخصيصا ، حينمـا تذهب الى انه مع التسليم بالعرف الذى يجعل الاكاديميين يسيطرون على الأمـور اليوميـة الحساسة كالمقررات الدراسية وتعيين هيئـات التدريس ٠٠٠ الخ (برغم أن مجلس الجامعة ورئيسها يحتكرون ما تبقى من سلطات فى هـذا المجـال) ، مع التسليم بذلك كله فان المشاركة فى ادارة الجامعـة لا تزال مقصورة على جماعة صغيرة من كبار الأساتذة والاداريين ، وأن الروح الرئاسية البيروقراطية ماتزال تسيطر على الادارة الجامعية ٠ لذلك نجـد هذه القيادات تطالب بتدعيم الروح الديموقراطية داخـل الجامعات ٠ ولقـد عبر توم هايدين Hayden عن هـذه الاراء ونشرها ضمن منشورات « تحالف الطـلاب الراديكاليين » بعنون « اعرف القوة الطلابية » يقول هايدين :

« أن زمالة الطـلاب هى زمالة افراد متساوين ٠ فليس لأى منهـم الحق فى تجاوز الحقيقـة ، على الرغم من ان البعض قديبدو ارجح عقلا او اعمق ثقافة او اكثر معرفة ٠

ولأن الجامعـة تتمتع بوجود قوى وتتولى الوظيفة التعليمية ، فان المسئولية الأساسية للطلاب تتمثل فى توجيه الجامعة فى هذا الاتجاه ٠ ولأن التعليم عملية ليست ذات اتجاه واحـد ، ولأن التقاليـد الجامعية يجب أن تتلاءم مع النظـرة الجديدة للشباب ، ولأن الديموقراطية تتطلب رقابة شعبية للقرارات الهـامة ؛ لذلك كله فان من المهم ان يشارك الطلاب الأساتذة فى تطوير جامعتهم » ٠ ص ٥٠ ٠

ولقد انتشرت هذه المثاليات والأفكار انتشارا كبيرا داخل الحركات الطلابية خلال السنوات الأخيـرة ، كما حاول البعض تطبيقها فى مواقف مختلفة ٠ ففى فرنسا شنت المعارضة الطلابية هجـوما شديدا على تحكم موظفى وزارة التربيـة والتعليم وكبار الأساتذة فى الادارات الجامعية ٠ وفى تشيكوسلوفاكيا وبولندا هاجم الطلاب سيطرة كبار رجـال الحزب الشـيوعى على مجـالس ادارة الجامعـات ٠ امـا فى بريطانيـا فان الاحتجاجات الطلابية كانت اقـل راديكالية ؛ لأن الجامعات تتمتع بقـدر ملحوظ من الادارة الذاتيـة الأكاديمية ، وان كان ذلك لاينطبق على كل معاهد التعليم العـالى ٠ ومع ذلك ففى بريطانيا ـ شأنها فى ذلك شـأن الدول الصناعية الأخرى ـ نجـد المعارضة تنصب على التحكم الخارجى المباشـر فى مجالس الجامعات من خلال الاعضـاء المعينين من الخارج بحكم مناصبهم والسياسيين وكبـار الموظفين الحكوميين ٠ ولقـد حاولت بعض الجماعات الطلابيـة مواصلة هـذه المعارضة بتوجيه الانتقادات للقيود غير المباشرة ـ وعلى الأخص الاقتصادية ـ المفروضة على الادارة الذاتية الأكاديمية ٠ كذلك سعت هـذه الجماعات الطلابيـة الى تطوير فكرة « الجامعة الديمقراطية »ومنحها مدلولا واقعيا لكى تكون بديلا عن التصورات التى تؤكد دور الجامعة «كمصنع للمعرفة » ٠ وربما كانت هذه المحاولات احـد المعانى المكنة التى يمكن ان يشير اليهـا تعبير « القوة الطلابية » ٠ ففى النشرة التى اصدرها « تحالف الطلبـة الراديكاليين »

والتى اقتبسنا منها العبارات التى أشرنا اليها قبل قليل ، نجد اقتراحات تطالب بأن يكون الأساتذة أقل تأييدا للواقع القائم ، وأن يتبنوا وجهات نظر اجتماعية وأكاديمية أكثر راديكالية من تلك التى يتبناها طلابهم ٠ وأعتقد أن من الصعب التسليم بما تذهب اليه هذه القيادات الطلابية ، خاصة واننا نجد من بين كبار الأساتذة من يتخذ مواقف راديكالية أمثال هيربرت ماركيوز Marcuse ورايت ميلز Mills ٠

والواقع ان فكرة « الجامعة الديموقراطية » ماتزال بحاجة الى مزيد من التحليل الدقيق ، خاصة وانها قد ظهرت فى اطار النقد الشديد الذى وجهه الطلاب الى الطابع التسلطى البيروقراطى الذى يسيطر على الادارات الجامعية ، فضلا عن التحكم الذى يمارسه بعض الاعضاء الخارجيين فى الشئون الجامعية من أمثال رجال الأحزاب وكبار موظفى الحكومة ٠ والواقع أن الجامعة بحكم تكوينها تتيح ـ فى كثير من الاحيان ـ ظروفا استثنائية لممارسة الديموقراطية : فثمة مساواة جوهرية بين أعضائها ، كما ان طبيعة العمل الجامعى يتيح فرصة تحكيم العقل والابتعاد عن ممارسة القهر ٠ ان البت فى بعض الشئون الجامعية كالمنح الدراسية والاكتشافات العلمية يوحى بأن الديموقراطية الجامعية ليست من ذلك النوع الذى يتطلب تمثيل أو موافقة الأغلبية ٠ بل ان من الصعب فى بعض الأحيان خلق الظروف الملائمة لممارسة العمل الجامعى كالمناخ الحر الذى يسمح بتبادل الرأى ، ووجود مجتمع فكرى مثالى ، وأسلوب معين للعلاقات الشخصية ٠ لذلك كله يصبح مفهوم « الجامعة الديمقراطية » مفضلا الى حد كبير ٠ وربما كان من الأفضل استخدام بعض العبارات كالادارة الذاتية الاكاديمية ، والمشاركة داخل المجتمع الطلابى ٠ وأعتقد ان مثل هذه العبارات قد تكون أكثر اتساقا مع عبارات توم هايدين Hayden السالفة الذكر والتى أكد فيها ضرورة أن تتولى هيئات التدريس الادارة الكاملة للجامعات ، وأن يتولى الطلاب ادارة انفسهم فى كل المجالات المتعلقة بهم ، والتى قد لا تؤدى الى مشكلات ذات طابع فكرى ، وان يشارك الطلاب ـ دون أن يحكموا ـ فى صياغة السياسة التعليمية ٠ والواقع ان الحركة الطلابية قد نجحت ـ الى حد

كبير ـ فى تحقيق هــذه الأهـداف وعلى الأخص فيمـا يتعلق بسيطرة الأعضـاء غير الاكاديميين عن الادارات الجامعيـة • ومن الطبيعى أن يتفق الطلاب فى هـذا المجال مع الغالبيـة العظمى من اعضاء هيئـات التدريس فى الجامعات •

وهنـاك ارتباط وثيق بين الجوانب الثـلاث التى تمثلهـا الحركة الطلابية بوصفها حـركة راديكالية جديدة ، وتعبيـراً عن جيـل جديد ، وتجسيدا لجماعة من جماعات المصلحة داخل الجامعـة • ومن الطبيعى ان تؤثر القضايا التى تثار فى كل جانب على الجوانب الأخرى : فالحرب والاعداد لهـا ـ وهى من موضـوعات الاحتجاج السياسى ـ يؤثر على الجامعات التى تتولى بدورها تطوير بعض الأساليب التكنولوجية للحرب من خـلال البحوث التى تجريهـا • ويبدو ان هنـاك شبها واضحا بين بعض المشـكلات التى يطالب الطلاب بحلها من ناحيـة والجوانب الثلاث التى تمثلها الحركة الطلابية • مثـال ذلك وجـود البناءات ذات الطابع التسلطى البيروقراطى التى تحـول دون مشـاركة الأعضـاء وتحملهم مسئولياتهم • وبسبب هـذه العـلاقات المتداخلة ، فان التطورات المقبلة للحركة الطلابية سوف تتوقف ـ الى حـد كبير ـ على الأحداث السياسية العامة • فبنهاية حرب فيتنام ستفقد الحركة الطلابيـة قدرا من جاذبيتها ونفـوذها وعلى الأخص فى الولايات المتحـــدة • اما فى معظم الـدول الأوربية فان الطـلاب سوف يشكلون « جمـاعة نشطة » داخـل حركات اجتماعية راديكالية كبيرة ؛ بينما قـد تشكل الحركة الطلابية فى الولايات المتحـــدة نواة حزب راديكالى جـديد ، على الرغم من أن الدلائل التى تشير الى ذلك ليست مشجعة ، خاصة اذا ما اخـذنا فى الاعتبار ما حدث فى « مؤتمر السياسة الجديدة » الذى عقـد خلال العام الماضى • واعتقد ان اهم وظيفة يمكن ان تؤديهـا الحركة الطلابيـة فى كل مكان هى خلق جيـل جديد من المفـكرين الراديكاليين ، وأن من الصعب الحـكم على انجازاتها فى هذا المجال قبل مرور عقد على الأقل •

الفصل الرابع عشر

مستقبل الراديكالية (١)

تشـهد الدول الصناعية الآن اتجاهات مضـادة للراديكالية فضلا عن انقسامات حـادة داخـل الحركة الراديكالية ذاتهـا ٠ والواقع أن تغيرات وتحـولات كبيرة قـد طرأت على الطابع الـذى يميز الحركات الاجتماعيـة الجديدة منـذ ظهورها فى أواخـر الخمسينات ، وذلك بعد العدوان الثلاثي على مصـر والتدخـل السوفيتي فى المجر ٠ « فاليسار الجديد » الذى ظهر خلال تلك الفترة فى الدول الأوربية كان لا يزال جزءا من الحركات الاشتراكية والراديكالية التقليدية وذلك من خلال العضوية فى التنظيمات العمالية والمشاركة فى تطوير الأفكار الماركسية والاشتراكية بوجه عام ٠ من ذلك يبدو واضحا أن اليسار الجديد قـد حقق قدرا من الاستمرارية من خـلال احتكاكه وارتباطه بالحركة الراديكالية التقليدية وخاصة تلك التى تطورت خلال ثلاثينيات القرن العشرين ٠

بيد أن تغيرا ملحوظا قد طرأ مع اعادة بعث الراديكالية فى الولايات المتحدة الأمريكية ٠ ولقـد بدأ ذلك بحركة الحقوق المدنية التى نشأت فى أوائل الستينيات ، والتى من خلالهـا ظهرت جماعتـان متميزتان هما : الطلاب والزنوج ٠ وفى بداية الأمر تعاونت الجماعتان فى أطار حركة اصلاحيـة نضالية ، لـكن الخـلاف بينهما مالبث أن دب حينمـا طالب الزنوج الراديكاليون بالاعتراف « بقوميـة سوداء » أو « قوة سوداء » ، فى الوقت الذى ظل فيـه الطلاب يشنون حملات ضـد الحروب ويقومون

---

(١) Reprinted, with minor revisions, from Bernard Landis and Edward S. Tauber (eds), In the Name of Life : Essays in Honour of Erich Fromm (New York, 1971).

بمواجهات ضد الادارات الجامعية من أجل مزيد من الديموقراطية والادارة الذاتية • وبنهاية سنة ١٩٦٨ كاد الانفصال بين الحركتين أن يكون تاما • وفى نفس الوقت بدأت كل منهما تبتعد عن الراديكالية بصورها السابقة : ففى حالة الزنوج ارتبطت الراديكالية كحركة « قومية » عنصريةارتباطا عاما بالأفكار الثورية فى العالم الثالث ؛ أما فى حالة الطلاب فقد ارتدت الراديكالية ثوب حركة الشباب ، ثم ما لبثت أن ارتبطت بمجالات التعبير عن الامتياء الثقافى كما يتبدى ذلك فى الاقبال الشديد على الموسيقى الشعبية « وادمان المخدرات بقصد توسيع الخيال » •

ولسوف نخصص مناقاشاتنا التالية لتحليل الحركة الطلابية التى اتخذت طابعا عالميا ، وان بدت اقل ارتباطا بالظروف الأمريكية بصفة خاصة(٢) • والواقع أن رايت ميلز Mills كان قد تنبأ ببعض التطورات التى مرت بها الحركة الطلابية فيما بعد ، كما أوضح المبررات الفكرية التى تستند اليها • ولقد ناقش ميلز ظروف هذه الحركة ابتداء من افتقاد الولايات المتحدة لحركة عمالية قوية حتى ظهور الحاجة القوية لاحداث تغيرات جذرية فى ضوء الانتقادات الثقافية التى وجهها الجيل الجديد من المثقفين • ويبدو أن هذا النمط الأمريكى من الراديكالية قد اتخذ شكلا محددا فى « حركة الخطابة الحرة فى بيركلى » فى سنة ١٩٦٤ ، ثم ما لبث أن انتشر انتشارا واسعا فى كثير من الدول الأوربية • أما سبب التأثير الشديد لهذه الراديكالية فيعود ـ فيما يبدو ـ الى تغلغل الولايات المتحدة فى السياسة الدولية • ان العامل الهام الذى أسهم فى توحيد الحركة الطلابية الراديكالية هو معارضة الحرب الفيتنامية • لكن ذلك لا يمنعنا من الاشارة الى عاملين آخرين

---

(٢) يمكننا أن نجد تحليلا اضافيا لبعض الملامح الهامة لحركة الزنوج فى :
Harold Cruse, : The Crisis of the Negro Intellectual (New York, 1967).

ولقد اتخذت الحركة مؤخرا اتجاها جديدا بظهور « جماعة بانثر السوداء » ، وهى جماعة تحاول التحالف مع الجماعات الراديكالية البيضاء ، واقترحت برنامجا اقتصاديا أقرب الى الأفكار الاشتراكية منه الى الأفكار الراديكالية الجديدة •

علي الاقل · الأول يتمثل فى زيادة احساس الشباب فى المجتمعات الصناعية بهويتهم كجيل متميز ، ثم شعور الطلاب الجامعيين انه بسبب سرعة التقدم التكنولوجي ، وزيادة أعدادهم (أى الطلاب) ، فانهم قد اصبحوا مؤهلين لشغل مكانة هامة داخل المجتمع · أما العامل الثانى فيتمثل فى الانهيار الظاهر الذى تعرضت له بعض الاتجاهات الراديكالية القديمة نسبيا ، والذى كشف عن نفسه فى انتشار ما أطلق عليه الطلاب « سياسة الاجماع » سواء اتخذ ذلك شكل التحالف الفعلى بين الأحزاب (كما حدث فى المانيا الغربية) أو الهزيمة السياسية التى منيت بها الأحزاب اليسارية الراديكالية · ويبدو أن أوربا الغربية قد شهدت خلال عقد الخمسينات نمط السياسة غير الملتزمة ايديولوجيا ، وهو نمط يشبه الى حد كبير ذلك الذى تعرفه الولايات المتحدة · والى المدى الذى قد يؤدى ذلك الى أحداث تغييرات على بناء الطبقة العاملة ودورها داخل الدول الأوربية ، فان النتيجة التى يمكن استنتاجها هى ضرورة البحث عن مصادر المعارضة والاستياء لدى جماعات اجتماعية اخرى ·

والملاحظ ان الحركة الطلابية ــ بوصفها طليعة جديدة للصراع السياسي ــ قد نمت وتطورت بسرعة فائقة فيما بين سنتى ١٩٦٤ و ١٩٦٨ ، الى ان وصلت الى قمتها خلال تمرد فرنسا فى سنة ١٩٦٨ · ومنذ ذلك الحين بدأت الحركة الطلابية تعانى من الضعف التدريجى · ففى الولايات المتحدة نجد المنظمة الراديكالية الأساسية (ويطلق عليها اسم الطلاب من أجل مجتمع ديموقراطى) تنقسم الى عدد من الجماعات المتصارعة · وفى فرنسا بدأت الحركة الطلابية تتحول الى مجموعات يسارية تتشابه فى افكارها ومثلها مع تلك التى توجد خارج الجامعة او المجتمع الفرنسى بصفة عامة · ومثل هذا يمكن ان يقال عن الحركة الطلابية الألمانية التى تفتتت قياداتها وفقدت كثيرا من جاذبيتها السياسية · اما بريطانيا فلم تعد تعرف تنظيما طلابيا راديكاليا فعالا · ومن المحتمل ان يكون ذلك كله مجرد نكسة مؤقتة أصيبت بها الحركة الطلابية · واذا كان صحيحا ــ كما يذهب البعض ــ ان « الانطاعية العلمية والتربوية » تشغل الآن مكانة حاسمة داخل المجتمع وانها تحاول صياغة ايديولوجية واساليب للعمل السياسى تلائم ظروفها ومواقفها كما فعلت ذلك الطبقة

العاملة الصناعية خلال القرن التاسع عشر ، اذا كان ذلك صحيحا فان الأحداث الأخيرة قد تكون بمثابة خطوات أولى نحو ايجاد نمط من التنظيم وصور من العمل السياسى اكثر ثباتا ودواما • ومن زاوية أخرى يمكننا تفسير الضعف الذى طرأ على الحركة الطلابية فى ضوء التغير الذى طرأ على مصالحها واتجاهاتها الفكرية والايديولوجية ، والناجم عن الحراك السريع الذى يحققه الطلاب بعد تخرجهم الجامعى والتحاقهم بالمهن المختلفة •

وأيا كانت تفسيراتنا لهذه الظواهر ، فان من المهم ابراز بعض جوانب الضعف التى تعانى منها الحركة الطلابية ، والتى تجاهلها بعض الدارسين فى أواخر الستينيات حينما طرح الطلاب ـ وبطريقة درامية ـ افكارا واتجاهات جديدة ، ساعدت على اثارة مناقشات فكرية وسياسية متباينة وأدت الى ظهور احتجاجات عديدة • وأحد جوانب الضعف التى يتعين الاشارة اليها يتمثل فى كون حركة الطلاب « حركة شباب » • ان التأثير الاجتماعى الذى قد يمارسه جيل الشباب قد يكون كبيرا (كما يشير الى ذلك كارل مانهايم Mannheim) من حيث أنه قد يسهم فى ظهور اتجاهات فكرية جديدة وأساليب حديثة للتفكير والممارسة ، فضلا عن تمثل وتطوير التراث الثقافى الذى يعيش فى ظله • لكننا نشك كثيرا فى أن الجيل الجديد المفتقد الى الخبرة والممارسة يمكن أن يلعب الدور الأكبر فى تشكيل بناء المجتمع وتحديد مساره • فعلى سبيل المثال نجد حركة « تركيا الفتاه » التى استحدثت كثيرا من الأفكار والممارسات لم تكن تعبر عن الفئة العمرية التى ينتمى اليها الطلاب الجامعيون • فأعمار أفراد هذه الحركة كانت تتراوح بين نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات ؛ وهم بذلك قد تخطوا مرحلة الاضطراب التى قد يتعرض لها الأفراد الأصغر سنا • وفضلا عن ذلك نجد أن هذا النوع من التجديد الثقافى أو الفكرى لا يتم بطريقة فردية ، بل يحدث فى اطار جماعة جيلية بأكملها • وحينما ندرس طبيعة الحركات الاجتماعية الواسعة والتغيرات الاساسية التى تطرأ على بناء المجتمع ، نجد أنها تعتمد على روابط مختلفة تميز الجماعة العمرية كالجنسية

أو القوميـة ، والمصلحة الاقتصـادية ، والعضوية الطبقيـة ، والانتماء الـديني ٠

ويبـدو أن هناك عوامل أخـرى تؤدى الى اصابة الحركة الطلابية بمزيد من الضعف ٠ وأحد هذه العوامل الدورة السريعة للطلاب ، والتي قـد تحـول دون ظهـور أسلوب أو تنظيم سياسى قوى ٠ أما العوامل الأخـرى فتتصل بتلك العـلاقة التى تربط بين الحركة الطلابيـة وبعض جوانب « ثقافة الشباب » كالولع بالموسيقى الشعبيـة وادمان المخدرات ، وهى جوانب لا تتضمن أية معـانى راديكالية على الاطلاق ٠ وقـد يكون صحيحا ـ كما يعتقد البعض ـ أن هـذه الجوانب تشكل جزءا من حركة عامة للتحرر ، لكننى لا أعتقد بامكانية قبول هذا التفسير ٠ ان الموسيقى الشعبية الصاخبة تعبر عموما عن أحاسيس فترة المراهقة كالشك وعدم اليقين ٠ واذن فهذا اللون من الموسيقى لا يتضمن معانى نقدية هامة ٠ ولو افترضنا أنه يعبر عن بعض هذه المعانى فانها قد فقدت قيمتها بنمو المصالح الاقتصادية ٠ وأقصى ما يمكن قوله حول هذه الموسيقى بوصفها تجديدا ثقافيا هو أنها قد تعكس الرغبة فى خلق مجتمع أكثر رحابة واتساعا أو التحرر من السيطرة المادية واستعادة الذات ٠ وفى الموسيقى الشعبية قد نجد تعبيرا عن النقد الاجتماعى ، لكنه يضعف ويتهاون كثيرا أمـام صور الاحتجاج التقليدية ٠ ففى بعض الاحيان نجد بعض المغنين الشعبيين يرددون أغانى الاحتجاج السياسى بقصد الحصول على مزيد من الثروة والشهرة(٣) ٠

ولا يمكن القول أيضا بأن ادمان العقاقير والمخدرات يعتبر وسيلة تحررية ٠ اذ كيف يمكن تحقيق الحرية الانسانية بجعل العقول والخبرات معتمدة تماما على المواد الكيمائية ؟ ان ذلك يعنى تحول القوى الانسانية لتصبح ضمن عالم الأشياء ، وادمان المواد المخدرة ـ شأنه فى ذلك شأن ادمان الخمور ـ هو عمل يعبر عن اليأس والانسـحاب من مواجهـة

---

(3) See the discussion in R. Serge Denisoff, " Folk Music and the American Left : A Generational - Ideological Comparison ", British Journal of Sociology, 20 (4) (December 1969).

القضايا العامة الى الانغلاق على المشكلات والخيالات الشخصية • واذا كان هذا النوع من الادمان يعكس عدم ارتياح الفرد بظروف المجتمع من وجهة نظره الخاصة ، فانه يشير ـ في نفس الوقت ـ الى حالة مرضية يعانى منها المجتمع نفسه • لكن ذلك كله لا يؤدى الى ظهور حركة تسعى الى اعادة بناء المجتمع على نحو شامل •

وليس من الواضح تماما حتى الآن كيفية الارتباط الوثيق بين العناصر المختلفة التى تؤلف « ثقافة الشباب » • ولكن يمكن القول انه الى المدى الذى تركز فيه الحركة الطلابية على طابعها الجيلى ، فانها تخضع لتاثير النظرة السائدة لدى الجماعة العمرية التى تنتمى اليها • وهناك قدر ملحوظ من التبادل الثقافى بين جماعات « الهيبى » والجماعات النشطة سياسيا والأصغر سنا (وان كان ذلك يبدو أكثر وضوحا فى الولايات المتحدة منه فى أى دولة أخرى) • ان هذه الامتزاج بين الاتجاهات الراديكالية وغير الراديكالية هو الذى يسهم فى زيادة الخلط الايديولوجى الذى يسيطر على الحركة الطلابية • ومع ذلك فان مسالة الخلط الايديولوجى هذه قد تكون ظاهرة شائعة فى كثير من المواقف ، وبالتالى فلنا أن نتوقع وجودها فى اطار الحركة الطلابية •

والملاحظ أن الحركة الطلابية قد حققت انجازاتها فى الوقت الذى كان فيه الفكر الاجتماعى الراديكالى يتعرض لأزمة قاسية نشأت عن الانتقادات والمراجعات التى تعرض لها الفكر الماركسى(٤) ، وفى مواجهة المذاهب التى طورتها الحركات الثورية فى المجتمعات الزراعية (كما هو الحال فى الصين وكوبا وشمال افريقيا وبعض آخر من دول العالم الثالث) ؛ فضلا عن الحوار الذى تم مع أصحاب النظريات الجديدة التى

---

(٤) من المستحيل هنا استعراض كل الانتقادات ومحاولات اعادة التفسير التى تناولت الماركسية خلال المقدين الأخرين • ومن بين الاسهامات الهامة البارزة فى هذا المجال تلك التى قدمها كولاكوفسكى KolaKowski واوسوفسكى Ossowski ، ورايت ميلز Mills ، وهيربرت ماركيوز Marcuse ، وهابرماس Habermas ؛ وجان بول سارتر Sartre وايرك فروم Eric Fromm

تناولت طبيعة المجتمعات الصناعية الحديثة(٥) • وكنتيجة لذلك اعتمد الطلاب فى تفكيرهم على مصدرين مختلفين تماما : افكار وتجارب الثوار فى العالم الثالث من ناحية ، والتفسيرات الحديثة التى يقدمها النقاد الاجتماعيون فى الدول الصناعية من ناحية اخرى • ومن الصعب الافتراض بأن الطلاب يستطيعون صياغة نظرية اجتماعية متسقة من خلال هذه الأفكار والتفسيرات ، على الرغم من انهم قد اثاروا تساؤلات نقدية ، وطرحوا نظرة اجتماعية جديدة قد تعينهم على توجيه الفكر الاجتماعى النقدى • ومن أسف أن يتحول هذا النشاط الهام الى مجرد حملات سياسية قام بها الطلاب ، رافعين شعارات تتصف بالسذاجة ، مما دفع بالحركة الطلابية الى الدخول فى صراعات مع بقية قطاعات المجتمع بما فى ذلك الحركة العمالية ذاتها(٦) ، وبالتالى ضعفت فعالية النقد الاجتماعى الذى حملت لواءه الجامعات لفترة طويلة •

ان مستقبل الراديكالية ـ فكرا وعملا ـ يتوقف على نجاح الحركة الطلابية فى التغلب على السيطرة المفروضة عليها • فالحركة الطلابية ظلت تمثل مجرد قطاع داخل حركة فكرية نامية تتبنى بعض المفاهيم الاشتراكية الانسانية (وذلك على خلاف صور التذمر المبكرة) • ولقد شنت هذه الحركة هجومها الشديد ضد أعدائها العديدين : ضد الرأسمالية، والتكنوقراطية ، والاشتراكية الشمولية • وفى نطاق هذه الحركة هناك أهداف عديدة هامة يمكن أن يسهم فى تحقيقها الطلاب ان لم يكن قد أسهموا بالفعل • وأول هذه الأهداف أن يسهم الطلاب ـ وهذا ينطبق بصفة خاصة على الذين يدرسون العلوم الاجتماعية ـ فى تقديم انتقادات

---

(٥) For example, Raymond Aron, 18 Lectures on Industrial Society (New York, 1967), and J. K. Galbraith, The Affluent Society (Boston, 1958) and The New Industrial State (London, 1967).

(٦) حدث ذلك فى عدد من الدول الأوربية الغربية حينما توترت العلاقات وظهرت الصراعات بين الحركة الطلابية الراديكالية من ناحية والأحزاب الاشتراكية ونقابات العمال من ناحية اخرى • وبدا ذلك أوضح ما يكون فى المانيا الغربية فى سنة ١٩٦٨ • اما فى الولايات المتحدة فان الهوة بين العمال والطلاب قد اصبحت اوسع من أى وقت مضى • ومن الأمثلة الحديثة على ذلك المظاهرات التى قام بها عمال البناء فى نيويورك ضد حركة السلام •

فعالة للمجتمع · وثاني هذه الأهداف هو تدعيم هـــذه النظرة النقدية ـ على أن تكون راديكالية قدر المستطاع ـ حتى تتمكن من الانتشار خارج نطاق الجامعة ، وعلى الأخص داخل المهن العلمية والفنية التى سيلتحق بها الطلاب بعد تخرجهم · أما الهدف الثالث فهـــو الدفاع عن الحـــرية الفكرية والاستقلال داخل الجامعات أو اعادة بنائها فى تلك المجتمعات التى خضعت فيها الجامعات لسيطرة رجال الأعمال وكبـــار موظفى الحكومة ورجال الاحزاب السياسية · وفيما يتعلق بهـــذه النقطة بالذات فاننى أعتقد أن المسئولية الكبرى تقع على عاتق أساتذة الجامعـــات : اذ أن تقصيرهم ـ فى كثير من الاحيان ـ هو السبب فى تحمل الطلاب أعبـاء لا قبل لهم بها · وهناك بعد ذلك هدف آخر يرتبط بالهدف الأخير ارتباطا قويا وهو أن تدرس بشيء من الدقة والاهتمـــام البدائل المطروحة لفكرة الجامعة « كمصنع للمعرفة » · واذا ما اخـذنا فى الاعتبـــار المعارضة الشديدة التى أبداها الطلاب لسيطرة الطابع البيروقراطى على الجامعات، اتضح لنا انه لم تبذل حتى الآن أية محاولات جادة لتحديد الاحتياجات الأساسية التى تضمن توافر مناخ انسانى داخل الجامعات واستعـــادة الطابع الذى يميزها بوصفها اطارا يضم مجموعة من الدارسين المتفاعلين والقادرين على تطوير فكر نقدى لا يخضع لأية قيود · ومن الخطـــوات الضرورية لتحقيق ذلك ضـــرورة تحديد حجم الجامعات ، واصلاح نظام الادارات الجامعية على الأقل فى بعض الدول · وقبل ذلك كله هنـــاك ضرورة التفكير العميق حول الطابع السليم للجامعـــات خـــلال القرن العشرين ، حيث ينمو التعليم الجامعى نموا سريعا · ولا شك أن تصرفات الطلاب المتمردين خلال السنوات الأخيرة تحول دون القيام بهذا التفكير العميق · فلقد أبدى هؤلاء الطلاب رغبتهم فى تدمير الجامعات ، وعبروا عن احتقارهم للحياة الفكرية ، واظهروا عدم اسـتعدادهم لتقبـــل آراء مختلفة عن آرائهم ، فضلا عن اصرارهم الشديد على الخوض فى مناقشة قضايا سياسية خالصة · ان من شأن ذلك كله القضـــاء على المســـألة الراديكالية بأكملها · ويجب أن يكون واضحا أن مجتمعا معاصرا سليما لا يستطيع أن يؤدى وظائفه ومهامه دون وجود الجامعات أو المعـــاهد العليا التى من خلالها يمارس الناس الحياة الفكرية الحرة ·

ولو افترضنا نمو حركات الاستياء الفكرى كما بدأ ذلك خلال الستينيات ، وافترضنا ايضا قدرة هذه الحركات على صياغة نظرية نقدية متماسكة وهو ما لم يتحقق بعد ، فان ذلك لن يكون كافيا لاحداث تحولات اساسية داخل المجتمع · فلكى تحدث تغييرات راديكالية يتعين وجود حركة اجتماعية تستطيع التعبير عن ممارسات ومصالح عدد كبير جدا من الناس ·وفى معظم الدول الاوربية الغربية نجد الحركةالعمالية تؤدىهذا الدور بحيث لا نجد خارج اطارها اية سياسيات راديكالية · والواقع ان هناك شواهد عديدة تشير الى ان هذه الحركة قد أصبحت اكثر راديكالية · ومن الأمثلة على ذلك اتساع نطاق الاضراب العام فى فرنسا فى مايو ١٩٦٨ والذى اثر تاثيرا بالغا على نظام حكم ديجول ، وكذلك موجه اضرابات نقابات العمال فى ايطاليا فى نهاية ١٩٦٩ ، والنضال المتزايد الذى بدات تخوضه جماعات العمال فى اكثر الدول الصناعية تقدما من الناحية التكنولوجية ، فضلا عن محاولات احياء الأفكار التى تؤكد ضرورة ممارسة العمال للادارة الذاتية · ومع ذلك كله فان من غير المحتمل أن تتمكن الراديكالية الفكرية فى الجامعات بالتعاون مع الاتجاهات الجديدة داخل الحركة العمالية من احداث تغييرات اجتماعية كبرى خلال العقد المقبل على اقل تقدير ·

وفى الولايات المتحدة الأمريكية قد يبدو عسيرا التنبؤ بنمو حركة راديكالية واسعة المدى · فمنذ نهاية الحرب العالمية الأولى لم تشهد الولايات المتحدة حركة عمالية جماهيرية التزمت باحداث تغييرات جذرية داخل بناء المجتمع الأمريكى · فهل يمكننا تصور حدوث تغير فى هذا الموقف الآن خاصة فى ظل زيادة الرخاء وضعف نقابات العمال ؟ هناك فى الواقع ــ وكما يؤكد الراديكاليون دائما ــ جماعات عديدة داخل المجتمع الأمريكى لا تحصل على مزايا مادية وتشكل نويات او بؤر محتملة للمعارضة · ولقد اشتركت بعض هذه الجماعات ــ وعلى الأخص الزنوج والمكسيكيون ــ فى صور مختلفة من الكفاح وان لم يتخذ ذلك شكل العمل الراديكالى العنيف · وهناك بالاضافة الى ذلك التمرد الذى قام به جيل الشباب ــ وعلى الأخص الطلاب ــ ضد الظروف السائدة فى المجتمع الأمريكى · وفى كل ذلك ظلت الطبقة العاملة الأمريكية متخذة موقف

المتفرج ، وبمنأى عن تبنى اية سياسة راديكالية · ولا اعتقد ان هـــذه الظروف سوف تتغير بسرعة · اما اذا تمكنت حركة الاستياء الفــكرى القائمة الآن من جذب مختلف حركات المعارضة وتشكيل تنظيم سياسى واحد (وليكن حزب راديكالى جديد) ، فان من المحتمل حينئذ ان يجذب هذا التنظيم كثيرا من العمال لسياساته واعماله ، وخاصة العمال فى الدول الصناعية الأكثر تقدما الذين بداوا مؤخـرا يبدون حرصهم على التحكم فى ظروف العمل التى يخضعون لهـا · ولا يمكن الحــكم على كل هذه الاحتمالات الا فى ضوء الواقع والممارسة · وعلى اية حال فان تشكيل حزب راديكالى جديد قد يكون بمثابة امـــل جديد اكثر من كونه استمرارا لاحتجاجات متفرقة او اضرابات مؤقتة ·

كذلك فان من الصعب تقـــويم التغيرات المحتملة التى ستطرا على مجتمعات الاتحاد السوفييتى واوربا الشرقية · فمن الواضح ان استياء فكريا قد نما فى هذه الدول منذ سنة ١٩٥٦ ، وان من الأمور المشكوك فيها ان تنتشر فى هذه الدول تلك النظرة الاجتماعية التى قدمها المثقفون والطلبة التشيكوسلوفاكيون خلال النهضة الاشتراكية التى حدثت فى سنتى ١٩٦٧/١٩٦٨ · ومع ذلك علينا ان نلاحظ انه فى الحالات التى ظهرت فيها حركات راديكالية فى هذه الدول (كما حدث فى المجر وبولندا فى سنة ١٩٥٦ وتشيكوسلوفاكيا فى ١٩٦٧/١٩٦٨) بدت الصلة واضـــحة وقوية بين القطاعات المعارضـــة من المثقفين والطبقة العـــاملة ونقابات العمال · واذا كان لنا ان نتوقع تقدما (فى ضوء اقتصاد قائم على نظام جماعى) نحو ايجاد مجتمع اشتراكى يشعر فيه افراده بالتحرر الحقيقى – لا ان يكونوا أدوات خاضعة لسيطرة الرقابة والحزب والبوليس السرى – فلابد من تعاون المثقفين الذين يطالبون بحرية التفكير والنقد مع العمال الذين يطالبون بالسيطرة على ظروف عملهم وتمكينهم من أداء دور حقيقى فى تحديد السياسة الاجتماعية ·

وفى كل الحركات الراديكالية الحديثة نلمس صلة قوية بين الأفكار والمصالح · وتبدو هذه الصلة اكثر قوة حينما ترتبط نظرية اجتماعية – كالماركسية – بحركة اجتماعية بعيدة التاثير · والواقع ان اســـهام

المثقفين الراديكاليين فى هذه العملية قد يكون سلبيا وايجابيا فى آن واحد . فمن الواضح انهم (أى المثقفين الراديكاليين) يستطيعون تحديد طابع المجتمع بطريقة نقدية حيث يبرزون مظاهر الظلم الاجتماعي والقيود الفكرية والصراعات الاجتماعية . وحينما ينتشر مثل هذا النقد بدرجة كافية ، فانه قد يكون أحد العنــاصر التى تسهم فى تهيئة الطريق لاقامة مجتمع جديد . لكن هذا النقد لا يكون مكتملا الا اذا أوضح لنا الاتجاهات الممكنة للتغير ، وفسر الحركات الاجتماعية الجديدة ، وحدد ملامح نظام اجتماعي جديد . واذن فمن المهم انجاز المهمة التى كرس ماركس نفســه من اجلها خلال فترة شبابه حين كتب يقول : « اننا نصوغ مبادىء جديدة للعالم من خلال المبادىء القائمة التى تحكمه ... اننا قد نلخص الشعار الذى ترفعه مجلتنا (الحولية الألمانية ـ الفرنسية) فى عبارة واحدة هى : المعرفة الذاتية (الفلسفة النقدية) لضروب الكفاح وانماط الأهداف التى تسيطر على العصر الذى نعيش فيه » .

ان هذه النظرة الايجابية (أى صياغة مبادىء جديدة من خــلال المبادىء القائمة) هى ـ فيما يبدو ـ اكثر جوانب الفكر الراديكالى ضعفا وغموضا . واذا حاولنا البحث عن سبب هذا الضعف والغموض فسنجده متمثلا فى الأوهام التى ارتبطت بالاشتراكية ، والتى ظهرت فى أواخــر الثلاثينيات ، ثم ازدادت قوة بتطور النمط السوفييتى الاشتراكى منــذ نهاية الحرب العالمية الثانية وابتداء من سياسة الستار الحديدى التى فرضها ستالين حتى الغزو السوفييتى لتشيكوسلوفاكيا . ان على المثقفين الراديكاليين الآن أن ينتقدوا كلا من المجتمعات الرأســمالية والاشتراكية على السواء ومن المحتمل أن تنصب انتقاداتهم الأساسية على التصنيع ذاته . ان محاولات التوصل الى اشكال بديلة للمجتمعات قــد تعرضت للضعف الشـــديد ، لأن ما كان يعد مثاليــا فى وقت من الاوقات (أى الاشتراكية) قد اصبح الآن واقعا محيرا . ولمواجهة هذا الموقف علينا اعادة النظر فى الاشتراكية سواء فى ضوء النظم الملائمة لمجتمع قائم

على المساواة(٧) ، أو فى ضوء الحركات الاجتماعية والأعمال السياسية القادرة على ايجاد هذا المجتمع دون التعرض للعنف والكبح ٠

---

(٧) اضع فى اعتبارى – على وجه الخصوص – الدراسات الجادة التى تناولت مشكلات الادارة والمشاركة فى الصناعة الكبيرة الحجم ، وتلك التى درست الادارة الاجتماعية بحيث تصبح الخدمات الاجتماعية تحت سيطرة الذين يحتاجون اليها ٠ وبالاضافة الى ذلك هناك دراسات تناولت التغيرات التى طرأت على النظم التعليمية ، والتى ادت بالتالى الى الممارسات التسلطية واتاحة الفرصة لممارسة الادارة الذاتية ٠ ولا نجد فى الواقع سوى اهتمام فكرى ضئيل بدراسة الأشكال المحتملة للنظم الجديدة ، كما لا نجد اهتماما يذكر بالممارسات الواقعية التى سعت الى اقامة تنظيمات مستندة الى مبادىء المساواة كمجالس الادارة الذاتية للعمال ، ومجتمعات العمل ، ومشروعات تنمية المجتمعات المحلية ٠

سلسلة علم الاجتماع المعاصر

صدر منها :

الكتـاب الأول :

ميادين علم الاجتماع : اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمود عوده ومحمد على محمد والسـيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٩ ·

الكتاب الثـانى :

نظرية علم الاجتماع : تاليف نيقولا تيماشيف ، ترجمـة الدكاترة محمود عوده ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسـيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٠ ·

الكتاب الثـالث :

أساليب الاتصال والتغير الاجتماعى : تاليف الدكتور محمود عوده ، دار المعارف ، ١٩٧٠ ·

الكتـاب الرابع :

تمهيد فى علم الاجتماع : تاليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعليـاء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨١ ·

الكتـاب الخامس :

مجتمع المصنع : دراسـة فى علم اجتماع التنظيم ، تاليف الدكتور محمد على محمد ، الهيئة العامة للكتاب بالاسكندرية ، ١٩٧٢ ·

الكتـاب السادس :

الصفوة والمجتمع : تاليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى

وعلياء شكرى والسيد الحسيني ومحمد على محمد ، الطبعة الثـــانية ، دار المعارف ، ١٩٧٨ ٠

الكتاب الســـابع :

الطبقات فى المجتمع الحديث : تاليف بوتومور ، ترجمـــة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والســـيد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ٠

الكتاب الثـــامن :

علم الاجتماع الفرنسى المعاصر : تاليف الدكتورة علياء شـــكرى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ٠

الكتاب التاســع :

قراءات معاصرة فى علم الاجتماع : للدكاترة علياء شكرى ومحمد على محمد ومحمد الجوهرى ، الطبعة الثانية ، دار الكتـــاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ٠

الكتاب العـــاشر :

دراسات فى التنمية الاجتماعية : تاليف الدكاترة السيد الحسينى ومحمد على محمد وعلياء شكرى ومحمد الجوهرى ، الطبعة الرابعـــة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ ٠

الكتاب الحادى عشر :

مشكلات اساسية فى النظرية الاجتماعية : تاليف جـــون ركس ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى ومحمد سعيد فرح ومحمد على محمـــد والسيد الحسينى ، منشاة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٣ ٠

الكتاب الثانى عشر :

التغير الاجتماعى : تاليف الدكتور محمـــد الجوهرى وآخرون ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨١ ٠

الكتاب الثالث عشر :

دراسة علم الاجتماع : اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الرابع عشر :

علم الاجتماع الريفى والحضرى : للدكتور محمد الجوهرى والدكتوره علياء شكرى ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨٠ .

الكتاب الخامس عشر :

مقدمة فى علم الاجتماع : تاليف الكس انكلز ، ترجمة وتقديم الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، ١٩٨١

الكتاب السادس عشر :

مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى : تاليف الدكتور محمد الجوهرى، دار الكتاب للتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ .

الكتاب السابع عشر :

علم الفولكلور ، الجزء الأول : تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الثامن عشر :

النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم : تاليف الدكتور السيد محمد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب التاسع عشر :

مصادر دراسة الفولكلور العربى : اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

الكتـــاب العشرون :

الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية : اشراف الدكتـــور محمـــد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ ٠

الكتاب الحادى والعشرون :

علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث : تاليف الدكتـــور محمد الجوهرى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٨١ ٠

الكتاب الثانى والعشرون :

علم الفولكلور ، الجزء الثانى : دراسة المعتقدات الشعبية ، تاليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨٠ ٠

الكتاب الثالث والعشرون :

بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى : دراسات ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية فى المملكة الســعودية ، تاليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ٠

الكتاب الرابع والعشرون :

التراث الشعبى المصرى فى المكتبة الأوربية : تاليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ ٠

الكتاب السادس والعشرون :

دراسات معاصرة فى علم الاجتماع : تاليف الدكتورة علياء شكرى، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبع ٠

الكتاب السابع والعشرون :

عادات الطعام فى الوطن العربى : تاليف الدكتورة علياء شكرى ، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبع ٠

الكتاب الثامن والعشرون :

الفلاحون والدولة : تاليف الدكتـــور محمود عودة ، دار الثقـــافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ ٠

الكتاب التاسع والعشرون :

تاريخ علم الاجتماع ، الجزء الاول : تاليف الدكتـــور محمد على محمد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ ٠

الكتاب الثـــلاثون :

علم الاجتماع والمنهج العلمي : تاليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨١ ٠

الكتاب الحادى والثلاثون :

اصول علم الاجتماع السياسي : تاليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ ٠

الكتاب الثانى والثلاثون :

جماعات الغجر مع اشـارة لغجر مصـر والبلاد العربيـة : تاليف الدكتور نبيل صبحى حنا ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠٠

الكتاب الثالث والثلاثون :

الانثروبولوجيا : اسس نظرية وتطبيقات عمليـة ، تاليف الدكتـور محمد الجوهرى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ٠

الكتاب الرابع والثلاثون :

علم الاجتماع السياسي : المفاهيم والقضايا ، تاليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ٠

الكتاب الخامس والثلاثون :

علم الاجتماع العسكرى : التحليل السوسيولوجى لنسق السلطة العسكرية ، تاليف الدكتور احمد خضر ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ٠

الكتاب السادس والثلاثون :

الفكر الاجتماعي : نظرة تاريخية عالميـة ، تاليف هاينز موسى ،

ترجمة الدكتور السيد الحسيني والدكتورة جهينة سلطان العيسى ، توزيع دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١ ·

الكتاب السابع والثلاثون :

التنمية والتخلف : دراسة تاريخية بنائية ، تأليف الدكتور السيد الحسني ، الطبعة الأولى ، توزيع دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ·

الكتاب الثامن والثلاثون :

المدينة : دراسة في علم الاجتماع الحضري ، تأليف الدكتور السيد الحسيني ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨١ ·

الكتاب التاسع والثلاثون :

النظرية الاجتماعية المعاصرة : دراسة لعلاقة الانسان بالمجتمع ، تأليف الدكتور على ليلة ، دار المعارف ، ١٩٨١ ·

الكتاب الاربعون :

علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية : تأليف الدكتور احمد زايد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨١

الكتاب الحادى والاربعون :

البناء السياسي في الريف المصري : تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة ، تأليف الدكتور احمد زايد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ ·

الكتاب الثاني والاربعون :

علم الاجتماع الأمريكي : دراسة لاعمال تالكوت بارسونز ، تأليف جي روشية ، ترجمة الدكتور محمد الجوهري والدكتور احمد زايد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ ·

الكتاب الثالث والاربعون :

البنائية الوظيفية في علم الاجتماع والانثروبولوجيا : المفاهيم

والقضايا ، تأليف الدكتور على ليلة ، الطبعة الأولى ، دار المعـارف ، ١٩٨١ ·

الكتاب الرابع والاربعون :

علم الاجتماع والنقد الاجتماعى : تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى والسيد الحسينى وعلى ليلة واحمد زايد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ ·

الكتاب الخامس والاربعون :

الاقتصاد والمجتمع فى العـالم الثالث : تحرير ألن مونتجوى ، ترجمـة وتعليق الدكاترة محمـد الجوهرى ، على ليلـة ، احمـد زايد الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ ·

الكتاب السادس والاربعون :

وقت الفراغ فى المجتمع الحديث : تأليـف الدكتـور محمـد على محمد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨١ ·

الكتاب السابع والاربعون :

علم الاجتماع : تأليف جونسون ، ترجمة وتعليق الدكاترة علياء شكرى ومحمد الجوهرى وعلى ليلة واحمـد زايد وحسن الخـولى ، تحت الطبع ·

الكتاب الثامن والاربعون :

الريف والمدينة فى مجتمعات العالم الثالث : مدخـل اجتمـاعى ثقافى · تأليف الدكتور حسن الخولى · تحت الطبع ·

الكتاب التاسع والاربعون :

المرأة المصرية بين البيت والعمل : تأليف الدكتـور محمـد سلامة آدم · تحت الطبع ·

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
٢٨٥٦ / ١٩٨١م

دار الثقافة للطباعة والنشر
٢١ شارع كامل صدقى ـ الفجالة
القاهرة : ت ٩١٦٠٧٦

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

Bibliotheca Alexandrina
03395791

م
٢٥٠

١١٤٦٣٥٠١